



في
الدِّينِ - النَّفْسِ - الْمَالِ

د. عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن الحسين
كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ١٥٠٩ م

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها

في الدين - النفس - المال

تأليف

د. عبد العزيز بن محمد بن حسن آل عيسى

كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

(ح) مركز ابن تيمية للنشر والتوزيع، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحميدي، عبد العزيز بن أحمد بن محسن

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها في الدين - النفس - المال. /

عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي - الرياض، ١٤٣٦ هـ

٤٤٨ ص ؛ ١٧ * ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٥٣٤-٨-٤

١- الحرية في الإسلام. ٢- الإسلام وحقوق الإنسان أ. العنوان

١٤٣٦/١٦٢٧

ديوي ٢٥٧,٩

رقم الإيداع: ١٤٣٦/١٦٢٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٥٣٤-٨-٤

فسح من وزارة الإعلام رقم: ٨٦٤ تاريخ ١٤٣٦/٢/٢٥ هـ

الطبعة الأولى / ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب،
أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات،
سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو
التخزين والاسترجاع دون إذن خطي مسبق من المؤلف

يطلب من: مركز ابن تيمية للنشر والتوزيع - الرياض

للتبليغات جوال: ٥٠٣٦٨٩-٥٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله خلق الإنسان، علمه البيان، وأنعم عليه بالسمع والبصر والجنان،
وكرّمه وحمله في البر والبحر وفضله على سائر الحيوان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوى، وقدر فهدى،
وكل شيء عنده بأجل مسمى.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله. وصفيه وخليله. أرسله الله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله. فتح الله به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا،
حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى
آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد ..

فالحرية هي ضد العبودية، وهي مطلب لبني الإنسان طالما نشدوه، وما زالوا
ينشدونه، ويطلبونه. ولكنهم قد يخطئون طريق الحرية الحقّة التي ينشدون
فيضعون لها تصورات منحرفة. ويصطلحون باسمها على أوضاع منحلة،
زاعمين أن هذه هي الحرية، ويضعونها ضمن أهم مرتكزات حقوق الإنسان.

الحرية اسم بَرّاق، جذاب، تتعلق به النفوس، وتطرب له القلوب. وطالما كتب باسمها المصلحون، ورفع شعارها الناشدون للقيادة والرئاسة، وسرقت باسمها أصوات الناخبين. فيقع الناس فريسة للإعلام الصاخب؛ لكنه الكاذب. ويسقطون في حمأة الشهوات المحمومة؛ لكنها المجنونة. فيرتكسون وينحدرون في دركات «العبودية» ولكن باسم ضدها «الحرية».

• في عالم اليوم لا حدود لجشع التاجر الرأسمالي التَّهم. ولا لصاحب الفكر المدمر، ولا لصاحب السعار الشهواني المحموم.

فإذا وقع الإنسان المسكين فريسة لهؤلاء. وذهب يطلب حقه المنهوب، وذهب يشتكي أولئك الذين سرقوا ماله وعقله وعرضه. باسم مبادئ التجارة الحرة. والإعلام الحر. وحرية التعبير. ونحو ذلك. جابهوه بتلك العبارة التي تقنظه من كل حق. فقالوا له: «النظام لا يحمي المغفلين».

• ولكن دعوات الأنبياء والمرسلين ﷺ، وشريعة رب العالمين. جاءت لتحرير هذا الإنسان المسكين. من أولئك الجشعين. المتغولين.

جاءت لتحرير العباد من ظلم العباد. وضمان الحقوق. وردع الاعتداء وتحريم الظلم بجميع صورته وأشكاله. وإيصال الحق إلى الضعيف المسكين، والباس الفقير. ضمن منهج الله الذي ارتضاه لعباده والذي لا يصلح لهم ولا يصلحهم إلا هو.

في الوقت الذي تقف فيه الأديان الوضعية من جهة، والقوانين البشرية من جهة أخرى ضد منهج الله، الصالح للحياة. فالأديان الوضعية تنزل العباد من تمام الحرية في عبادة الله الواحد الأحد إلى ذلة العبودية بعبادة حجر أو شجر أو بشر أو بقر أو شمس أو قمر من دون الله الواحد الأحد.



والقوانين الوضعية التي وضعها البشر للبشر. تدمر الكليات الخمس التي جاءت الشريعة لصيانتها، وهي: الدين، والعقل، والمال، والنفس، والعرض، باسم ضمان الحريات وحقوق الإنسان.

فلنتظر كيف يدعو منهج الله المقدس البشرية إلى تمام الحرية، وكيف يحققها واقعًا ملموسًا لا شعارًا مرفوعًا.

وكيف تدمرها الأديان الهابطة الأرضية. والقوانين والفساد والفساد الوضعية تدميرًا. وترتكس بالبشرية إلى ذل العبودية باسم الحرية. وقد وفقني الله تعالى، فجمعت هذا الكتاب، الذي أقدمه للقراء الكرام تحت هذا العنوان:

«مفاهيم الحرية وتطبيقاتها

في

الدين - النفس - المال».

وقد جعلته على مقدمة ومدخل عام وأربعة فصول وخاتمة. أما المقدمة ففيها دوافع الكتابة في هذا الموضوع وعنوان الكتاب وفصوله. وأما المدخل العام فيبحث في: المحدّدات اللغوية والتعريفية للحرية. وأما الفصول:

الفصل الأول: التقرير الإسلامي لحرية الإنسان.

الفصل الثاني: الحرية وحفظ الدين بين الشرع الإلهي والتشريع البشري.

الفصل الثالث: الحرية وحفظ النفس بين الشرع الإلهي والتشريع البشري.

الفصل الرابع: الحرية والمال بين الشرع الإلهي والتشريع البشري.

خاتمة: وفيها ثمرات البحث وغاياته.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي

مكة المكرمة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



مدخل عام

المحددات اللغوية والتعريفية للحرية

المحدد اللغوي: في معجم العين للخليل بن أحمد: (الحُرُّ نقيض العبد، حُرٌّ بين الحرورية، والحُرَّة والحَرار.

والحُرَّة من الناس: خيارهم، والحُرُّ من كل شيء: أعتقه. وسحابة حُرَّة: تصفها بكثرة المطر^(١).

والحُر كل شيء فاخر. والحُر الفعل الجميل الحسن. قال طرفة: لا يكن حبك داءً قاتلاً ليس ذا منك ماوى يحُرَّ أي: بحسن جميل.

ويقال للسحابة إذا كثر مطرها: سحابة حُرَّة، قال عترة: جادت عليها كل يكر حُرَّة فنركن كل قرارة كالدرهم والحُر من الناس: أشرافهم وخيارهم، وحُرَّة العرب: أشرافها، قال ذو الرمة: فصار حيًا، وطبَّق بعد خوف على حُرَّة العرب الهزالي والحررة الكريمة من النساء غير ذات رقب ولا دينية. قال الأعشى:

حُرَّة طفلة الأنامل تَرْتَبُّ سُخَامًا تَكْفُهُ بخلال^(٢)

(١) معجم العين (٣/٢٤-٢٥) باختصار.

(٢) انظر: لسان العرب (٤/١٨٢).

وفي هذا ما يدل على أن كلمة الحرية والحر. استخدم في معاني ما يقابل العبودية. والكريم من الناس والشريف. وكثرة الخير. والفعل الحسن الجميل. وكان شائعاً عند العرب استخدام الحرية والحر فيما يقابل العبودية والذل والأسر. حتى ربما اختار بعضهم أن يقتل ولا يقع أسيراً في ذلّ وعبودية لغريمه. ومن ذلك شعر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رحمته الله:

أقسمت لا أقتل إلا حُرّاً وإن رأيت الموت شيئاً نُكراً
أخاف أن أُكذّب أو أُعَرّا أو يخلط البارد سخناً ومُرّاً^(١)

وفي كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهيرة: ما يدل على استخدام كلمة حُرّ في مقابل استعباد الناس وسلبهم حقوقهم. وممارسة نوع من المِلْكِيَّة والهيمنة عليهم.

قال رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»^(٢).

حاول بعضهم^(٣) عقد مقارنة بين ثلاثة نصوص:

١- نص أمير المؤمنين عمر، هذا: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

واعتبره لم يفعل فعله في الفكر العربي الإسلامي.

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٢١٠)، ومقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (١٠٣)، وابن الأثير (١٤/ ٤).

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (٢٩٠).

(٣) هو عبد الأمير الأعسم في «إشكالية الحرية مقارنة بين فلسفة الحرية، وحرية الفلسفة في فكرنا المعاصر»، ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة. نشر مركز دراسات الوحدة العربية (ص ٣٩).



ونحن نقول له: هذه العبارة المشرقة ليست فلسفة مغرقة في التجريد الذهني والتنظير اللفظي؛ بل هي ترجمة لمنظومة كاملة من الأحكام والتشريعات الإسلامية لتحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والأحكام الوضعية إلى عدل ورحمة الإسلام.

ثم من قالها ليس فيلسوفًا، ينظر، وإنما هو رأس هرم السلطة في الدولة الإسلامية، يخبر عن حقيقة مقاصد الدين العظيمة.

٢- ونص فولتير الشهير: «لا وجود لوطن إلا بمواطنين أحرار».

ثم عظم هذه العبارة وأنها أحدثت أثرها، وفعلت فعلها في الفكر الأوروبي في عصر الأنوار وما بعده.

٣- ونص لائحة حقوق الإنسان في فرنسا ١٧٨٩م: «الناس يولدون، ويظلون أحرارًا متساوين في الحقوق».

ثم اعترف أنها تتضمن المعنى الحقيقي لمقولة أمير المؤمنين عمر السابقة. ويعبر شاعر آخر كان مملوكًا رقيقًا: أنه وإن استعبد جسده فلا سبيل لأحد على روحه ونفسه وعقله وقلبه، فنفسه حرة كريمة.

يقول شحيم عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قُمن له عند الفخار مقام الأصل والوَرقي

إن كنت عبدًا فنفسي حُرّة كرمًا أو أسود اللون إني أبيض الخلق^(١)

ويقول أيضًا:

وما ضرَّ أثوابي سوادي وإنني لكالمسك لا يسلو عن المسك ذائقه
كُسيبت قميصًا ذا سواد وتحتنه قميص من الإحسان يفض بنائقه^(١)

إشكاليات التعريف:

مفهوم الحرية حار فيه الفلاسفة والمفكرون قديمًا وحديثًا، ووضعوا له التصورات المختلفة والمتقابلة. كل على شاكلته وحسب تصوره وفكره.

• يعتبر بعض المفكرين أن مفهوم الحرية عصيٌّ على الفهم والإدراك؛ لذلك سيظل مثار جدال مستمر.

يقول الفيلسوف الألماني «كارل ياسبرز»: (الحرية الوجودية عصية عن الإدراك؛ إن الحرية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تدرك أو تفهم بعمليات فكرية موضوعية... الحرية هي موضوع سوء فهم مستمر، كما أنها لا تقدم لنا إلا إشارات غير مباشرة فقط).

ويوافقه على إشكالية التعريف كل من «لافيل» و «غبريل مارسيل»^(٢)، وغيرهم.

ويقرر كارل ياسبرز: «أن البحث عن الحرية والشك فيها والإيقان بها، كل ذلك يدخل في صميم وجود الحرية، غير أنني حينما أبحث عن الحرية فإن هذا لا يعني أن في ذهني مفهومًا أبحث عن مقابل له في العالم الخارجي؛ بل الواقع أن مشكلة الحرية أولًا وأخيرًا هي مشكلة في تلك الذات الإنسانية التي تريد أن

(١) المصدر السابق (٢٢/٢١٣).

(٢) مشكلة الحرية. لزكريا إبراهيم (٢٦).

يكون ثمة حرية فنحن هنا بإزاء ذات مهمومة بوجودها فهي تضع نفسها موضع السؤال متسائلة عن إمكانية حريتها^(١).

وبناء عليه يقرر «ياسبرز» أن الأوروبي لم يحسن الاستفادة والتوظيف للحرية التي ظفر بها بعد النضال الكبير ضد الاستعباد في القرن التاسع عشر فعادت إلى شكل من الهوى والعبودية.

يقول: «في القرن التاسع عشر انتهى الكفاح في أوروبا ضد السلطات التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى بمنح كل فرد قدرًا من الحرية ربما لم يسبق له مثيل في التاريخ، ونجم عن ذلك فيما يظهر أن كثيرين من الناس لم يدركوا ما يصنعون بالحرية التي ظفروا بها. فقد انحرفت وصارت أقرب إلى الهوى والتحكم»^(٢).

• واعتبر البعض الآخر أن الحرية تكمن في خضوع واشتراك الفرد ضمن نظام جمعي أعلى وأسمى. كما تخيل ذلك الفيلسوف اليوناني الشهير «أفلاطون». بأن تمام الحرية والإنعتاق من الشرور، إنما هو في قيام مدينة سامية فاضلة حرة سماها «المدينة الفاضلة».

وتأثر بفكرته هذه بعض الفلاسفة مثل «الفارابي» ونسج على منواله.

ومن المفكرين المحدثين، الفيلسوف «ترايتشكه» H.Treitsckke.

فراوده حلم وجود دولة هي واحة للحرية الفردية مصدرها كما يقول «حرية الإنسان في دولة حرة»^(٣).

(١) مشكلة الحرية. زكريا إبراهيم (٢٧).

(٢) مدخل إلى الفلسفة (٢٩١-٢٩٢).

(٣) مفهوم الحرية لفرانز روز نتال (٢١).

• بينما يرى فريق ثالث: أن الحرية هي تحقيق هدف ما من خلال وسائل ثقافية ضمن مجتمع إنساني منظم مزود بدوافع ثقافية، وقانون، ونظام اقتصادي، ومؤسسة سياسية يسمونها «المنظومة الثقافية»^(١).

• كما أن أصحاب الديانات يضع كل منهم تصوره الخاص للحرية.

• ففي الديانات الإغريقية نجد: أن الحرية تكمن في اتفاق الإنسان مع الآلهة. ولكنها الآلهة التي صنعها الإنسان بنفسه، ومنحها من عنده وصف الألوهية.

• نجد في اليهودية، وهم أكثر الشعوب شعورًا بالفوقية وتعنصرًا وترفعًا على الآخرين، نجدهم يحددون مفهوم الحرية: في الاستجابة التامة للشرعية التلمودية.

يحاول الحاخام اليهودي «أحابار يعقوب البابلي» أن يتلمس في التلمود كلمة تؤدي مفهوم الحرية فيزعم أن كلمة: «Harut» «رقيم» الواردة في التلمود البابلي تعني تمامًا كلمة «Harut»، «حرية».

ويبني على هذا: أن الحرية هي الخضوع للشرعية والتعاليم التلمودية^(٢).

يقول «المدراش» اليهودي: «إن الإنسان الحر الوحيد في العالم هو الذي يطبق أحكام ألواح الشريعة»^(٣).

• بينما يرى أصحاب الفلسفات التشاؤمية المغرقة في السديمية، : أن الحياة

(١) مفهوم الحرية. روزنتال (٢١).

(٢) التلمود البابلي. الطبعة الأوروبية (٥٤).

(٣) Madras Rahh a TExodus (32).

كلها أسر وعبودية لا يتحرر منها الإنسان إلا بالموت، فلا معنى للحياة، كما أنه لا معنى للموت أيضًا إلا بقدر ما يخلص الإنسان ويحرره من الحياة.

وهي فكرة روج لها الفلاسفة الغنوصيون: بأن الجسد الإنساني سجن للنفس وأن العالم سجن للإنسان، وأن الموت يعني التحرر من ذلك السجن.

وقد تسللت هذه الفكرة إلى بعض فلسفة ابن سينا في موقفه الفلسفي من الروح وأنها قدمت من عالم الميتافيزيقيا الرحب الواسع إلى أن سجنّت في هذا الجسد الضيق، ولا تتحرر إلا بالانعتاق منه والعودة إلى عالمها الرحب السابق الذي جاءت منه.

ثم جادل في حكمة الآله في إنزالها من عالمها الواسع إلى حبسها في الجسد الضيق وأن الحكمة من ذلك مفقودة والخرق لم يرقع. تجلّى ذلك واضحًا في القصيدة العينية في شأن الروح لابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تمعزز وتمنع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
فلأي شيء أهبطت من شاهق	عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة	خفيت على فهم اللبيب الأورع
فهبوطها إن كان ضربة لازب	لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية	في العالمين فخرقها لم يرقع
فكأنما برق تألق بالحمى	ثم انطوى فكأنه لم يلمع ^(١)

(١) كتاب جلاء العينين. لخير الدين الألوسي (١٧٢-١٧٣)، وانظر فيه القصيدة بطولها والرد عليه بقصيدة للشيخ رفيع الدين الدهلوي.

وينى ابن سينا على نظريته هذه مذهبه الشهير في شأن الروح وحقيقة المعاد، منكرًا المعاد الجسماني، لأن الأجساد تفتى.

يعرّف ابن سينا المعاد بأنه: «عُود النفوس البشرية إلى عالمها»^(١).

وأن الموت عنده هو: قصور الطبيعة البدنية عن إلزام المادة صورتها وحفظها بإدخال بدلٍ ما يتحلل، فالموت هو نظام متوجه إلى غاية هي فعل الطبيعة^(٢).

وأن انطلاق الإنسان وسعادته يضاده ويعوقه وجود نفسه أسيرة في بدنه، وأن التحرر والسعادة في تخلص النفس عن البدن وآثار الطبيعة، وتجرده عن كامل اللذات، ناظرًا نظرًا عقليًا إلى ذات من له الملك الأعظم إلى الروحانيين الذين يعبدونه، وإلى العالم الأعلى، وإلى وصول كماله إليه^(٣).

ومن أعلام هذه الفكرة الفيلسوف اليوناني «فيثاغورس» (٥٠٠ ق.م)، فتتخذ فلسفته منحًا سديميًا مغرقًا في التجرد إلى فصل إرادي بين الروح والجسد الذي هو سجن لها.

رأى فيثاغورس رجلًا بدينا فقال له: «لماذا أنت منشغل إلى هذا الحد برفع جدران سجنك»^(٤).

يعلق «فرانز روزنتال» على هذه الفكرة ومدى ارتباطها بمفهوم الحرية فيقول: «ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنه على الرغم من اعتبار الحياة سجنًا،

(١) الأضحوية في المعاد (٦٠).

(٢) الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا. محمد عاطف العراقي (١٨٢).

(٣) الأضحوية في المعاد (٨٠).

(٤) انظر: موسوعة أعلام الفلسفة. إعداد روني إيلي ألف (١٩٥/٢).

والموت تحرراً؛ فإن الحرية من هذا النوع لم تقد إلى أي شيء يرتبط عادة بمصطلح الحرية، وأبعاده أو مضامينه الدنيوية وكان من المتوقع أن يصبح السبق الميتافيزيقي للحرية قضية تعنى بها النظرية الصوفية^(١).

• لقد تبنى كثير من المتصوفة هذه الفكرة بأبعاد مختلفة من خلال محورين اثنين:

الأول: الاتجاه بالزهد والتقشف من وضعه الشرعي الطبيعي في البعد عن المحرمات الشرعية والتخفف من زينة الحياة باعتبارها مرحلة قصيرة ودار ممر إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار. اتجهوا بالزهد إلى زهد فلسفي رهباني. يهمل كل شيء. ويحمل النفس ما لا قبل لها به. وإلى عزلة عن هداية الخلق وعمارة الأرض. وصناعة الحياة على وفق منهج الله، مما أقام عدائية صارخة لكل ما هو دنيوي لدى من اتجه بالتصوف هذا الاتجاه. فصار تمام الحرية في تمام هذا البعد الكامل والرهبانية التامة.

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيري: «(الحرية) ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتساوى عنده أخطار الأعراض»^(٢).

وقال: «سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمته الله يقول: من دخل الدنيا وهو عنها حُرّ، إرتحل إلى الآخرة وهو عنها حر»^(٣).

(١) مفهوم الحرية (١٦١-١٦٢).

(٢) الرسالة في حال أهل الطريقة، فصل الحرية (٣٧١/٢).

(٣) المصدر السابق (٣٧١/٢)، وأبو علي الدقاق هو الحسن بن علي، توفي سنة (٤٠٦هـ). تاريخ بغداد (٢٤٥/٧).

وفي «اللمع» لأبي نصر السراج^(١): (الحرية): «إشارة إلى نهاية التحقيق بالعبودية لله تعالى وهو أن لا يملكك شيء من المكونات وغيرها، فتكون حُرًّا إذا كنت لله تعالى، خلقك حُرًّا فكن كما خلقك، لا تراني أهلك في الحضر، ولا رفقتك في السفر، اعمل لله ودع الناس عنك».

قال الجنيد: آخر مقام العارف: الحرية.

وقال بعضهم: لا يكون العبد عبدًا حقًا ويكون لما سوى الله مسترقًا^(٢).

ونقل القشيري عن أبي بكر محمد بن عبد الله الزقاق^(٣) قوله: «من كان في الدنيا حُرًّا منها كان في الآخرة حُرًّا منها»^(٤).

ولذلك صار مقام الحرية عند القوم جدّ عزيز ونادر. فلا تكاد ترى حُرًّا ما دام الأمر هكذا.

قال القشيري: «ومقام الحرية عزيز: سمعت الشيخ أبا علي رحمه الله تعالى يقول: كان أبو العباس السيارى^(٥) يقول: لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلناي طلعة حُرٍّ^(٦)

وقال القشيري: «أنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمن قال: أنشدنا أبو بكر الرازي

(١) هو عبد الله بن علي بن محمد الطوسي، الملقب بطاووس الفقراء، توفي سنة (٣٧٨).

(٢) اللمع في التصوف (٣٦٤).

(٣) توفي سنة (٢٩٠هـ)، تاريخ بغداد (٥/٤٤٢).

(٤) الرسالة (٢/٣٧١).

(٥) اسمه القاسم بن القاسم، توفي سنة (٣٤٢هـ)، له ترجمة في طبقات الصوفية للسلمي (٤٤٠).

(٦) الرسالة (٢/٣٧٢).

قال: أنشدني منصور الفقيه^(١) لنفسه:

ما بقي في الإنسان حُرٌّ لا ولا في الجن حُرٌّ
قد مضى حُرُّ الفريقين فحلوا العيش مُرٌّ^(٢)

ولذلك صار تحقيق هذه الحرية في نظرهم: هو التجرد من كل ما هو دنيوي، واختصار الوجود في الصمت التام، وعدم ممارسة أي نشاط مرتبط بالحياة، والانزواء، وخدمة الفقراء.

قال الأستاذ القشيري: «واعلم أن معظم الحرية في خدمة الفقراء».

ونقل عن يحيى بن معاذ قوله: «أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار».

ونقل عن إبراهيم بن أدهم قوله: «إن الحر الكريم يَخْرُجُ من الدنيا قبل أن يُخْرَجَ منها».

ونقل عنه قوله أيضًا: «لا تصحب إلا حُرًّا كريمًا يسمع ولا يتكلم»^(٣).

وهذا يشبه إلى حد بعيد رهبانية النصارى. التي قال الله فيها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد قال النبي ﷺ وهو سيد العباد والزهاد: «إني لم أؤمر بالرهبانية»^(٤).

(١) اسمه منصور بن إبراهيم المصري، توفي سنة (٣٠٦هـ)، له ترجمة في طبقات السبكي (٣١٧/٢).

(٢) الرسالة (٣٧٣/٢).

(٣) الرسالة (٣٧٣/٢).

(٤) أخرجه الدارمي (١٣٣/٢).

وفي لفظ آخر: «إن الرهبانية لم تكتب علينا»^(١).

المحور الثاني: الإيغال في التجرد والسعي إلى المطلق في خلط بين الفلسفة السديمية والتصوف. للخلاص والتحرر من سجن الحياة بالفناء عن شهود السوى والرسوم والاتحاد بالذات الإلهية.

وهذا ظاهر في فلسفة الحسين بن منصور الحلاج.

يقول أحد الدارسين بعمق لفلسفة الحلاج وهو «روجيه أرنا لديز»: «جرت مناقشات مطولة لمعرفة إذا كان يجب أن تكون الحياة تأملًا في الحياة أو تأملات في الموت، إنها مسألة فلسفية طرحها «سينوزا» بشكل صحيح؛ ولكن مثل هذا الخيار غير مطروح بالنسبة للحلاج؛ لأنه لا يفرق بين الحياة والموت»^(٢).

ثم يلمس «روجيه أرنا لديز» بُعد فلسفة الحلاج الاتحادية: بما أن الله تعالى خالق الموت والحياة فالإحياء والإماتة صفتان لله تعالى. فالاتحاد بالله عند الحلاج يجعل الموت والحياة يستويان.

يقول «روجيه أرنا لديز»: «هذه التجربة الصوفية العميقة إنما تنبثق عن التأمل في صفتين إلهيتين كشفهما القرآن: فالله هو الذي يحيي وهو الذي يميت، وهو الذي يبعث الأموات أيضًا، هو أخيرًا خالق الموت والحياة. إذن بما أن الأمر يتعلق بمخلوقين ينبعان من صفتين من صفات الله، تضمن الوحدة الإلهية التي يتأمل بها المتصوف: الوحدة الأساسية للحياة والموت»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦/٦).

(٢) كتاب: الحلاج، السعي إلى المطلق (١٨-١٩).

(٣) المصدر السابق (١٩).

يتجلى ذلك في أبياته هذه:

اقتلونني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
إن عندي محو ذاتي من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات
سئمت نفسي حياتي في الرسوم الباليات^(١)

وفي كتاب: اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني:
(الحرية هي الإنطلاق من رق الأغيار، وهي على مراتب:

- حرية العامة: عن رق الشهوات.
- حرية الخاصة: عن رق المرادات لفناء إراداتهم في إرادة الحق.
- حرية خاصة الخاصة: عن رق الرسوم، والآثار، لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار^(٢).

فالكاشاني يعطي الحرية بعدًا فلسفيًا فنائيًا بزوال الرسوم، والفناء في عين الذات الإلهية كما عرّف هو نفسه الفناء بقوله: (الفناء: بزوال الرسوم جميعًا بالكلية في عين الذات الأحدية مع ارتفاع الإثنية وهو مقام المحبوبة)^(٣).

وهو قريب من تعريف ابن عربي الطائفي للحرية بهذا الفناء الاتحادي الذي يجعل هذه الأعيان السارية في الوجود هي عين الذات الإلهية الأحدية.

(١) ديوان الحلاج، قصائد (١٠).

(٢) اصطلاحات الصوفية (٣٧).

(٣) المصدر السابق (٣٤٥).

يقول ابن عربي: (الحرية: من ظلمات أهل الغيب، المكتنفين خلف الحجب الظلمانية لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، أي هلاكًا في الحق، فلا يعرفون نفوسهم لشهودهم وجه الحق دونهم)^(١).

• ويتجه فريق من المفكرين والفلاسفة إلى ربط الحرية بالجانب الأخلاقي في الإنسان نفسه غير مرتبطة بالظروف السياسية والاجتماعية.

ومن رواد هذا الاتجاه «المبشر بن فاتك»، و«أبو الحسن العامري» الذي يعد من رواد الفلسفة في القرن العاشر.

يقول «المبشر بن فاتك»: «الحرية هي تقدم الإنسان للخير وانهماكه فيه، وبقدر خدمته له تكون حريته؛ لأن من لم يتمسك بالخير فليس بحُرٍّ»^(٢).

ويضيف: «الحُرّ هو الذي لا يضيع حرفًا من حروف النفس لشهوة من شهوات الطبيعة».

«والذي لا يضبط نفسه لا يعد حُرًّا»^(٣).

ويوافقه رشيد الدين ابن خليفة فيقول: «الحرية هي الحياة الخيرة»^(٤).

وفي كلام «ابن مسكويه» ما يوافق هذا.

يقول في تحديد الإنسان الحر الواصل للسعادة الحقيقية: (فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة، وتجرد بنفسه اللطيفة التي عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية، فقد فاز، وأعد

(١) فصوص الحكم (٧١) وتفسير ابن عربي (٢/٦٤٤).

(٢) كتاب محاسن الكلم (١١٣).

(٣) المصدر السابق (٦٧).

(٤) طبقات الأطباء؛ لابن أبي أصيبعة (٢/٢٥٤).

ذاته للقاء خالقه ﷻ إعدادًا روحانيًا: ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته، ولا تشوق إليها لأنه قد تطهر منها، وتنزه عنها، ولم يبق فيه إرادة لها، ولا حرص عليها، وقد استخلصها للقاء رب العالمين، ولقبول كراماته، وفيض نوره الذي كان غير مستعد له، ولا فيه قبول من عطائه^(١).

• وإذا انتقلنا إلى الذين عُتُوا بالمحددات والتعريفات للعلوم والمصطلحات والفنون:

فنجد اهتمامًا رائعًا من علماء المسلمين في وضع محددات واضحة لمصطلح «الحرية».

• يعرف الراغب الأصفهاني تَكَلُّفُ الحرية: «الحر خلاف العبد... والحرية ضربان»:

الأول: من لم يجر عليه حكم الشيء نحو «الحر بالحر».

والثاني: من لم تملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية وإلى العبودية، التي تضاد ذلك، أشار النبي ﷺ بقوله: «تعس عبد الدينار».

وقول الشاعر: ورقُّ الأطماع رقٌّ مخلد

وقيل عبد الشهوة أذل من عبد الرق.

والتحريم: جعل الإنسان حُرًّا.

.... وحررت القوم: «أطلقتهم وأعتقتهم من أسر الحبس»^(٢).

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعلاق (١٠٢).

(٢) المفردات (١٠٩/١).

يرى «روز نتال»: أن الراغب قدّم تعريفًا للحرية يقيم تمايزًا بين بعدها الشرعي، وبعدها الأخلاقي^(١).

• ويقدم الشريف علي بن محمد الجرجاني التعريف التالي للحرية: «الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة: الخروج عن رِقِّ الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار. وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحائها في تجلي نور الأنوار»^(٢).

واضح أن الجرجاني وهو المتكلم، صاحب المنطقية العقلية، لم يأت بجديد؛ بل نقل تعريف الصوفية نصًا. فتعريف الجرجاني هو بعينه التعريف الذي نقله كمال الدين الكاشاني في اصطلاحات الصوفية كما مر ذكره.

• أما التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون فيعرف الحرية: «الحر... لغة الخلو، وشرعًا خلوص حكمي يظهر في الآدمي لانقطاع حق الغير عنه». هذا تعريف فقهي استقاه التهانوي من مصدر فقهي حنفي سابق عليه وهو كما ذكر كتاب: «جامع الرموز» لشمس الدين القوهستاني، وهو حاشية فقهية على مذهب الحنفية على كتاب الهداية لبرهان الدين المرغيناني.

ثم يقول التهانوي أيضًا: «ومن مجمع السلوك» والحرية عند السالكين: انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى بالكلية... والحرية نهاية العبودية، فهي هداية العبد عند ابتداء خلقته»^(٣).

(١) مفهوم الحرية في الإسلام (٤٩).

(٢) كتاب التعريفات (٩٠-٩١).

(٣) كشف اصطلاحات الفنون (٢٩١) لمحمد بن علي التهانوي الحنفي.

وهذا نقله التهانوي من مرجع صوفي سابق عليه، وهو كما ذكر كتاب «مجمع السلوك في بيان الطريق» لصدر الدين الخيرآبادي، المتوفى سنة (٨٨٢هـ) له ترجمة في هدية العارفين^(١).

• أما الرازي محمد بن عمر فيتجه بتعريف الحرية إلى الاتجاه الفلسفي. يقول الرازي: «النفس إما ألا تكون تائقة بغريزتها إلى الأمور البدنية، وإما أن تكون تائقة، فالتى تكون تائقة هي الحرة، وإنما سمينا هذه الحالة بالحرية؛ لأن الحرية في اللغة تقال على ما يقابل العبودية، ومعلوم أن الشهوات شيء مستعبد، وأما التائق إلى الأمور البدنية فإنه سواء ومعلوم إن لم يتركها؛ فإنه لا يكون حرًا؛ بل التائق التارك أسوأ حالًا من التائق الواجد في الحال، من حيث أن التوقان مع الحرمان قد يشغل النفس عن اكتساب الفضائل، وإن كان أحسن منه حالًا في المآل، لأن عدم وجدانه لها في الحال، واشتغاله بغيرها؛ ربما يزيل عنها ذلك التوقان في ثاني الحال. فظهر مما قلناه: أن الحرية عقّة غريزية للنفس لا التي تكون بالتعويد والتعليم، وإن كانت تلك أيضًا فاضلة، وهي معنى قول أرسطو: «الحرية ملكة نفسانية حارسة للنفس حراسة جوهرية لا صناعية».

وبالجملة: فكل ما كانت النفس علاقتها البدنية أضعف، وعلاقتها العقلية أقوى، كانت أكثر حرية، ومن كان بالعكس كان بالعكس، وإلى هذا أشار أفلاطون بقوله: «الأنفس المرذولة في أفق الطبيعة وظلها، والأنفس الفاضلة في أفق العقل وضوئه»^(٢).

(١) (٤٣٤/٢).

(٢) المباحث المشرقية (٢/٤١٣-٤١٤).

يستجّل «روزنتال» هذه الشهادة: «إن مسلمي القرون الوسطى كانوا على وعي بتحديدات الحرية، ويظهر ذلك هنا وهناك، كما في النسيج الاجتماعي، ومهمتنا هنا أن نجمع الإشارات الإسلامية لفكرة الحرية ونقيمها، وسيزودنا ذلك بالوسائل والأدوات التي تمكّننا من تقييم دور الحرية حضورًا أو غيابًا دونما وقوع في تعميمات ذاتية»^(١).

ويقول: «من الواضح أن المسلمين، كانوا يشعرون بانزعاج كبير عندما يحرمون من حريتهم الفردية لقد كان هناك أناس كثيرون شديداً الفخر بأنفسهم لا لشيء إلا لأنهم ليسوا عبيدًا لأحد.

ولقد سأل ابن حزم أحد هؤلاء مرة عن علة كبرائه المفرطة؟ فأجابه: أنا حرّ ولست رقيقًا لأحد».

فأشار ابن حزم إلى أن معظم الناس من حولهما أحرار، ولا توجد إلا قلة من العبيد كانت أكثر قوة من الأحرار في الواقع^(٢).

ولا شك أن ابن حزم كان محققًا في مثل هذه الحالة؛ ولكن هذا الموقف من جانب هذا الرجل يظهر لنا التأثير العاطفي المشبوب الذي لعبه مفهوم «الحرية»، ومفهوم الاستغناء والاستقلال في أوساط المسلمين آنذاك^(٣).



(١) مفهوم الحرية في الإسلام (٢٤).

(٢) انظر: رسالة: مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم (١٥٩).

(٣) مفهوم الحرية (١٧٧-١٧٨).

الفصل الأول

التقرير الإسلامي لحرية الإنسان

الفصل الأول

التقرير الإسلامي لحرية الإنسان

[١] الإنسان من حيث هو إنسان هو في الحقيقة عبد ضعيف، فقير، والفقير وصف دائم له. لازم له. لا ينفك عنه أبداً.

فالإنسان فقير محتاج باستمرار. محتاج إلى طعام يأكله، وماء يشربه، وهواء يتنفسه. ولباس يلبسه. ودواء يتداوى به. وبيت يسكنه. ودابة ووسيلة تُبلّغه. وما يقيه الحر. عند اشتداد الحر. وما يقيه البرد عند اشتداد البرد. ونحو ذلك. والقرآن يقرر ذلك ويبين أن الوصف المنطبق على الإنسان انطباق الحد على المحدود. هو وصف الفقر والحاجة. المستمرة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى عن نبيه وكليمه موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَبِيرٍ فَتَنِي﴾ [القصص: ٢٤].

فالناس جميعاً بل الخلق كلهم هم من هذه الناحية موصوفون بوصف «العبودية»، فهم عبيد مربوبون مقهورون لا يخرجون عن الناموس الكوني القدري الذي جعله لهم خالقهم وبارئهم العظيم.

وهذه هي العبودية العامة القهرية الشاملة، وتحرير ذلك: أن العبد يُراد به

المعبَّد، الذي عبَّده الله. فذلله ودبَّره وصرَّفه.

وبهذا الاعتبار: فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، المؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار. إذ هو ربهم كلهم ومليكمهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، فما شاء كان، وإن لم يشاؤوا، وما شاؤوا إن لم يشأ لم يكن.

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِئْتِيهِ يُرْجَمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، وآمنوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له، مستكبراً على ربه، لا يقرُّ ولا يخضع طوعاً له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كان مع الاستكبار عن قبوله والجدد له، كان عذاباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ إِلَٰهِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١) [الأنعام: ٣٣].

(١) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٧-٤٨) المكتب الإسلامي.

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمته الله: «أفغير دين الله يغيون. يقول: أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون. وله أسلم من في السموات والأرض. يقول: وله خشع من في السموات والأرض فخضع له بالعبودية. وأقر له بإقرار الربوبية»^(١).
وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣-٩٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْنَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

«فذكر إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً، لأن المخلوقات جميعها مُتَعَبِّدَةٌ له التعبد العام، سواء أقر المقرُّ بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبرون، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه قُدْرَةٌ وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم. وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفلطور، فقير محتاج معبد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له، وهو مفتقر إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل خير ولا دفع ضرر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه. وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه. وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه»^(٢).

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٣٤).

(٢) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١٧-١١٨) المكتب الإسلامي.

[٢] ولأن العباد والخلق جميعاً فقراء إلى الله. فالله هو رازقهم ومعافهم كما كان هو خالقهم وبارئهم.

تكفل بأرزاقهم ومعاشهم. وأودع الأرض أقواتها سواء للساثلين الطالين. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ مِّنْ كَفَّارٍ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَرَكًا فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْفُرْقَانُ﴾ [سورة ق: ٩-١١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَالْأَنفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا يَشِيقُ الْأَفْسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْحَمِيرَ لِرَكُوبِهِمْ وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ

وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّا فِي ذَلِكَ آيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾
وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾
وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرْكَبُ الْفُلَافِلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَنَبِّئَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَنَ
فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَن تَبِيدَ بِكُمْ وَاتُّخِذُوا كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنِي
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿النحل: ٥-١٨﴾.

وقال تعالى: ﴿٦﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدِعَهَا
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿هود: ٦﴾.

[٣] فإذا عرفنا هذا، فإن الإنسان إذن على مفترق طريقين لا ثالث لهما:

- فإما أن يختار العبودية لله رب العالمين، الذي خلقه بعد العدم من طين،
وركب فيه الحواس، وشق سمعه وبصره، وجعله عاقلاً مدركاً، وقدر له
الأقدار، وجعل مصيره في يديه، والعاقبة بعد حين إليه.

- وإما أن يرفض الإنسان العبودية لله رب العالمين، فهنا يتردى ويرتكس
ويقع لا محالة في عبوديات مهينة ذليلة لغير الله مولاه وخالقه تستعبده حاجاته
ومطامعه، وأهواؤه وشهواته ونزواته، فتستعبده شياطين الإنس والجن،
وطواغيت المعبودات من دون الله تعالى.

تصل هذه النفوس في ارتكاسها ومهانتها إلى حد أن يعبد الإنسان العاقل
حجراً أو شجراً أو بشراً، أو بقراً، فهل بعد هذا الارتكاس والانتكاس من ذل
ومهانة؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولفظ العبد مضافاً إلى الله كعبده وعبادي في القرآن: يتناول من عبد الله، فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَكَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، وقوله: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ﴾ [سورة ص: ١٧]، ﴿يَعْمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٣٠]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا يُؤَبِّ﴾ [سورة ص: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [سورة ص: ٤٥]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ونحو هذا كثير.

وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْنَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، قد يقال في هذا: إن المراد به الملائكة، والأنبياء، إذ كان قد نهى عن اتخاذهم أولياء، فغيرهم بطريق الأولى، فقد قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال: «فيوحى الله إلى المسيح إن لي عبداً لا يدان لأحد بقتالهم»^(١)، وهذا كقوله: ﴿بَشِّرْنَا عَلَيْهِمُ عَبْدًا لَتَّ﴾ [الإسراء: ٥]، فهؤلاء لم يكونوا مطيعين له، لكنهم معبدون، مذللون مقهورون، يجري عليهم قدره، وقد يكون كونهم عبيداً: هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً.

كقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقوله: ﴿إِلَّا آتَى الرحمن عبداً﴾ [مريم: ٩٣]، أي ذليلاً خاضعاً.

ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا، ثم قال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤-٩٥]، فذكر بعدها أنه يأتي متفرداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] الآية، وقال: ﴿بَلْ لَّكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّكُمْ قِنْدُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا لا يقال طوعاً وكرهاً؛ فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً، فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له ساجد أو قانت؛ بل ولا مسلم؛ بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم وهم خاضعون مستسلمون، قانتون مضطرون من وجوه.

منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.

ومنها: دعاؤهم إياه عند الاضطرار.

ومنها: خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيتته.

ومنها: انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء، فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده؛ بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه، وهو مما أمر الله به، وعصيانهم له في بعض ما أمر به - وإذا كان هو التوحيد - لا يمنع كونهم قانتين خاضعين، مستسلمين كرهاً، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم، فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسله، وإن كانوا يعصونه في أمور. والمؤمن يخضع لأمر الله طوعاً، وكذلك لما يقدره من المصائب؛ فإنه يفعل

عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً، فهو مسلم لله طوعاً خاضع له طوعاً، والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحسبه، سجدوا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب.

وأما فقر المخلوقات إلى الله: بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها، وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه الملك والحمد. وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها: دليل افتقارها؛ فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق.

والصواب: أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه؛ بل فقراً لازم لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غني، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها، وهي معدومة وهي موجودة فإذا كانت معدومة فقليل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر إلى الخالق كان معناه: أنه لا يوجد إلا بالخالق هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل، وما أثبتته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها: أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف.

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها، وخضوعها، وخلقتها، وجريان المشيئة عليها: هو تسبيحها وقنوتها وإن كان ذلك بلسان الحال، ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله، وقل للأرض من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج

نباتها وثمارها؛ فإن لم تجبك حوارًا، وإلا أجابتك اعتبارًا، وهذا يقوله الغزالي وغيره، وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله: ﴿كُلُّ لَهْ قَتْنُونٍ﴾، قال: كل مخلوق قانت له باشر صنعه فيه وجرى أحكامه عليه، فذلك دليل على ذله لربه، وهو الذي ذكره الزجاج في قوله: ﴿وَلَهُ أَسْتَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلهم، لا يقدر أحد يمتنع من جبله الله عليها، وهذا المعنى صحيح؛ لكن الصواب الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف أن القنوت والاستسلام والتسبيح أمر زائد على ذلك، وهذا كقول بعضهم: أن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده الله منه من عافية وحرص وغنى وفقر، وكما قال بعضهم في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، قال: تسبيحه دلالة على صانعه فتوجب بذلك تسبيحًا من غيره، والصواب أن لها تسبيحًا وسجودًا بحسبها.

والمقصود: أن فقر المخلوقات إلى الخالق ودلالته عليه وشهادتها له: أمر فطري فطر الله عليه عباده، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات، كما قد بسط الكلام على هذا في مواضع، ويُنَبِّهُ الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولي، والتمثيلي؛ فإن القياس البرهاني العقلي سواء صيغ بلفظ الشمول، كالأشكال المنطقية، أو صيغ بلفظ التمثيل، ويُنَبِّهُ أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين في غير هذا الموضع.

والتحقيق: أن العلم بأن المُخَدَّث لا بد له من مُخَدِّث هو علم فطري، ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضية الكلية؛ فإن الكليات إنما تصير كليات في العقل بعد استقرار جزئياتها في الوجود، وكذلك عامة

القضايا الكلية؛ التي يجعلها كثير من النظائر المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم، كقولهم: الكل أعظم من الجزء، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك؛ فإنه أي كلي تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئه، وإن لم تخطر له القضية الكلية كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض وأن الدرهم أكثر من بعضه، وأن المدينة أكثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك النقيضان وهما: الوجود والعدم؛ فإن العبد إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه: علم أن ذلك الشيء لا يكون موجودًا معدومًا في حالة واحدة وأنه لا يخلو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئيات المعينة، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك^(١).

[٤] وبهذا يظهر معنى الحرية الحقيقية، والانعقاد البشري من كل ذل والتحرر الإنساني من كل رجس وارتكاس.

إنه في تمام التبعّد والعبودية لله وحده لا شريك له، فكلما كان الإنسان أكثر تبعّدًا لله وعبودية له وحده لا شريك له كلما حقق لنفسه أقصى درجات التحرر. وأسمى منازل الحرية. بانعقاد قلبه وروحه من التذلل لمخاليق مثله، يستذلونه ويصيرونه عبدًا ذليلًا.

«فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب. كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»^(٢).

وهذا الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/٤٣-٤٨).

(٢) رسالة العبودية؛ لشيخ الإسلام (٩٧).

(٣) برقم (٦٤٤٦).

وعند ابن حبان من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم، قال: وترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»^(١).

«وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، يتنزل على غنى النفس؛ فإن الآية مكية ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خبير وغيرها من قلة المال»^(٢).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رحمته الله: «ومعنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت فجعل لها من الخطوة، والنزاهة، والتشريف، والمدح أكثر ممن كان غنياً بماله فقيراً بحرصه، وشرهه؛ فإن ذلك يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال لبخله ودناءة همته، فيكثر ذامه من الناس، ويصغر قدره فيهم فيكون أحقر من كل حقير، وأرذل من كل صغير»^(٣).

«وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، بقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحرите مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب

(١) صحيح ابن حبان (٢/ ٦٨٥).

(٢) فتح الباري؛ لابن حجر (٥٥/ ٢٤).

(٣) المفهم (٣/ ٩٥).

عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عن شئت تكن نظيره، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ، واحتج إلى من شئت تكن أسيرَهُ: فكَذَلِكَ طَمَعَ الْعَبْدُ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له، يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه ومملكه، وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]^(١).

«إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق؛ بل من أضلهم»^(٢).

وقد حرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله هذا المقام الشريف تحريراً بالغاً فقال:
«القلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:

• من جهة العبادة، وهي العلة الغائية.

• ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة.

وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله تعالى، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد للعبد من أمرين:

(١) رسالة العبودية؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٤-٩٥).

(٢) رسالة العبودية (٨٠).

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي يتتبع ويلتذ به .
 والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان: الفاعل، والغاية، فههنا أربعة أشياء:
 أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.
 والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.
 والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.
 والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.
 فهذه أربعة أمور ضرورية للعبد؛ بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

ويتبين ذلك بوجوه:

● الوجه الأول:

أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون المقصود، المدعو، المطلوب، وهو المعين على قصده، وذكره وشكره، وهو الدافع لما يضاد ذلك، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ إني لأحبك: فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥-٢٤/٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٥٣/٣).

• الوجه الثاني:

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، بذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه، وتألهم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال؛ بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكاً. ويحشره ربه يوم القيامة أعمى.

• الوجه الثالث:

أن المخلوق ليس عنده للمخلوق مثله نفع ولا ضرر. ولا إعطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال؛ ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل؛ بل ذلك كله لربه الذي خلقه ورزقه. وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعائه ومسألته دون ما سواه، والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم. ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

• الوجه الرابع:

أن تعلق العبد بما سوى الله مضره عليه؛ فإن من أحب شيئاً غير الله فلا بد أن يضره محبوه، ويكون ذلك سبباً لعذابه، فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد؛ فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، كخوف الفراق وتوقع التغير، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وفي أخبار العشاق من ذلك عبرة.

قال أحدهم:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها عسى الله يأتي بعدها بوصال
وأكره أيام الوصال لأنني أرى كل وصلٍ معقَّباً بزوالٍ
والآخر يقول:

فما في الناس أشقى من محبٍ وإن وجد الهوا حلو المذاق
تراه باكباً في كل حين مخافة فرقةٍ أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فصارت المخلوقات وبالأعلى عليه إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال
العبد، وتمام حرّيته.

● الوجه الخامس:

أن العبد إذا اعتمد وتوكل على مخلوقٍ مثله فإن ذلك يوجب له الضرر من
عين المخلوق الذي رجا منه الخير والنصر واعتمد وتوكل عليه. وهذا معلوم
أيضاً بالاعتبار من أحوال الخلق. وما علّق عبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب
من تلك الجهة. ولا استنصر بغير الله إلا خذل.

وقد حكم الله رب العالمين بذلك فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِمِبَادِرِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

ذكروا في ترجمة الشاعر المشهور المتنبي أنه لازم طويلاً أمير حلب: سيف
الدولة ابن حمدان، وبالع في مدحه واستجدائه وسؤاله والتملق إليه. فكانت
عاقبته أن غضب عليه ممدوحه ومطلوبه فأهانته وأذله وطرده وأبعده. فندم المتنبي
بعدما فات الأمر، وأتاه من ذات مطلوبه الضرر فقال في ذلك بيتين من الشعر
فيهما عبرة، وفيما نحن في تقريره حجة، وهما قوله:

أُبعين مفتقر إليك نظرتني فاهنتني وقذفتني من شاهق
لست الملوّم أنا الملوّم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق^(١)
● الوجه السادس:

أن الله تعالى هو الغني الحميد. العظيم الكريم. يحسن إلى عباده مع غناه عنهم، ويدعوهم إلى عبادته ليكرمهم ويرفعهم وينعم عليهم لا حاجة إليهم. في الحديث القدسي الجليل: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(٢).

أما العباد فلا يتصور أن يعمل بعضهم لبعض شيئاً إلا لحفظ أنفسهم؛ فمن أحب إنساناً لشجاعته أو رياسته، أو جماله أو كرمه أو قرابته. فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة، واعتبر بأحوال أجناد الملوك وخذامهم، وأجراء الصُّنَّاع وأعوان الرؤساء؛ فإنهم جميعاً يسعون في نيل أغراضهم وشهواتهم منهم وبهم؛ فإن علاقاتهم ومحابهم تنقطع بمجرد ما تنقطع مصالحهم وتنقضي شهواتهم؛ بل ربما وهذا كثير عاد بعضهم لبعض ذاماً. وصار بعضهم لبعض عدواً.

قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

[الزخرف ٦٧].

(١) انظر: وفيات الأعيان؛ لابن خلكان (١/١٢١).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٥٧٧).

ولذلك يصير في بعضهم عبودية وذلاً لبعض بقدر حاجتهم إليهم، حتى الذين هم في بادئ الرأي وظاهر النظر، رؤوساء الناس وملوكهم ومقدموهم. فيهم من الذل والحاجة والعبودية لأتباعهم بقدر حاجتهم إليهم لقيام ملكهم. ورئاساتهم. والحفاظ على مصالحهم.

«فكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه خضع قلبه لهم. وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك. وإن كان في الظاهر أميراً لهم مديراً لأموارهم متصرفاً فيهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر. فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم. فيبذل لهم الأموال والولايات، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم»^(١).

واعتبر بحال فرعون. ففي الصورة الظاهرة هو ملك على قومه وهم له خاضعون مطيعون؛ بل جعل من نفسه إلهاً لهم. ورباً أعلى عليهم. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [التازعات: ٢٤]، فصار في جنوده، وقومه من الذل له والخضوع له والعبودية له بقدر ما قبلوا من استخفافه بهم وإذلالهم لهم، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيزِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وصار فيه هو نفسه من الذل لهم والحاجة إليهم. وذلك لما جاءه موسى ﷺ بتلك الآيات والبيانات والمعجزات القاهرات، ما تزعزع به ملك وصوله فرعون واحتاج إلى السحرة ليطلوا ما جاء به موسى صار في فرعون من الذلة والحاجة والفقر والعبودية إلى السحرة نظير ما فيهم هم قبل إيمانهم من الذلة والحاجة والفقر والعبودية له، فلذلك استعان بهم واحتاج إليهم وبذل لهم

(١) العبودية (٩٥ و ١٨) باختصار وتصرف.

الأموال والولايات لينصروه ويعزوه. أرايت قولهم متعززين بفرعون ﴿يَعِزُّوْهُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، اسمع قول فرعون لهم ﴿قَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَآتَيْنَاكَ مِن قَبْلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِئْتَنًا نَّكُنَّ الْفَٰتِنِينَ﴾ ❶ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿[الشعراء: ٤١-٤٢].

أما الله تعالى فإنه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا ليتنفع بك، ثم هي منفعة لك بلا مضرة، فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك.

وهذا المعنى متى فهمه الإنسان وتحلَّاه، أورثه عزًّا لا ذل معه، فلا يخاف الناس ولا يرحوهم.

فَخَفِ اللَّهَ فِي النَّاسِ، وَلَا تَخَفِ النَّاسَ فِي اللَّهِ، وَأَرْجُ اللَّهَ فِي النَّاسِ وَلَا تَرْجُ النَّاسَ فِي اللَّهِ، وكن ممن قال الله فيهم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ ❷ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ❸ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ❹ إِلَّا أَتِيعَاءَ وَبَوْرِهِ الْأَعْلَى ❺ وَكَسُوفَ يَرْصَى ❻ [الليل: ١٧-٢١].

وقال فيهم: ﴿إِنَّمَا تَطْلَعُكُمُ إِيَّاهُ اللَّهُ لَا تُبَدِّلُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

● الوجه السابع:

إنك أيها العبد إذا كنت غير عالم بمصلحتك حق العلم، وغير قادر عليها. ولا مرید لها كما ينبغي. فغيرك من الخلق أولى وأحرى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مریدًا لها.

والله تعالى هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم، وفي حديث الاستخارة الذي كان النبي ﷺ يعلمه لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك

من فضلك العظيم. فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم إنك أنت علام الغيوب»^(١).

فهذا الدعاء المبارك هو الطائر الميمون والطالع المبارك الذي أبدلنا الله به عن أزلام الجاهلية وزجرها الطير. وطيرتها واستخبارها الكهان، واستعلامها المنجمين.

● الوجه الثامن:

الإنسان كائن حي حساس متحرك بالإرادة. له علم وعمل بإرادته. ولا بد في العمل الإرادي الاختياري من مراد. وهو المطلوب. ولا يحصل المراد إلا بأسباب، ووسائل تحصله.

فصار العبد مجبوراً على أن يقصد شيئاً ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده. هذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان. لا ينفك عنه أبداً. فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس؛ وجدهم لا يتفكون عن هذين الأمرين، لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي محبتها إليه. وهو إلهها، ولا بد من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها، فمن غلب عليه حب المال أو حب شخص أو حب الرئاسة والتملك فإنه يصير عبداً لذلك. قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار. تعس عبد الدرهم. تعس عبد الخميصة. تعس عبد الخميصة. إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٦-٢٨٨٧).

ومعنى قوله عبد الدينار: أي أنه طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك عبده وخادمه، وجعله عبدًا لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبدًا لهواه لم يصدق في حقه -إياك نعبد- فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً^(١).

وعدل في الخطاب عن وصفه بكونه مالك الدينار أو جامع الدينار. مع أن هذه هي الصورة الظاهرة إلى وصفه بأنه عبد الدينار؛ لأنه لشغفه بالدينار والدرهم وإنفاقه عمره في جمعه صار عبدًا لهما.

فإذا علمنا أن العبد لا بد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه. تبين أن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كلام جامع محيط أولاً وآخرًا لا يخرج عنه شيء فتكون أحوال الناس مع هذه الآية على أربعة أقسام.

• القسم الأول:

الذين يعبدون غير الله ويستعينون غيره، وذلك هو الكفر والشرك والضلال البعيد، فمن فعل ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، قال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَمِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

• القسم الثاني:

الذين يعبدون الله ولكن في قلوبهم التفات إلى غيره واستعانة بغيره مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله، وعبادته وحده ولكن في قلوبهم

(١) انظر فتح الباري (٣٢/٢٤).



خضوع ورجاء لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم وعزمهم أو رهبة منهم. من ملوكهم ورؤسائهم وأغنيائهم ومحبيهم ومعشوقهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَٰبِ اللَّهِ وَلَٰكِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

● القسم الثالث:

الذين يستعينونه وإن عبدوا غيره أو ضيعوا عبادته، وهذا كثير في ذوي السلطان وأهل المال؛ بل وفي أهل الكفر الصريح به والشرك به. خصوصاً وقت النوائب والمصائب كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِن أَنجَانَا مِن هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٦٦ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِىْ ءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾ ٧٥ فَلَمَّا ءَاتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يَجْحَدُوْا بِوَعْدِهِمْ وَتَوَلّٰوْا وَهُمْ مّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ يَمَّا اَخْلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

● القسم الرابع:

الذين لا يعبدون إلا إياه ولا يستعينون إلا به وهؤلاء أهم أهل ولايته والمحققون لمنزلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس ما يحقق هذا المقصد الشريف: يا غلام



احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك^(١).

وهذه معرفة الخاصة من المؤمنين، التي تقتضي ميل القلب إلى الله تعالى بكليته، والانقطاع إليه والأنس به، والطمأنينة بذكره، والرجاء والطمع في فضله ورحمته، والهيبة والخشية منه، ثم عند الوفاة، الفرح ببقائه، والمحبة التامة له.

فقد كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ عند وفاته: «اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة: فقلت: يا نبي الله كلنا يكره الموت، قال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»^{(٣) (٤)}.

[٥] وبناء عليه يصبح وصف «العبودية لله تعالى» أشرف الأوصاف وأجلها،

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، والترمذي (٢٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ويوب عليه: باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٧) معلقاً، ومسلم (٢٦٨٤).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/٢١-٣٦) مع تصرف وإضافات كثيرة لتوضيح المعنى وتكميله.

ومقامُ التَّعَبُّدِ لله هو أعلى مقامٍ يرتقي إليه الإنسان؛ لأنه به. وبه وحده يتحرر ويكون على قمة هرم الحرية الحقبة بلا جدال.

لذلك كان وصف «العبودية لله تعالى» هو أجل أوصاف خلق الله تعالى من الملائكة المقربين، والنبين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

«إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق؛ بل من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمُوتُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ نَكَدَ السَّمَوَاتُ يَفْكُرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضُ وَتَعْرِىُ السَّجَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مریم: ٨٨-٩٥].

وقال تعالى في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُكُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٦٧﴾﴾ فَأَمَّا

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿[النساء: ١٧٢-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَوْنَ﴾ [فصلت: ٣٧-٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصْوَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥-٢٠٦] (١).

«بذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال: ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿٤١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] (٢).

وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه في قوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا مِمَّنَّا مِمَّا إِنَّمَا لَبِثَ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ لَاسْتَغْنَى﴾ [سورة ص: ٤٥].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا مِمَّنَّا مِمَّا إِنَّمَا لَبِثَ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ لَاسْتَغْنَى﴾ [سورة ص: ١٧].

(١) رسالة العبودية؛ شيخ الإسلام ابن تيمية (٨٠-٨٢).

(٢) المصدر السابق (٤٠).

وقال عن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٣٠].

وقال عن أيوب: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٤٤].

وقال عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]^(١).

وقد نعت الله خاتم رسله محمداً ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله وأشرفها وأحسنها وأجلها فقال تعالى في مقام الإسراء وهو من أعظم الآيات والمعجزات والبراهين والدلالات على نبوته ورسالته: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى في مقام نزول الوحي المقدس عليه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وقال تعالى في مقام الدعوة إلى الله والبلاغ عن الله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

وقال في مقام التحدي للخلق أن يعارضوا كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]^(٢).

وبهذا يظهر التكوين الشرعي الإسلامي الحقيقي لحرية الإنسان الذي هو عبد الله والمضطّر إليه اضطراراً في رزقه وحياته ومماته وصحته وعافيته وجميع شأنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا

(١) المصدر السابق (٨٥).

(٢) المصدر السابق (٤٢-٤٣) بتصرف.

شَرِيكَ لَمْ يُولَدَ لَكَ إِمْرُتٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَازِدَةً وَزِدَ أُخْرَى ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤].



الفصل الثاني

الحرية وحفظ الدين

بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

الحرية وحفظ الدين

بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

أولاً:

١- كل تجمع بشري، عضوي، حركي، لابد له من نظام يتنظمه، وقانون يحكمه. وأحكام وتشريعات يُرَجَّع إليها لدفع الاعتداء وإيصال الحقوق واستصلاح الحياة.

ثم لابد لهذا النظام من ثوابت وأسس مسلمة لا يجوز المساس بها. ولا الإخلال بها، ولا تجاوزها تحت أي مبرر.

٢- في الإنسان جانب خضوعي حاجي، وبالوصف القرآني البليغ، الإنسان فقير، والفقر وصف ذاتي له. لازم له لا يتفك عنه أبداً. وقد مر تحرير ذلك بدلائله.

وما دام أنه كذلك، فهو مدفوع ضرورة إلى التسليم لغيره. واللجوء لغيره، وهذا التسليم واللجوء مبرَّره شعور الإنسان بتفوق هذا الغير عليه، وشعوره أن هذا الغير يملك الخير والشر والنفع والضرر، فها هنا تقع المقابلة العظيمة، والمفاصلة الجليلة بين التشريع الإلهي الإسلامي الذي مصدره من عند الله رب العالمين وبين التشريعات الوضعية البشرية أيًا كانت.

٣- التشريع الإلهي الإسلامي يطلب من الإنسان تحويل هذا الجانب الخضوعي التسليمي إلى خضوع وتسليم كامل للغي ذاتاً، المقتدر ذاتاً. الذي

يملك الضر والنفع والإعطاء والمنع ويملك الموت والحياة والنشور، وهو الله رب العالمين، أما التشريعات الوضعية البشرية؛ فإنها تُعَبِّد البشر للبشر. في صورة من الصور مهما رفعت تلك التشريعات البشرية شعار الحريات وضمان حقوق الإنسان كما سيأتي توضيحه إن شاء الله.

ثانيًا:

إن القرآن العظيم، هو الوثيقة الوحيدة في العالم اليوم الحقيقية الصحيحة الثابتة المتصلة بالله رب العالمين. وفيه المقومات الكبرى التامة لإصلاح الخلق، واستصلاح الأرض ومن عليها. وهي الوحيدة اليوم الضامنة لإيصال الحقوق. وردع الظلم والاعتداء. وتعيد الخلق جميعًا على السواء لله الخالق وحده لا شريك له، وهو المقوم الوحيد اليوم الصافي الخالص من أهواء البشر وأغراضهم وتدخلهم. ولا حتى النبي الأعظم الخاتم محمد ﷺ. وهذه المقدمة يدل عليها أمور:

الأمر الأول:

إخبار الله تعالى أنه لا يمكن لأحد أن يفترى عليه هذا القرآن العظيم بما فيه من حجج باهرة عظيمة. وإعجاز وتحدي. وبما تضمنه من هدي ورشاد. وأنه لو فُرض أن أحدًا حاول أن يفترى على الله كذبًا؛ فإن الله تعالى لا بد أن يقصمه، ويذهب افتراءه، ويظهر كذبه، ويحل عليه عذابه ونقمته، وإخزاه وإهانته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقْصِلُ الْكَذِبَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ما كان هذا القرآن ليختلفه أحد من عند غير الله؛

لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق»^(١).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

كذا قال تعالى في آخر آية في هذه السورة الجليلة سورة يوسف، وكان قد افتتح تعالى هذه السورة بنسبة القرآن وإنزاله وقصصه إليه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَاكَ رَسُولًا مِّنَّا قُرْآنًا مَّا نَكْتُمُكَ الْغَيْبَ إِلَّا مَا نَشَاءُ وَمَا يُغْنِيكَ عَنْهُ الْغَنَاءُ وَنَحْنُ فَاعِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠١].

● الأمر الثاني:

أن الله تعالى توعد من افترى عليه الكذب ونسب إليه من القول والكلم ما لم يكن به قد تكلم. ونسب إليه من الدين ما لم يأذن به الله بأنواع عظيمة من العقوبات، وكل هذه العقوبات انتفت في حق النبي المصطفى ﷺ، فدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يفتر على الله شيئاً. ولا نسب إليه قولاً لم يقله تعالى. ولا شرع شيئاً من دون ربه تعالى. وإنما بلغ رسالة ربه حق البلاغ. وأتمه وأكمل. فرفع الله شأنه. وأعلى مكانه. وشرف مقامه. واتخذ خليلاً صفيّاً مقرباً، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤].

وهذه العقوبات التي لمن افترى على الله كذباً بالمرصاد هي:

١- الخيبة والخسارة والفضيحة والعار. وأنه لا يفلح أبداً. هذا وقد أفلح

(١) تفسير الطبري (٦/٥٦١).

رسول الله ﷺ أحسن الفلاح، ونجح غاية النجاح. وعلا ذكره ودينه أتم العلو وأطيبه وأبركه.

• قال الله تعالى في تهديد نبيه موسى عليه السلام في منازلته المشهورة مع السحرة: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُغَيِّلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فأخبر تعالى في الآية الأولى بخيبة من افترى عليه الكذب، وأخبر في الثانية بأنه أشد الناس ظلمًا وأنه لا يفلح وأن الخزي وعذاب الهوان ينتظره، وأن الضلال والإضلال هو نتيجة فعله، وكل هذا منتفٍ في حق رسول الله ﷺ، فقد أفلح وأنجح غاية الفلاح، وهده الله وهدى به كل من اتبعه إلى الصراط المستقيم.

٢- أن من افترى على الله كذبًا فإن الله هو خصمه. ومن كان الله خصمه فهو خاصمه وقاصمه ومهلكه.

• قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ

أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[الأحقاف: ٨].

• وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَءٌ بِمَا تُجْحِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

• وقال الله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنهُ الْوَتِينَ ﴿٥٠﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرِهِ حَاجِرِينَ﴾ [الحاقة ٤٣-٤٧].

في آيات سورة الحاقة هذه أعظم البرهان. فأخبر تعالى أن هذا القرآن كلامه وتنزيله وهو رب العالمين. ولو فُرض أن محمدًا ﷺ -وحاشاه- افترى على ربه الأكاذيب وتقول على الله الأقاويل. لما أمهله الله؛ بل عاجله بالعقوبة فأخذه أخذًا شديدًا باليمين وقطع نياط وعروق قلبه، وأهلكه أعظم الهلاك وما أحد من الخلق قادر على رد ذلك عنه. وهذا لم يقع؛ بل عز النبي ﷺ وساد وارتفع قدره وذكره وعلا مقامه. فدل على أنه ما صنع من ذلك شيئًا؛ بل بلغ رسالة ربه ونصح لأمته. فانتفاء النتيجة هو بالضرورة انتفاء للمقدمة، وصدق حسان ﷺ إذ قال:

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: «ولو تقول علينا محمد بعض الأقاويل الباطلة.

وتكذب علينا لأخذنا منه باليمين. يقول: لأخذنا منه بالقوة والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ولا يؤخره بها»^(١).

وقال العماد ابن كثير رحمه الله: «ولو تقول علينا أي محمد ﷺ لو كان كما

(١) تفسير الطبري (١٢/٢٢٣).

يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة والمعنى في هذا بل هو صادق بارز راشد؛ لأن الله تعالى مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات»^(١).

● الأمر الثالث:

إخبار الله تعالى أنه يذهب افتراء المفترين عليه. ويكشف كذبهم ويبطل باطلهم ويحق الحق بكلماته. وبما أن محمداً ﷺ هو آخر أنبيائه والقرآن الكريم هو آخر كتبه نزولاً. فهو الحق الذي أحقه الله بكلماته. وأن محمداً ﷺ بلغ هذا الكتاب العظيم كما أنزله رب العالمين.

● قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ يَدَاتِ الضُّلُوفِ﴾ [الشورى: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما المتنّبون الكذابون: فلا يطيل تمكينهم؛ بل لا بد أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ١١ ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ١٢ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، فأخبر أنه بتقدير الافتراء - لا بد أن يعاقب من افتري عليه»^(٢).

● وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ أَلَّا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِفِتْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ بَلْعَاقٍ تَفْسِقُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٥ ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٩-٢٧٠).

تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ [يونس: ١٥-١٦].

• ولما حاول عدو الله الشيطان أن يلقي شيئاً من الباطل على قراءة وتلاوة النبي ﷺ في قصة الغرانيق. أبطل الله ما ألقاه الشيطان وأحكم آياته أعظم الأحكام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَلِئِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

• الأمر الرابع:

شهادة الله تعالى للقرآن بأنه كتابه المنزل من عنده وأنه حق. ودفاعه عن نبيه محمد ﷺ أنه لم يفتقر على ربه تعالى كذباً قط، والملكوت الأعلى كله يشهد بذلك، وكفى بالله شهيداً.

• قال تعالى: ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ إِتَذَكَّرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ [السجدة: ١-٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرصه محمد ﷺ. وإنما كذب جل ثناؤه بذلك قول الذين قالوا: ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقول الذين قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِنْفُكُ

أَقْرَبَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿[الفرقان: ٤]﴾^(١).

• وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

قال قتادة رحمه الله: شهود واللّه غير متهمين^(٢).

قال الزجاج: «الشاهد: المبين لما شهد به فالله جل وعز يبينه ويعلم مع إبانته أنه حق»^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قوله: لكن الله يشهد، شهادته هو بيانه وإظهار دلالاته وإخباره. فالآيات البينات التي بين بها صدق الرسول تدل عليه ومنها ما ورد في القرآن، هو شهادة بالقول. وهو في نفسه آية ومعجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات. والآيات كلها شهادة من الله، كشهادة القول، وقد تكون أبلغ. ولهذا لما ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال: ﴿فَأْتُوا بِمِثْلِ سُورِ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٣-١٤]، فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى، وتبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته، وأنه آية تدل على الرسالة وعلى التوحيد. وكذلك قوله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، بعد قوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد ذكروا أن من الكفار من قال: لا نشهد لمحمد بالرسالة، فقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٢٩).

(٢) تفسير الطبري (٤/٣٧٠).

(٣) معاني القرآن (٢/١٣٤).

أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿النساء: ١٦٦﴾، وأحسن من هذا أنه لما قال: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، نفى حجة الخلق على الخالق فقال: لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة، فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة؛ بل له الحجة البالغة وهو الذي هدى عباده بما أنزله^(١).

• وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ لِّكَ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۖ﴾ [١] وَقَالُوا أَتُحِبُّ الْأَوَّلِينَ أَلَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا ۖ﴾ [٢] قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤-٦].

قال العماد ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ لِّكَ﴾، أي كذب، ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾، يعنون النبي ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾، أي واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون، ﴿وَقَالُوا أَتُحِبُّ الْأَوَّلِينَ أَلَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا﴾، يعنون كتب الأوائل أي استنسخها، ﴿فَهِيَ تَكُنْ عَلَيْهِ﴾، أي تقرأ عليه ﴿فَهِيَ تَكُنْ عَلَيْهِ﴾، أي في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه؛ فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمد رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين

(١) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/٤٦٥-٤٦٦).

سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعِثَ: الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، وقال تعالى في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا، ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر^(١).

● الأمر الخامس:

إن القرآن نزل بعلم الله الرحمن، لا بعلم أحد من الخلق، وكفى بالله عليمًا حكيمًا، وهذا من أعظم الدلالات وأوضح البيّنات على أن القرآن حق من عند الله تعالى وما فيه هو علم الله تعالى، خبره وحكمه.

● قال تعالى: ﴿لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْمَخْفَى﴾ [النساء: ١٦٦].

● وقال تعالى: ﴿فَالْتَمَسْنَا لَكُمْ فَاغْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

(١) تفسير ابن كثير (٥/٥٧٧-٥٧٨).

والباء في قوله في آية النساء (بعلمه)، وفي آية هود (بعلم الله) لها وجهان من التفسير:

• الوجه الأول:

أن الباء هي باء المصاحبة أي أن الله أنزل القرآن العظيم متضمنًا لعلمه العظيم مستصحبًا له، ولذلك كان القرآن كله من علم الله تعالى فلا يمكن إذن أن يفترى من دونه. ولا يستطيع أحد كائنًا ما كان أن يأتي بمثله ولا قريبًا منه. عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن. وكان إذا قرأنا قال: أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم قرأ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾^(١).

وهذا القول هو المأثور عن السلف الصالح، وهو اختيار أكثر العلماء والمفسرين. فما في القرآن من خبر هو خبر بعلم الله تعالى. وما فيه من حكم وشرع هو حكم الله وشرعه؛ لأنه بعلمه ومن علمه وحكمته. وهذا قول الزجاج: «أي أنزل القرآن فيه علمه»^(٢).

وهو اختيار شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمته الله، فإنه قال: «وذلك أن ما جاء به الرسول ﷺ هو من علم الله فما أخبر به عن الله فالله أخبر به. وهو سبحانه يخبر بعلمه ويمتنع أن يخبر بنقيض علمه وما أمر به فهو من حكم الله». والله عليم حكيم، ثم ذكر الآيتين السابقتين ثم قال: «وقوله أنزله بعلمه، قال الزجاج: أنزله وفيه علمه. وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه، وهذا

(١) رواه ابن أبي حاتم (١١٢١/٤).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (١٣٤/٢).

المعنى مأثور عن السلف»، ثم ذكر أثر أبي عبد الرحمن السلمي السابق ذكره ثم قال ابن تيمية: «قلت: الباء قد تكون للمصاحبة، كما تقول: جاء بأسياؤه وأولاده. فقد أنزله متضمنًا لعلمه، مستصحبًا لعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله. وما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله، بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله؛ فإن ذلك قد يكون كذبًا. وظلمًا كقرآن مسيلمة، وقد يكون صدقًا لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط . . . وأما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداء. فإنما أنزله بعلمه لا بعلم غيره، ولا هو كلام بلا علم. وإذا كان قد أنزله بعلمه فهو يقتضي أنه حق من الله، ويقتضي أن الرسول رسول من الله الذي بين فيه علمه»^(١).

● والوجه الثاني من التفسير:

أن الباء هي باء السبب؛ فإنه تعالى لما قدم شهادته الجليلة المهيبة للقرآن بأنه منزل من عنده. جعل سبب هذه الشهادة أن هذا القرآن أنزل بعلم الله. والله أعلم بما أنزل فهو يشهد بعلمه على كلامه. وهو أعلم بصدق رسوله الذي أنزل عليه وأنه أهل للرسالة.

وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري؛ بل إنه لم يذكر غيره. فقال: «أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، وصفيه من عبادته، ويشهد لك بذلك ملائكته فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك»^(٢). وذكر نحو هذا في آية هود.

وهذا المعنى الذي اختاره ابن جرير هو المعنى المراد في آية سورة النحل

(١) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/٤٦٤-٤٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٤/٣٧٠).

وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكما آية فأبدلنا مكانه حكما آخر واللّه أعلم بما يتزل. يقول: واللّه أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد قيل أنزله وهو عالم به وبك، قال ابن جرير الطبري في آية النساء أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه. وذكر الزجاج في آية هود قولين: أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم أنه حق من عنده، والثاني: أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب، ودل على ما سيكون وما سلف.

قلت^(٢): هذا الوجه هو الذي تقدم.

وأما الأول: فهو من جنس قول ابن جرير؛ فإنه علم به وبمن أنزل إليه وعالم بأنه حق، وأن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له، ويكون هذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَيَّ الْغَالِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا الوجه يدخل في معنى الأول؛ فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه، وفيه الإخبار بحاله وحال الرسول.

وهذا الوجه هو الصواب، وعليه الأكثرون. ومنهم من لم يذكر غيره، والأول وإن كان صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه»^(٣).

(١) تفسير الطبري (٦٤٦/٧).

(٢) القائل شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) تفسير سورة العلق ضمن الفتاوى (٤٦٧/١٦-٤٦٨).

• الأمر السادس:

تحدى الله تعالى للخلق جميعاً أن يأتوا بمثل كتابه وكلامه. فلو فرض أن القرآن من نظم محمد وكلامه وافتراءه كما يقوله المكذبون؛ فإن محمداً من جنسكم فيصير القرآن وما فيه من علوم مقدوراً للبشر أن يأتوا بمثله. فليأتوا بمثله إذا أو بشيء من مثله. وليجتمعوا على ذلك. فلما عجزوا مع شدة حرصهم ورغبتهم في إبطال أعظم دلالات نبوة محمد ﷺ. وأقروا بالعجز ظهر حقيقة هذا التحدي وهيبته وثبت يقيناً أن القرآن حقاً من عند الله، فهو كلامه الجليل. وما فيه من علمه العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقرآن -نفسه- فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم: أي يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه»^(١). وآيات التحدي متعددة في القرآن. معلنة بأشد الوضوح في القرآن المكي والمدني.

• قال الله تعالى في الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٣٣ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فها هنا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنه تَقَوْلُهُ؛ فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله، كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به، من نظم ونثر، كان هذا ممكناً للناس، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله»^(٢).

• وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن فقال تعالى في هود: ﴿أَمْ

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٢٢).

(٢) المصدر السابق (٥/٤٢٣).

يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود: ١٣].

• ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. وأعلن أنهم عاجزون عن ذلك وهذا أبلغ ما يكون في التحدي أن يتحداهم أن يأتوا بشيء مثل القرآن ثم أعلن أنهم لا يفعلون ولا يمكن أن يفعلوا مهما اجتمعوا ومهما فعلوا، فقال تعالى في الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا التحدي كان في القرآن المكي؛ فإن هذه السور الطور وهود ويونس مكية، وأعاد التحدي وبقوة ووضوح بعد الهجرة في القرآن المدني.

فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا رَزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «ولن لنفي المستقبل، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان، لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك، وأمره أن يقول في (سبحان) وهي سورة مكية، افتتحها بذكر الإسراء وهو كان بمكة... ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعم بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء، هو لجميع الخلق وهذا قد سمعه كل من سمع

القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعُلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورة مثله، ومن حين بعث وإلى اليوم، والأمر على ذلك مع ما عُلم من أن الخلق كلهم كانوا كفارًا قبل أن يبعث، ولما بُعث إنما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق ممكن . . . فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة، مرة بعد مرة، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها؛ فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد - إذا كانت القدرة حاصلة، وجب وجود المقدور ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض. فهذا القدر يوجب علمًا بيّنًا لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة»^(١).

ثالثًا:

القرآن العظيم هو من أعظم وأجل نعم الله رب العالمين على العالمين أجمعين لو كانوا يعقلون. ولذلك نوه الله تعالى به وامتن به. وأخبر أنه الكمال والتمام. والنعمة. والرضا والغاية.

قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أخرج البخاري في الصحيح: عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً، من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٢٦-٤٢٧) باختصار.

قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة»^(١).

في هذا الحديث الشريف فوائد نفيسة:

- ١- يظهر من قول اليهودي: «آية تقرؤونها اتهام من هذا اليهودي للمسلمين بأنهم لا يُقدِّرون ما نزل عليهم ولا يفهمون عمقه وشرفه وكأن فيه اتهام مبطن بأنهم غير جديرين بأن ينزل عليهم هذا الكتاب المتضمن مثل هذه المنَّة العظيمة.
- ٢- وفيه تزكية من اليهودي لقومه وكأنهم العارفون بعظمة معاني الكتاب المنزل وكأنهم أجدر بمثل هذه الآية من المسلمين وهم الذين قابلوا نعم الله جميعاً بالنكران والتحريف والكفران.

٣- في جواب عمر رضي الله عنه تحقيق مقاصد جلية:

(أ) فيه رد لاتهم اليهودي -المبطن- بأننا والحمد لله أعلم بمواقع كتابنا ومنازله بدقة كبيرة.

(ب) فيه غيظ من كفر بهذا الكتاب العظيم المنزل. وهذا النبي الكريم الخاتم ﷺ، وذلك بإخبارهم بأن الله تعالى: جمع للمؤمنين بهذا الكتاب المنزل وهذا النبي الخاتم ﷺ بين الشرف والفضل من أطرافه ومجامعه.

• فمُنزِلُ هذه الآية المتكلم بها: هو الله تعالى. وهو أعظم وأكبر وأجل من كل شيء.

• والنازل بها هو روح القدس أمين الوحي، جليل الملائكة وكبيرهم جبريل عليه السلام.

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٦٠٦).

• والمنزل عليه: هو النبي الأمي الخاتم الذي يؤمن بالله وكلماته.

• في أعظم موقف وهو الموقف بعرفة.

• في أشرف يوم: يوم عرفة الذي وافق يوم الجمعة.

(ج) في الحديث إشعار بأن اتخاذ الأعياد جزء من التشريع الديني المنزل، فالْمُؤْمِنُونَ فيه متبعون لأمر الله. فلما أتم الله على رسوله والمؤمنين النعمة وأكمل لهم الدين. ورضي لهم الإسلام دينًا. كان اليوم الذي يلي يوم عرفة هو يوم العيد الأعظم والحج الأكبر.

وهذا فارق كبير جليل بين هذه الأمة المسلمة. المتبعة لهذا النبي الخاتم ﷺ وبين اليهود وغيرهم من أهل الديانات. الذين يضعون ويصنعون أعيادهم ومواسمهم حسب أهوائهم. ورغبات أحبارهم. وتقديرات رهبانهم. وحياة زعمائهم. فرق كبير بين أمة مؤمنة متبعة لشرع نبيها في كل عظيم وصغير. وجيل ويسير. وبين أمة متلعبة عابثة مبتدعة تصوغ لها أحبارها ورهبانها دينهم على ما يشتهون ويريدون.

وهذا هو مضمون هذه الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فليس بعد الكمال شيء يُطلب. ويُبحث عنه ويُرغب. إلا من قبل الكافرين بالنعمة المستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير. مما فيه شبه باليهود. وكل عابث أئيم. من مرضى القلوب الذين يريدون أن يتخذوا كتاب الله وراءهم ظهرًا. ويحدثون في شرع الله ودينه ما لم ينزل الله به سلطانًا وما ليس لهم به علم. فكل صاحب بدعة محدثة. وكل من يزعم أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مناسبة لمستوى ومتطلبات العصر. ففيه شبه باليهود الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، ويبدلون ظلمًا قولًا غير الذي قيل لهم.

ويجب أن لا يصرفنا فعلهم عن اعتقاد الكمال والتمام لشرع الله المنزل. وأن لا يكدر علينا فعلهم فرحنا بتمام نعمة الله علينا.

ومن تعقبات القرآن الجليلة: توجيه المؤمنين في خضم معركتهم مع الرافضين لشرع الله المنزل. الكارهين له. المجادلين فيه. من أهل الكفر والفسوق والنفاق - أن لا يزلزلهم ذلك. ولا يؤثر فيهم شكاً في أمر الله. ولا يزعزع تسليمهم لحكم الله؛ لأن ذلك هو بحق مقتضى لا إله إلا الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴿١٤﴾﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا اَنَّمَا اُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَاَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ فَهَلْ اَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].

• تأمل قوله تعالى (لكم) فإنه على أحد تفاسير السلف: محمد ﷺ وأصحابه وأتباعه. وهو تفسير دقيق موفق.

ففيه دليل على استمرار الافتراء، واستمرار الزعم الكاذب بأن القرآن مفترى، واستمرار التحدي بأن يأتوا بعشر سور مثله أو حتى بسورة من مثله.

ثم ذكر هنا ثلاث نتائج وتعقبات عظيمة:

(١) ذكر أولاً أن أعداء القرآن والكافرين به الزاعمين أنه مفترى عاجزون أن يأتوا بمثله بسبب أنه إنما أنزل بعلم الله. كما مر تحريره.

(٢) ونبهنا ثانياً نحن المؤمنين قبل الكافرين أنه لا إله إلا الله. وأن سبب المعركة مع أعداء الله وأعداء رسوله وكتابه هو رفضهم لهذه المسلمة الجليلة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ولما كان القرآن العظيم كله دعوة إلى لا إله إلا الله عبادة وتشريعاً. جادلوا فيه. وزعموا أنه مفترى. فتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فلما كذبوا وظهر

عجزهم . بان أنهم كافرون رادون لهذه المسلمة الجليلة لا إله إلا الله .
(٣) ثم خاطبنا ثالثاً داعياً ومحذراً بأن نسلّم له ونبقى مسلمين له ، لا يشككنا في إسلامنا ولا في لا إله إلا الله أعداء الله من الكفار والمشركين والمنافقين . فقال لنا تعالى : ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ .

قال الإمام مجاهد رحمته الله : عنى بهذا القول أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) .
فحذر الله تعالى النبي الكريم وأتباعه من بعده تحذيراً متواصلًا من أن يستجيبوا لضغط الكفار والمنافقين المجادلين في أحكام وحقائق القرآن العظيم ، فيذهب أولئك المؤمنون تفادياً لهذا الضغط أو تخفيفاً منه فيحرفوا معاني كتاب الله ، ويخرجوها عن مواقعها ويصرفوا وضوحها وصراحتها . والتي نصب في النهاية في زعزعة هذه المسلمة الجليلة «لا إله إلا الله» عبادة وتألها . «لا إله إلا الله» تشريعاً وحكماً وخضوعاً .

وقد تعرض النبي الكريم صلى الله عليه وسلم نفسه لضغط من الكفار هائل . ليحرف الكلم عن مواضعه . فيكتم شيئاً أو يحرف شيئاً مما أوحاه الله إليه تفادياً لضغطهم واستجابة لإغرائهم - وحاشاه صلى الله عليه وسلم . فحذره ربه أعظم التحذير ونبيه أشد التنبيه ، فقال تعالى : ﴿وَلَمَّا كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِتْلُكْ لِنَفْتَرِيْ عَلَيْكَ غَيْبٌ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ۖ ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَن بُرِّئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ۖ ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذْنُوكَ خِلَافَ الْحَبْوَةِ وَضَعَفَ السَّمَاتُ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا﴾ [الإسراء : ٧٣-٧٥] .
ومعلوم أن قوله ﴿لِنَفْتَرِيْ عَلَيْكَ غَيْبٌ﴾ أي نفتري على الله غير هذا القرآن ، والمعنى نفتري على الله أحكاماً وتشريعاً غير ما أنزل الله في القرآن لثبوت عجز

(١) تفسير الطبري (١٢/٧) .

البشر جميعًا بمن فيهم رسول الله ﷺ أن يأتوا بمثل هذا القرآن. فصار المعنى تفتري على الله أحكامًا وشرعًا غير ما حكمه وشرعه في كتابه مما لم يعجب الكفار وأعداء الله ولم يرق لهم.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله»^(١).

وبهذا يظهر بجلاء أن دعوات المرسلين هي جهاد باللسان والبيان والسيف والسنان لتحرير البشر المنهكين المستعبدين من الطواغيت والشياطين. والذين استخفهم واستعبدهم لأنفسهم وأحكامهم وشهواتهم.

- أدرك فرعون وهامان وجنودهما أن دعوة نبي الله موسى ﷺ هي دعوة حقيقية لتحرير البشر الذين يستعبدهم فرعون لنفسه. البشر الذين لم يخلقهم. ولم يرزقهم. ولا يملك لهم شيئًا لكنه استخفهم وسخرهم لنفسه. وجعل من نفسه ربًا أعلى وإلها يُرجى.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكَ يَمَّةٌ تَمْنَاهُ عَلَىٰ أَنْ عِبْدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، قال مجاهد: قهرتهم واستعملتهم.

وقال ابن جريج: قهرت واستعملت وغلبت بني إسرائيل.

وقال قتادة: أتمنّ علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدًا^(٢).

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

(١) تفسير الطبري (١١٩/٨).

(٢) تفسير الطبري (٤٣٨/٩-٤٣٩).

أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ [القصاص: ٤].

- ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَتُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهُنَكَ وَتُسُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصاص: ٥-٦].

- ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولذلك فإن أسرع الناس استجابة للأنبياء هم الفقراء المسحوقون. والبسطاء المنهكون. الذين استذلهم الطواغيت والإقطاعيون. وبارونات الربا فهتكوا حرمتهم واستعبدوهم سخرة لأنفسهم.

- ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۖ﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ إِنَّ جِسَابِيَّمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣].

- ﴿وَمَا رَبُّكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُدْءَ الرَّأْيِ وَمَا رَأَىٰ لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَقْضُكُم كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

- في سؤالات هرقل عظيم الروم لأبي سفيان عن النبي ﷺ. قال هرقل لأبي سفيان: أفقرء الناس يتبعونه أم أغنياؤهم؟ قال أبو سفيان: بل فقراءهم، قال هرقل: كذلك أتباع الأنبياء^(١).

لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في دعوات ورسالات المرسلين، تحريرهم من استعباد الكبراء بغير حق. وظلمهم، والبغي عليهم لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في رسالات الرسل الكرام تحرير عقولهم وقلوبهم من الأوهام والأساطير والأكاذيب التي يملئها عليهم قهراً الكبراء.

(١) صحيح البخاري رقم (٧).

إنه باختصار الإعلان الوحيد لتحرير الإنسان. ليكون عبدًا لربه وخالقه وحده لا شريك له.

رابعًا:

وفي ضمن هذا التقرير الشرعي العظيم للحرية الحقيقية التي لا تكون إلا في تمام الرضى بالعبودية لله تعالى الواحد الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، تتم الاستجابة لشرعة الله تعالى المنزلة. التي هي المنهج الوحيد الذي يحافظ على جواهر الحياة الإنسانية الكريمة. من الضياع والفساد والعبثية: وهي الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

هذه الجواهر التي أهدرتها وابتزتها جميع القوانين والتشريعات الأرضية الوضعية، وباسم الحرية.

شرعة الله المنزلة جاءت ونزلت ليكون الدين كله لله رب العالمين، لا شريك له. فالشرك ممنوع ومحارب بكل أشكاله وصوره؛ لأنه بالتوحيد لله والعبودية له وحده لا شريك له تتم حرية الإنسان على أكمل وجه كما مر تقريره في الفصل الأول.

إنه تزواج عظيم واضح. بين نوعي التوحيد اللذين تدعو لهما شرعة رب العالمين.

توحيد الله تعالى بالعبودية له وحده لا شريك له.

وتوحيده تعالى في التشريع والحكم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ

نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِا وَلَا نُزِدْ وَإِزْرُهُ وَنَزِدْ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿[الأنعام: ١٦٢].

يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمته الله: «قل يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، أي: ذبيحتي، ﴿وَحَيَاتِي﴾: أي حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾: أي وفاتي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أن ذلك كله له خالصاً دون ما أشركتم به، أيها المشركون من الأوثان، لا شريك له في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصاً، وبذلك أمرني ربي وأنا أول من أقر وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه تعالى»^(١).

وقال أيضاً: «قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، الداعيك إلى عبادة الأصنام، واتباع خطوات الشيطان: ﴿أَغْوَىٰ اللَّهُ أَبْنَىٰ رَبًّا﴾، أي: أسوأ الله أطلب سيئاً يسودني؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو سيد كل شيء دونه ومدبره ومصلحه»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَىٰ أُولَئِكَ يَهْدِيهِمْ لِيُجْزِلُوهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ لَتَكُونَنَّ لِمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

(١) تفسير الطبري (٥/٤٢٠).

(٢) المصدر السابق (٥/٤٢١).

وفي القراءة الأخرى (ولا تُشْرِكْ في حكمه أحدًا).

كما أنه تزاول واضح أيضًا في ضدهما، فحيثما انحرف البشر إلى الإشراك بالله واتخذوا لهم آلهة دون الله يريدون. نشأ فيهم من يضع لهم الشرائع والقوانين التي تكرر هذا الشرك والضلال وتحفظه؛ بل تزيده وتأكده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فإن الله تعالى عاب على المشركين شيئين:

أحدهما: أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا.

والثاني: تحريمهم ما لم يحرمه الله.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيما رواه مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»^(١).

وقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فجمعوا بين الشرك والتحريم... وأصل الضلال في أهل الأرض إنما نشأ من هذين:

• إما اتخاذ دين لم يشرعه الله.

• أو تحريم ما لم يحرمه الله^(٢).

وقال أيضًا: «فتشبه عمرو بن لحي الخزاعي بمن رآه في الشام، واستحسن

(١) الحديث رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥-٨٦) باختصار.

بعقله ما كانوا عليه، رأى أن في تحريم ما حرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، تعظيمًا لله دينًا، فكان ما فعله أصل الشرك في العرب . . . وأصل تحريم الحلال، وإنما فعله متشبهًا فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتى غلب على أفضل الأرض الشرك بالله ﷻ وتغيير دينه إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأحيا ملة إبراهيم عليه السلام، وأقام التوحيد وحلل ما كانوا يحرمونه^(١).

واعتبر ذلك بأحوال العالم في الجاهليات القديمة قبل الإسلام، وكذلك في الجاهليات الحديثة الرافضة لشريعة الله المحاربة لها. تجد ذلك ظاهرًا واضحًا.

• لقد كان العالم، كل العالم قبل مبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ في أمس الحاجة إلى رسالة جديدة، واضحة، دقيقة، شاملة، عالمية، يخرج الله بها الناس من ظلمات الجهل والخرافة والظلم، إلى نور الحق والعلم والعدل.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتُزَكَّوْنَ أَنْ أَنتَ أَتَمْنَىٰ إِلَيْكَ يُخْرَجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْفُتُورُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١-٢].

عاش العالم أسوأ أحواله، وأكثرها جهلاً وظلمًا وخبيثًا في فترة من الرسل، وانقطاع من السبل.

فأظلم العالم، وأحلك ظلامه، مما جعل الخلق في أشد التشوف والتشوق إلى تنفس الصباح، وإشراقة الشمس التي ستبدد هذا الظلام.

(١) المصدر السابق (١/٣٥١) باختصار.

وحتى يعلم الجميع مقدار الخير، والرشد، والنور، والعدل، الذي أحدثته الرسالة المحمدية في العالم يجب أن نتعرف على أحوال هذا العالم قبل أن يطره أعظم حدث في تاريخ البشرية قاطبة.

أولاً: حالة العرب:

كان العرب يعيشون أسوأ الأوضاع، وأشدّها شرّاً وجهلاً وظلماً:

- من جهة المعتقد الديني كانت الخرافة هي المسيطرة على عقولهم وتصوراتهم، يعبدون أصناماً، ويعظمون أوثاناً، يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها. ونظرة في كتاب «الأصنام» للمؤرخ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي - تكفي لمعرفة مدى الصنمية والوثنية في حياة هؤلاء العرب^(١).

في صحيح البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا معشر العرب نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وعبدنا الآخر، وكنا إذا نزلنا وادياً أخذ أربعة أحجار فنظرنا أمثلها فعبدناه وجعلنا الثلاثة الأخرى أئافى للقدر، فإذا لم نجد حجراً جعلنا كومة تراب وأتيننا بالشاة فحلبناه عليه حتى يستجمع ثم طفنا به»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»^(٣).

والمقصود الآيات من سورة الأنعام من آية ١٣٥-١٤٠ فهي كلها في بيان

(١) انظر: كتاب الأصنام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق الأستاذ: أحمد زكي.

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٣٧٦).

(٣) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٤)، ويوب عليه البخاري: باب جهل العرب وقصة زمزم.

أحوال العرب قبل الإسلام من الجهل والضلال والخرافة والقسوة والتشريعات الضالة وقتل الأولاد وواد البنات ونحو ذلك من جهالاتهم وضلالتهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل^(١)، فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم. عليّ بالرجل، فدُعي له فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم، قال عمر: فإني عزمت عليك إلا ما أخبرني، قال: كنت كاهنهم. قال: فما أعجب ما جاءتك به جئتك؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق، جاءني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر إلى الجن وإيلاسها، وبأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها^(٢)، قال عمر: صدقت. بينما أنا عند آلهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخًا أشد صوتًا منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم، وقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت، فقممت. فما نشبنا أن قيل: هذا نبي^(٣)».

قال المؤرخ الاجتماعي صاعد بن محمد الأندلسي: «وجميع عبدة الأوثان من العرب، إنما كانت عبادتهم لها ضربًا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة في الهياكل، ... وكان جمهورهم ينكر البعث

(١) هو سواد بن قارب السدوسي. انظر فتح الباري (٢٢/١٥).

(٢) زاد في رواية البراء عند البيهقي:

تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فاسمُ إلى الصفوة من هاشم	واسمُ بعينك إلى رأسها

(٣) صحيح البخاري (٣٨٦٦).

والنشور، ولا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء، وكان فيهم من يقر بالمعاد، ويعتقد أن من نُحرت ناقتة على قبره حُشر راكبًا، ومن لم يفعل ذلك حُشر ماشيًا، وفي ذلك يقول جريبة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه:

يا سعد إما أهلكنّ فلئنني أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يمشر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وثق الخطيئة إن ذلك أصوب
فهذه كانت ديانات العرب^(١).

كان النظام الطبقي هو السائد فيهم، قيمة الإنسان بحسب قوة ومكانة قبيلته، وكانوا يقيمون الحروب الطاحنة لأنفه الأسباب، وكان الظلم والاستبداد هو خلقهم وديدنهم.

شعارهم: إنما العاجز من لا يستبد.

قال زهير: ومن لا يظلم الناس يظلم.

ينطبق عليهم قول القائل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلملة لا يظلم
حياتهم الحروب والقتل والزنا والخمر، والظلم والبغي وقتل الأبناء وواد البنات.

قال طرفة:

فَلَوْلَا ثَلَاثُ مَنْ مِنْ عِيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَكَ لَمْ أَخْفُلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي
فَمِنْهُمْ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرِيَّةٍ كَمَيْتِ مَتَى مَا تُعَلِّ بِالْمَاءِ تُزِيدِ

(١) كتاب طبقات الأمم (١١٧-١١٨).

وَنَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجَنِ وَالذَّجْنُ مُعْجَبٌ بِيَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخَبَاءِ الْمُعَمَّلِ^(١)

أما المرأة فهي من جملة المتاع عندهم، تورث إذا مات زوجها كما تورث الدواب والبهائم، وكانوا يستفقدون المرأة ويحتقرونها، وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قصة الموءودة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰؤُلَاءِ الْأَنثَىٰ خَالِصَةً لِّلْكُفْرِ ۚ وَنَحْنُ عَلَىٰ آزْوَاجٍ ۖ إِنْ يَكُن مِّمَّنَّ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاؤُ سَيَجْرِبُهُمْ وَصِفَتْهُ ۖ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومن جملة أحكامهم القاسية الجاهلية فيما يتعلق بالمرأة أنها تحبس إذا مات زوجها سنة كاملة في شر مكان وأخبثه ولا تمس ماء فإذا انقضى العام تمسحت بطائر أو حمار أو كلب تفتض به وتُعْطَى بكرة ترمي بها وتخرج.

في صحيح البخاري عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتي توفي زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ قال: لا، مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول لا. ثم قال رسول الله ﷺ: «إنما هي أربعة أشهر وعشرًا، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبرة على رأس الحول».

قال حميد: فقلت لزَيْنَب: وما ترمي بالبرة على رأس الحول؟

فقالت زَيْنَب: كانت المرأة إذا توفي زوجها دخلت حفشًا ولبست شرثيابها،

(١) انظر الأبيات من معلقة طرفة في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (١/٤٣٩).

ولم تمس طيباً حتى تمر عليها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات ثم تخرج فتعطى بكرة فترمي بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره.

سئل مالك رحمته الله: ما تفتض به؟ قال: تمسح به جلدها^(١).

قال ابن قتيبة: «سألت بعض الحجازيين عن الافتضاض؟ فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً، ولا تزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تفتض أي تكسر ما هي فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها، وتنبذه فلا يكاد يعيش ما تفتض به»^(٢).

وكانت الفوضى الجنسية عامة مطبقة فيهم، وهي نتيجة طبيعية للجاهلية المغرقة التي كانوا عليها^(٣).

تصور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الحال فتقول: «كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها،

(١) صحيح البخاري (٥٣٣٦-٥٣٣٧).

(٢) نقله في الفتح (١٧٥/٢٠).

(٣) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛ لأبي الحسن الندوي (٦١-٧١).

أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتا ط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك «فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم»^(١).

ثانيًا: حال أهل الكتاب اليهود والنصارى:

كان المفترض في أهل الكتاب أن يكونوا أصلح من غيرهم؛ بل كان الواجب أن يكونوا مصلحين لغيرهم. ولكن أهل الكتاب غيروا وبدلوا وضلوا ضلالًا بعيدًا، حرقوا الكتب المنزلة إليهم، وقتلوا الأنبياء والرسل، وأحلوا ما حرم الله، وحرّموا ما أحل الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله. فسدت الكنيسة فسادًا عظيمًا، وطغت طغيانًا كبيرًا.

وإن أوثق مصدر سجل على أهل الكتاب انحرافهم وضلالهم وبغيهم فسادهم هو القرآن الكريم الذي هو عهد الله الأخير للبشرية.

قال الله تعالى عن حال أهل الكتاب واستحكام الظلمة فيهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ

(١) صحيح البخاري (٥١٢٧).

اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا لَّا كُفْرَئَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَئِن لَّمْ تَجِدُوا مِنْ تَحْتِهَا
 الْآيَةَ لَمَّا كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦﴾ فِيمَا
 نَقَضِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
 وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ
 وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبِئْسَ الَّذِينَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَدَّقُ أَخَذْنَا مِنْهُمُ
 مَوَاضِعَ مَا دُخِرُوا بِهِ فَاعْرِضْهَا عَلَيْهِمْ الْعَذَابَ وَالْبَغْضَاءُ إِلَيْنَا يَوْمَ الْفِتْنَةِ
 وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْلَمُ أَعَن
 كَثِيرٌ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
 اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مَجْلَدٌ أَلْسِنَةٍ يُحَرِّجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٦-١٧﴾.

هذا النص الكريم الموثق في تضييعهم ما عهد إليهم من الكتاب المنزل
 إليهم، أما بقية أحوالهم من الفساد والإثم والعدوان فقال تعالى عن ذلك ﴿قُلْ
 يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
 فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ هَلْ أُبَيِّنُ لَكُمْ بِشَرِّ مِنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
 مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ
 قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٨﴾ وَرَأَى كَثِيرًا
 مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّعْثُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٩﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ
 الرَّزَاقِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّعْثُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
 ﴿المائدة: ٥٩-٦٣﴾.

وفي الأسفار: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلبه، فبعيد عني، إنهم

بالباطل يعبدونني، فليس ما يُعلمون من المذاهب سوى أحكام بشرية»^(١).
والنبوة أصبحت عندهم غباءً وجنوناً: «ليعلم إسرائيل أن النبي غبي ورجل
الروح مجنون»^(٢).
«وكان في الغد أن اعترى شاول الروح الشرير من لدن الله فأخذ يتنبأ في
داخل بيته»^(٣).

ثم ذكر تعالى استحكام ذلك الفساد فيهم:

فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا
تَكُونَ فِتْنَةٌ فَكُفَرُوا فَمَقَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَمَكَّوْا كَكَيْدِهِمْ وَنَهَمَ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠-٧١].

وقال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ نَمِشُّهُمْ وَكُفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ يَغْتَرِ حَتَّى
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧١﴾ وَبِكُفَرِهِمْ
وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا
أَتْبَاعُ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٧٣﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧٤﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿٧٥﴾ فَوُظِّلَ مِنَ الَّذِينَ
هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿٧٦﴾ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُ
عِنْدَهُ وَأَكْبَاهَهُمْ آمُولَ الْنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥-١٦١].

(١) سفر أشعيا (١٣/٣٩).

(٢) سفر موشع (٧/٩).

(٣) سفر صموئيل الأول (١٠/٨).



ثم نتج عن ذلك كله لعن الله تعالى لهم وغضبه عليهم والحكم عليهم بالذلة والمسكنة، فكانوا بحق غير جديرين بأن تكون فيهم كلمة الله وعهده وميثاقه، قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۖ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْمَذَآبِ هُمْ خٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٧-٨١].

أما فسادهم الاقتصادي والسياسي فسجله القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلرُّهْبَانِ لِيَآكُلُواْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيُغْدِرُونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْرِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّآ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ٱلْكَذِبَ أَكْثَرًا لِّلشَّعْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْقَٰسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْإِنْمِ وَٱلْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ ٱلشَّعْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ لَوْلَا يَهْتَنُّهُمُ ٱلرَّيْبُ مِنِّي وَٱلْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِ ٱلْإِنْمِ وَأَكْلِهِمُ ٱلشَّعْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَمِنَا يَمَ قَالُوا بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِدْ كَثِيرًا مِّنْهُنَّ مَا أُزِيلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُفِينًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفْأَهَا اللَّهُ وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿المائدة: ٦٤﴾.

يقول «جوزيف لوكليير»: «ما أكثر ما تمت الإحالة إلى نصوص الكتاب المقدس واستقاء الشواهد والنماذج منها إثباتاً لحق الأمير في التدخل في المجال الروحي وتبريراً للضغوط والتدابير الصارمة بحق الهراطقة»^(١).

ويقول: «إن يهوه ملك إسرائيل الحقيقي، فيما السلطة المنظورة هي بيد الملك البشري أو الشخصية البشرية الممثلة للملك وهي سلطة جامعة تحكم القبضة على الزمني والروحي والمدني والقدسي بحيث لا يفلت منها شيء»^(٢).

ثالثاً: حال الفرس:

كان الفرس أمة وثنية ثنوية دينها المجوسية، يعتقدون أن العالم له خالقان ربان متكافئان بينهما صراع؛ سديمي: إله الخير، ويمثله النور والنار، وإله الشر ويمثل الظلام. ولذلك اتخذوا النار معبدهم وإلههم بناء على ذلك^(٣).

والاعتقاد بوجود إلهين متكافئين مصادم للفطر وبداهة العقول السليمة.

قال المؤرخ صاعد الأندلسي: «وكان سبب تمجسهم أن زرادشت الفارسي ظهر في زمان «بستاسف» -ملك الفرس- لثلاثين سنة خلت من ملكه ودعا إلى دين المجوسية من تعظيم النار، وسائر الأنوار والقول بتركيب العالم من النور والظلام واعتقاد القدماء الخمسة والتي هي عندهم -الباري تعالى عما يقولون- وإبليس والهيولة والزمان والمكان ولم تزال الفرس على دينه وملتهم

(١) كتاب تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٩).

(٢) كتاب تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٩).

(٣) الملل والنحل للشهرستاني (٢٣٣).

شريعته قريباً من ألف سنة وثلاث مائة سنة^(١).

• كان النظام الطبقي هو السائد فيهم: الأسرة الحاكمة أسرة آل ساسان أسرة مقدسة تجري في عروقهم دماء إلهية مقدسة وبقية الشعب ملك لهم وخدم لهم، وعبيد لهم.

• كان الفساد الخلقي والإباحية الصارخة التي طالت كل المحارم حتى الأمهات والبنات والأخوات هي أخلاق وأحوال الفرس المجوس.

يذكر المؤرخ الإمام «الطبري» أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج ابنته ثم قتلها. وأن بهرام جوبين في القرن السادس تزوج أخته.

وشاعت هذه الإباحية المقيتة فيهم وذاعت وعمت وطمت، يسجل المؤرخ الإمام الطبري هذا فيقول: «افترض السفلة ذلك واغتمموه وكانفوا مزدك وشايعوه فابتلي الناس بهم في بلاد فارس وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره ويغلبونه على نسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم حتى حملوا الملك قُبَاذ على ذلك فشاع ذلك فيهم حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه»^(٢).

رابعاً: حال بلاد الهند:

كانت الهند تعتقد بقاء العالم وتناسخ الأرواح وعبادة الأصنام وتعظيم الهياكل والاعتقاد في النجوم والأفلاك.

يقول المؤرخ صاعد الأندلسي: «فمنهم براهمة ومنهم صابئة، فأما البراهمة

(١) طبقات الأمم (٦٤-٦٥).

(٢) تاريخ الأمم والملوك (٨٨/٢).

فهي فرقة قليلة العدد فيهم شريفة النسب عندهم فمنهم من يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوات وتحريم ذبح الحيوان والمنع من إيلامه وأكل أقواته، وأما الصابئة وهي جمهور الهند ومعظمها فإنها تقول بأزل العالم، وأنه معلول لذات علة العلل - التي هي الباري جل وعز - وتعظم الكواكب وتصور بها الصور تمثلها بها وتتقرب إليها بأنواع القربان»^(١).

أما النظام الاجتماعي: فمنذ القرن الثالث قبل الميلاد فإن القانون الطبقي العنصري الذي يعرف عندهم باسم «سنوشا ستر» هو السائد وهو يقسم الناس في الهند إلى أربع طبقات:

(١) طبقة البراهمة: وهم السادة المقدسون، وتضم هذه الطبقة الكهنة وسدنة الأصنام والمعابد ورجال الدين وملوك الهند.

(٢) طبقة شتري: وتضم رجال الحرب والجنود.

(٣) طبقة ويسن: وتضم الفلاحين وأهل الصناعات والحرف والزراعة.

(٤) طبقة شودر: وهي طبقة المنبوذين الذين هم كالكلاب^(٢).

خامسًا: إذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى (الصين) ماذا نجد؟!

كانت تسود في الصين ثلاث ديانات كلها وثنية.

• ديانة لاوتسو - ديانة ملوك الصين القدماء.

• ديانة الكنفوشوس وهي ديانة الحكماء وأهل المعارف.

(١) طبقات الأمم (٥٣).

(٢) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛ لأبي الحسن الندوي (٥٥-٦١).

• الديانة البوذية التي انتقلت إلى بلاد الصين من بلاد الهند وما حولها^(١).

يقول أحد الباحثين: «فمن المعلومات التي نقلت إلينا من الوثائق التاريخية والآثار القديمة والتاريخ المسجل عرفنا الأحوال الدينية والعقائد عند قدماء الصينيين وهي تتلخص في:

(١) تأليه قوى الطبيعة وأرواح الموتى؛ فإنه حسب التسجيلات القديمة كانت عبادة الطبيعة من أقدم صور التدين عند الصينيين حيث شاهدوا القوى الغامضة في الطبيعة فبدأوا يعبدون السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من قوى الطبيعة»^(٢).

(٢) الاعتقاد بما وراء الطبيعة من الأرواح فاعتقدوا أن لكل الظواهر الطبيعية أرواحاً خفية لها سلطة جبارة، فصاروا يعبدون هذه الأرواح التي تسمى عندهم «شين» "Sheng" بمعنى الآلهة^(٣).

(٣) تأليه الملوك والعظماء وهذا كان منتشرًا فيهم مثل تأليههم «خوان دي» "Haangdi" و«لَوْتِس» "Laozi" من ملوكهم القدماء^(٤).

(٤) الكنفوشسية. وهي مدرسة فكرية فلسفية نسبة للحكيم الصيني كنفوشوس (٥٥١ - ق.م. ٤٧٦ ق.م) وأفكاره ضمنها كتابه «الحوار» وتقوم على القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية كالفضيلة والواجب والآداب والحكمة

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛ لأبي الحسن الندوي (٥٣).

(٢) العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين؛ وان شاو دون (١٠٢).

(٣) التعريف بالداوية (٤٠).

(٤) كتاب عقيدة الإلهية في الديانة الداوية؛ أيوب نور الحق دين شي رين (١٠).

والوفاء، ثم نشأت فيهم نزعة التدين بأن الهوا الملك القديم "Yao" كإله أعلى وقدسوا كنفوشيوس وأنه تلقى التعاليم من الإله الأعلى "Yao" ^(١) ^(٢).

سادسًا: حال الجاهلية المعاصرة:

• ولا تختلف الجاهلية المعاصرة عن تلك السابقة على الإسلام والتي دثرها الدين الحق وحرر الإنسان منها؛ بل إن الجاهلية الحديثة أسوأ إلحادًا وأشد افتراسًا لكرامة الإنسان وجعله عبدًا لآلهة شتى من الهوى والمال والجنس مع إحياء كل الوثنيات القديمة وترميمها، فعادت العبودية بأسوأ صورها.

يقول وليم جيمس: «لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلاً: هناك إله واحد مقدس في جلالته وعظمته بين أنقاض كل إله غيره، وكل وثن وهو الحقيقة العلمية وليس له إلا أمر واحد وقول واحد وهو أن ليس لكم أن تؤمنوا بإله» ^(٣).

ويقول الأستاذ محمد أسد: «إن الأوروبي العادي سواء عليه أكان ديمقراطيًا أم فاشيًا رأسماليًا أم بلشفيًا صانعًا أم منكرًا، يعرف دينًا إيجابيًا واحدًا هو التعبد للرفي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة أيسر فأيسر أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة»، إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم

(١) مختصر تاريخ الفلسفة الصينية؛ فون بولان (٤٩).

(٢) للمزيد من التفصيل انظر كتاب: عقيدة الألوهية في الديانة الداوية؛ لأيوب نور الحق دين شي رين ..

(٣) وليم جيمس؛ العقل والدين (٩٨).

الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران، وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بخلق جماعات متخصصة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضهم بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

أما على الجانب الثقافي: فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي^(١).

إن العلمانية الإلحادية تنتشر اليوم بشكل صارخ ويراد تعميمها على جميع المجتمعات وهي تأخذ السمات الآتية:

١- الدين الشامل للبشر هو ما يُسمى «بالدين الطبيعي» وهو يقوم على الأفكار الآتية:

أ) إن العقل البشري هو الأداة المدركة الكافية لإدراك قوانين الطبيعة والتوصل إلى حقائق الأشياء والقوى الكامنة في الطبيعة، وأن العقل يتوصل إلى ذلك دون الحاجة إلى الوحي والنبوة والكتب المقدسة. وبالتالي يتساوى العقل البشري مع الوحي والنبوة؛ بل يفوق. وإن فكرة وجود خالق للعالم يتم التوصل إليها من خلال إعمال العقل وحده والتأمل في قوانين الطبيعة وآلياتها.

يُعد «جون كين» من أهم منظري العلمانية، وهو ينطلق من منظور ربوبي، وبالإنجليزية: (Deist) وهي تعني الإيمان بالآله دون الحاجة لوحي، فيما يسمي «الدين الطبيعي» وقد تبنى «جون كين» موقف المفكر الربوبي الأميركي

(١) الإسلام على مفترق الطرق (٤٧-٤٨).

«توماس بين» الذي دعى في كتابه «عصر العقل» إلى استيعاب الدين في المجتمع، بحيث يتم الإبقاء على فكرة الآله، لكي تظل مصدرًا للأخلاق في المجتمع، مع إلغاء أي دور للدين فيما عدا ذلك^(١).

وقد لاحظ ذلك أيضًا المفكر الإنجليزي: «كولن تيرنر» في كتابه (Islamwithout Allah) وترجمتها: (إسلام بدون الله) وهي فكرة الدين الطبيعي ويكون الإسلام العملي لنشاطات الحياة إما للقانون أو النظام أو الدولة أو الفقيه والملا عند المذهب الشيعي فيما يعرف بولاية الفقيه. وهم الذين قصدهم «كولين تيرنر» بكتابه هذا^(٢).

ب) إن ثمة دينًا واحدًا طبيعيًا في كل الأديان ينتظمها ويشكل وحدة توازن وتقابل وتكامل بين الأديان. فكل العقائد يوازي بعضها بعضًا في واقع الأمر. وهذا يشكل الأرضية لكل دعاة ما يسمى وحدة الأديان أو تقارب الأديان، وحرية الاعتقاد رغم ما بين العقائد المختلفة من تضاد وتنافر؛ لكن الدين الطبيعي يوفر التوازي بينها؛ لأنهم جميعًا في النهاية يصلون إلى حقيقة مشتركة عقلية طبيعية أن للعالم خالقًا موجدًا وكلّ بعد ذلك له الحرية في تصور وتحديد هذا الخالق المبدع للعالم.

ج) إن خالق العالم تنحصر مهمته في خلق العالم ولا علاقة له بعد ذلك بالعالم ولا بشؤونه، وأن فكرة وجود إله مدبر للعالم تتحول إلى قانون مادي طبيعي كقانون الجاذبية وقوانين الحركة الآلية، وبالتالي يتم استبعاد الإله

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة؛ للدكتور عبد الوهاب المسيري (١٠٩/١).

(٢) ترجم هذا الكتاب: محمد علي عبدالساتر ونشرته دار الجمل تحت عنوان: الشيع والتحول، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

والإيمان بالغيب تمامًا من المنظومة الأخلاقية التي تحكم حياة البشر وبالتالي يكون الإنسان حرًا في الإيمان بالخالق وفي تجاهله؛ لأن الإله الخالق لا علاقة له بالدنيا ولا علاقة له بالمعرفة الأساسية.

(د) وبالتالي تسقط أهمية الغيبيات تمامًا فلا قداسة للكتب المقدسة ولا للنبوّة والأنبياء، ولا البعث بعد الموت، وقضايا الثواب والعقاب والوحي. إما خرافة لا وجود لها. وإما مجرد أساطير لتخويف العامة الجاهلاء. أما النخبة المثقفة فيمكنها الوصول إلى الحقائق والمصالح المطلقة من خلال عقلها دون وحي أو كتب منزلة أو أنبياء مرسلّة.

وإذا صدّقوا بشيء من ذلك فإنما يصدقون به كتراث وإرث شعبي قومي. قديم محنّط مجفّف في متاحف التاريخ.

(هـ) تسقط أهمية الشعائر الدينية التعبدية التي تعبر عن حاجة الإنسان إلى خالقه وربّه.

(و) تستبعد جميع القيم الدينية والإيمانية من النظريات السياسية والبرامج الاقتصادية وأنظمة الحكم وإدارة شؤون الناس تمامًا وتصبح المنفعة الطبيعية هي الهدف المحرك لكل هذا النشاط.

٢- في ظل ذلك يتم توجيه الإنسان وعلمته وإخضاعه وسلبه إنسانيته وكرامته. وتعيده لشهوته ونزوته وثروته ودولته. وتصبح هذه كلها آلهة تُخضع الإنسان وتسلبه كل شيء ويقع الإنسان في عبوديتها الذليلة المهينة. والغريب أن يتم كل هذا باسم الحرية والانعقاد.

إذا كان الجاهليون القدماء قد رفضوا العبودية للإله الحق ربهم وخالقهم الله



رب العالمين واتخذوا من دونه آلهة شتى في صور أصنام وأوثان وأحجار وغير ذلك.

فإن الجاهليين في العالم الحديث ومن خلال العلمانية والدين الطبيعي يرفضون ويكل شراسة وصلف ألوهية الله رب العالمين وهيمنة شريعته وحكمه على حياتهم. باسم الحرية والانتعاق. ولكنهم يقعون في تأليه غيره وعبودية مهينة لغيره.

٣- يتم إخضاع الإنسان لحكم الدولة المطلقة والهيمنة المطلقة للدول الكبرى التي ترشده وتخضعه لها ولأحكامها، ويتم إخضاعه لسياسة السوق وشهوة المال.

ومن هنا ظهرت الدولة المطلقة كإله من دون الله يخضع لها كل شيء الأرض والاقتصاد. والإنسان. وهي مرجعية عليا. وسلطة كبرى تدعو بالحرف الواحد إلى ما دعى إليه فرعون من قبل: ﴿قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، التي تشعر بالفوقية والعلو، والأحقية بتحديد مصير البشر، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] باستبعاد ألوهية الله تعالى، تمامًا، وإخضاع البشر لألوهيته والتوجه والتذلل إليه.

إن ألوهية «الدولة المطلقة»، وألوهية سياسة السوق النفعية هي أصنام هذا العصر. وآلهة هذا العالم المصطنعة، التي تستذل الإنسان وتستعبده بأحط وأسوأ الصور التي تفقده آدميته وإنسانيته، وتحول الإنسان إلى رقم أو مسمار في آلة أو قطعة غيار لخدمة الدولة المطلقة ومصالحها، وإذا لم يفعل أو تمرد يتم استبعاده والتخلص منه بكل سهولة.

- يحدد «ميكافيللي» (١٤٩٦-١٥٢٧) أن القائد «الأمير» مطلق القدرة مثله



على الأرض مثل الآلهة في السماء على حد قوله وهمّة مبدأ سلامة الدولة ومصالحها العليا وأنه عليه أن يضحى في سبيل ذلك بكل شيء البشر والقيم والأخلاق^(١).

- ويقرر «هوبز» أن وجود الدولة المطلقة حتمية باعتبار الإنسان كائن طبيعي مادي، والعقل مادة والحب والكره والعواطف حركات آلية، وأنه عنصر ضمن مجموع وعلاقته بالمجتمع علاقة جذب ومقاومة، لذلك لا بد لكل إنسان طبيعي التنازل عن جزء من حريته المطلقة لصالح المجموع، وهذا التعاقد الآلي المادي هو القاعدة التي تقوم عليها الدولة. لذلك لا بد أن يخضع الجميع لها. فالدولة عند «هوبز» هي كل شيء فلا يكون فيها حرية للرأي ولا للضمير وتصبح الدولة هي المرجعية النهائية لكل شيء ويصبح الرئيس أو القائد تتمثل في شخصيته الدولة كلها وتكون إرادته وأوامره هي القانون النافذ؛ بل أله «هوبز» الدولة المطلقة صراحة عندما قال: «إنها آله زماني ومرتبطة بالإله الخالد»^(٢).

ثم جاء «أسينوزا» فكرس ذلك، فقرر أن الأفراد في ظل الدين الطبيعي يتنازلون عن رغباتهم وحقوقهم لصالح هيئة حاكمة عليها^(٣).

٤- فالدولة المطلقة في كل مجتمع تأخذ السمات الآتية:

- الدولة المطلقة تستند إلى القانون الطبيعي وهو قانون منفصل عن أي منطلقات دينية أو عقائد دينية أو أخلاقية أو إنسانية.

(١) كتاب الأمير (١٤٤).

(٢) توماس هوبز: كتاب التتين نقلًا عن موسوعة أعلام الفلسفة (٥٤٩/٢).

(٣) نقلًا عن كتاب العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة للدكتور عبد الوهاب المسيري (٧٧-٧٦/٢).

- الدولة المطلقة هي المرجعية النهائية منها يأخذ كل شيء شرعيته ووجوده وإليها تصب كل نتائج النشاطات والجهود البشرية الخاضعة لها .

- الدولة المطلقة شمولية تغطي نشاطاتها وسيطرتها كل شيء بما في ذلك الدين والأخلاق والفرد نفسه وهي وحدها مصدر القيم التي تحدد ما هو الصالح للفرد والمجتمع .

- الدولة المطلقة مهيمنة ومتغولة تتضخم وتفوق سلطاتها ويطشها أي شيء ولا ترجع إلى أي مرجع ديني أو أخلاقي أو ضميري، إنما ألهتها القائد ودينها المصلحة العليا للدولة .

- في الدولة المطلقة تصبح مشكلة الإنسان ليس فصل الدين عن الدولة وإنما هيمنة الدولة على كل شيء حتى الدين والفرد ذاته، إنه بعبارة صريحة تصبح الدولة والقائد والملك أكلة يخضع لها . وتعبد ويدين لها الأفراد بالولاء الكامل . من دون الله رب العالمين؛ إنها العبودية المهيمنة من جديد يسقط فيها الإنسان بكل بلاهة وغباء عندما يرفض العبودية لله خالقه والخضوع لدينه وشرعه . هكذا يقرر أصحاب الدين الوضعي هذا الأمر^(١) .

٥- الوسائل:

تسلط الدولة المطلقة في عالم اليوم لإخضاع الناس لها . وحدها عدة وسائل:

الوسيلة الأولى: تهميش وإضعاف وتفتيت أي شيء من شأنه إضعاف ولاء المواطن للدولة، كالدين والأسرة والقبيلة . فالدين تتعامل الدولة المطلقة في

(١) المصدر السابق .

عالم اليوم معه بالوجوه الآتية :

الوجه الأول: محاربته ونفيه وحصره داخل النفس بدون أثر خارجي . وإلغاء
أوحدية الحق . وامتلاك الحقيقة . ولم يعد المهم ما يعتقد الإنسان وما هو
انتماؤه الديني ، وما هو سلوكه الشخصي . المهم هو مدى ولائه للدولة المطلقة
والوطن ومدى نفعه لها .

الوجه الثاني: ترميم واستدعاء المذاهب والطوائف التي تخدم هذا التوجه .
فالإرجاء مثلاً هو الضالة المنشودة؛ لأن الإرجاء يكرس هذا الانقسام . ويسهل
تقبل كل فعل لكل قول . ولو كان نقضاً للدين ورفضاً له على أساس أن الأرجاء
يحصر ويكرس كل أو أغلب النشاط الديني داخل النفس . فهو قناعة فحسب .
ولو كان العمل والأثر بعيداً عنها ، ثم لا نقض ولا تخطئة ولا تجريم لأي سلوك
وفعل ؛ لا من النخب ولا من الأفراد ؛ لأن التخطئة والتجريم إنما تتعلق فقط
بمضمرات القلوب ودواخل النفوس فحسب ولا طريق لأحد عليها ولا سبيل
لأحد بمعرفتها ، وقديماً قال أحد الأئمة وهو النضر بن شميل : «الإرجاء دين
الملوك» . أما الأفعال والأقوال التي تمس القائد والحاكم والملك والأمير . أو
تتعارض مع قانون الدولة المطلقة أو تأثر في هيمنتها فهي الجريمة الكبرى
والخيانة العظمى التي حكمها في قانون الدولة المطلقة أشد العقوبات وسلب
كل الحقوق . والإعدام هو المصير المنتظر . ويتم ذلك بتقبل تام من النخب
والأفراد وربما من المؤسسات الدينية التي هي في الدولة المطلقة جهاز من
أجهزتها^(١) .

ومن ذلك أيضاً دعم وترويج التوجهات الصوفية واستدعائها . وإبراز رموزها

(١) المصدر السابق .

قديمًا وحديثًا. لما للتصوف من أثر في عزل الدين وتحويله إلى طقوس وشعائر وخرافات؛ ولكون الصوفي يشعر بأن له انتماء دينيًا بينما هو يتقبل كل شيء وأي شيء أقصى درجات الخرافة وأسوأ أنواع الإباحية. فهو علمانية بل عليها يزيد. يقول «دانيال بايبس» رئيس منتدى الشرق الأوسط للأبحاث بالولايات المتحدة: «إن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة وإقصائه نهائيًا عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة»^(١).

ويقول «ستيفن شوارتز»: «من الواضح جدًا أن على الأمريكيين أن يتعلموا المزيد عن الصوفية وأن يتعاملوا مع شيوخها ومريديها وأن يتعرفوا على ميولها الأساسية، يجب على أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من بريشتينا في كوسوفو إلى كشمير في غرب الصين، ومن فاس في المغرب إلى عاصمة أندونيسيا جاكارتا أن يضعوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية، يجب أن يتتبع الطلاب الأمريكيون ورجال الأعمال وعمّال الإغاثة والسائحون فرص التعرف على الصوفيين والأهم من ذلك أن أي شخص داخل أو خارج الحكومة يشغل موقعًا يسمح له بالتأثير على مناقشة ورسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط يمكنه أن يستفيد من فهم هذا التقليد الفطري من التسامح الإسلامي»^(٢).

ويقول المستشرق نيكولسن: «من المعروف جيدًا أن مذاهب الصوفية

(١) نقلًا من صحيفة الزمان عدد (١٦٣٣) في ٢/١٠/٢٠٠٣م.

(٢) مجلة ويكلي ستاندرد ٧/٢/٢٠٠٥م.

المسلمين وتأملاتهم أثرت في الإسلام تأثيراً قوياً، وإلى حد ما فإنها توفر أرضاً مشتركة يمكن أن يلتقي فيها أناس من ديانات مختلفة مع بقائهم مخلصين للديانة التي يؤمن بها كل واحد منهم، يلتفون بروح التسامح والتفاهم المتبادل»^(١).

وفي دراسة جادة للأستاذ: «فريد الدين آيدن» عن النقشبندية. يقول فيها: «إن استغلال السلطة للنقشبنديين كان الهدف منه ترويضهم على السير طبقاً للقواعد المرسومة لهم، وعلى الطاعة العمياء في الخطوة الأولى، فاستخدمتهم بصورة فعلية في خلق جو مطلوب لإذابة الجموع المضادة للزمرة الحاكمة في بوتقة العلمنة والإلحاد كمرحلة ثانية وترسيخ قواعد الرأسمالية ضد المستضعفين، وسد الانتباه ضد الصحوة الإسلامية التي بدأت منذ سنين تنتشر في أنحاء العالم كخطوة ثالثة»^(٢).

إذن مهمة الصوفية في هذه المرحلة ذات أبعاد ثلاث:

البعد الأول: تكريس هيمنة «الدولة المطلقة» والطاعة العمياء لها. وبمعنى آخر: تأليهها وجعلها في مقام الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، تعالى الله رب العالمين.

والبعد الثاني: المساهمة الجادة في إشاعة العلمانية والإلحاد. وما يتبع ذلك من إباحية وفساد خلقي عريض. وإشاعة نظام السوق الاستهلاكي لتمكين النظام الاستغلالي الرأسمالي ضد المسحوقين البؤساء.

والبعد الثالث: سد الطريق ضد أي حركة أو دعوة من شأنها إيقاظ الناس وإعادتهم إلى حقيقة الدين. والتعبد لرب العالمين. والعمل بشريعته عن طريق

(١) انظر موسوعة المستشرقين (٤١٦).

(٢) النقشبندية بين ماضيها وحاضرها (٢٨٤).

إشاعة هذا النظام الوسيط ذي المسحة والقلب الديني. والمفرغ تمامًا من المضامين الدينية الذي هو «الصوفية».

ويواصل الأستاذ فريد الدين آيدن بحثه ذاكرًا النتيجة والأهداف التي يراد الوصول إليها في الأمة المسلمة: «فقد تحققت هذه الأهداف إلى حدود بعيدة؛ فإن كثيرًا من الناس الذين ما زالوا يعتزون بالإسلام، ويهتفون باسمه، تغيرت المفاهيم القرآنية في عقليتهم واتخذت صورة أخرى غريبة والتبس عليهم الحق بالباطل، وأصبح الإسلام في اعتقادهم عبارة عن سلسلة من حكايات الصالحين، وحفلات المولد النبوي، وزيارة القبور، وتعظيم الموتى والاستشفاع بهم، فإن خلاصة ما يُعرَف من مفهوم الإسلام اليوم في معتقد العامة، أنه لا يعدو عن علاقة شخصية للعبد بمعبوده فحسب، دون أي شيء آخر من علاقاته ونشاطاته وأفعاله مع بني جنسه في بقية مجالات الحياة»^(١).

الوجه الثالث: الهيمنة على الدين من قبل الدولة المطلقة لاستخدامه في تكريس شرعيتها. وما يُسمَح به من هياكل ومؤسسات دينية ومناصب دينية إنما يستمد وجوده وشرعيته وقوته من وجود وقوة الدولة المطلقة لا من الدين ذاته.

الوجه الرابع: إحلال شعائر شبه دينية تكرس الملوك والقادة وهيمنة الدولة المطلقة والدينونة لها بالولاء الكامل. مثل إجلال العَلَم وعدم جعله يلامس الأرض، والوقوف بصمت وإجلال عند رفعه. وترديد الأناشيد الوطنية والوقوف حال ذلك وتقدير التراب الوطني.

الوسيلة الثانية: استخدام أجهزة الإعلام والمؤسسات التربوية والثقافية التي

(١) المصدر السابق.

تقوم بتدجين الفرد والمواطن من الداخل والخارج ليصبح مبرمجاً على الخضوع التام للدولة المطلقة والولاء التام لها. ويصبح عنده استجابة عاطفية غير دينية ولا علاقة لها بأي أهداف ومنطلقات إنسانية مثل: «مصلحة الدولة العليا»، و«هبة النظام»، و «التراب الوطني»، و «الحاكم الملهم»، لتصبح الدولة هي القيمة العليا التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

الوسيلة الثالثة^(١): في كل دولة مطلقة توجد نخبة حاكمة يتم تحديد المصلحة العليا للوطن على ما تتصوره وهي التي تبني الاستراتيجيات العامة للدولة المطلقة، والمفترض فيها أن تكون توجهاتها وطنية محضة، ولكن لكي تتم سيطرة القوى العظمى الغربية خاصة على دول العالم الثالث ومقدرات شعوبها؛ بل وثقافة تلك الشعوب وأديانها. بما فيها؛ بل وعلى رأسها الإسلام والمسلمون؛ فإن القوى العالمية تسيطر على النخب الحاكمة وتخرقها وتفرقها في الفساد حتى تُسهّل تلك النخبة للقوى العظمى أنظمة الحكم في بلدانهم من خلال نفوذهم في جهاز الحكم واختراق الشعوب وتفكيكها.

يقول المؤرخ الأمريكي الشهير زيجنيو بريجينسكي: «يدير العالم اليوم نخب غير قطريين يتكونون من ساسة، ورجال أعمال، وعلماء ومهنيين وموظفين عاقمين أما الروابط بين هذه النخب فإنها تتخطى صبغتها القومية والوطنية حيث أصبحت مصالحهم تحمل صبغة المصالح الذاتية أكثر من كونها وطنية»^(٢).

إن هذا الإفساد للنخب الحاكمة يتم بعدة صور ووسائل:

(١) انظر كتاب امبراطورية الشر الجديدة؛ د. عبد الحي زلوم (٣٨٢-٣٨٤). وكتاب العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. د. عبد الوهاب المسيري (٨٧-٩١).

(٢) كتاب ما بين عصرين (٢٧٩).

• تدويل تلك النخب السياسية والثقافية وربما أيضًا الدينية وجعلها مرتبطة بالسوق العالمية والشركات العابرة للقارات وثقافة الفضائيات العالمية.

• إفساد تلك النخب السياسية والثقافية والدينية عن طريق إغراقها في الثراء الفاحش من خلال حلب ثروات الوطن واستغلال الشعوب بينما يزرع غالبية تلك الشعوب في فقر متفاوت درجاته. ويتم ذلك أيضًا عبر العملات الضخمة والرشاوى الهائلة وصفقات السلاح العديمة الفائدة والتوكيلات والدعايات ولعبة الأسهم والشركات الوهمية التي تحقق لتلك النخب أرباحًا خيالية. ويتم غسل جميع الأموال التي في أيدي الناس عبر تلك العمليات. وما لعبة الأسهم التي يشارك الخطاب الديني فيها إلا نموذجًا صارخًا لذلك. إذ تتبرخ في لحظة واحدة مليارات الدولارات. ولا يدري أحد أين ذهبت.

• تقوم النخب السياسية والثقافية والدينية بإشاعة خطاب فلسفي سياسي وثقافي وديني لكنه دولي، هذا الخطاب ذا طابع عقلاني مستنير لكنه تدجيني استسلامي. خطاب يصف نفسه بالواقعية والوسطية والمرونة. وعدم نفي الآخر. والإفادة من أديان وثقافات الشعوب الأخرى، خطاب يفقد إحساسه بخصوصيته وتاريخه؛ بل وكونه يستند إلى الحق المتمثل في دين الله الحق الإسلام. خطاب يطلب منا أن نعترف بتقسيم الحقيقة بين الأديان غير الإسلام. ونسقط العداوة ونعترف بالعدو ونتقبل الباطل لذلك تكثر في هذه الأثناء المؤتمرات التي تقرب بين الأديان والثقافات، وتذيب الخصوصيات الدينية والثقافية، وتصحح أديان اليهود والنصارى والوثنيين، وتفتت الحق الثابت في الإسلام باعتباره دين الله الحق الذي لا يقبل الله غيره، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

هذا الجهد كله يخرج إنسانًا ومواطنًا ليس عبدًا لله خالقه وربّه. لا يعبد إلا إياه ولا يعظم إلا خالقه ولا سلطان على قلبه وروحه وعقله إلا سلطان الله وشرعه وحكمه، وإنما إنسان نفعي يعظم المتعة واللذة، الهدف الأكبر عنده تحقيق نفعه الشخصي، إنسان اقتصادي تتحكم فيه ثقافة الاستهلاك والسوق، إنسان تذوّب فرديته وإنسانيته بل وحرّيته الحقيقية في آليات السياسة للدولة المطلقة. وآليات اقتصاد السوق.

إنسان موضوعي مستعد لتغيير ثوابته الدينية؛ بل ربما بلا ثوابت ويساهم الخطاب الديني المدجن والموجه في تذوّب ثوابته الدينية. وإحداث الاستعداد لدى هذا الإنسان ليكون مرناً واقعياً يستطيع أن يعيد بناء شخصيته لتواكب التطور ولو على حساب قيمه ودينه.

وبهذا يتم استهلاك هذا الإنسان وتدمير ثوابته وإلغاء خصائصه. وبعبارة واضحة استعباده لسلطة الدولة المطلقة. ومصالحها العليا. ولحاجات السوق الاقتصادية والاستهلاكية. ولثقافة الفضائيات والصحف. وكل ذلك على حساب حرّيته الحقيقية التي هي عبوديته الخالصة لربه وخالقه الله رب العالمين. ولأن الإسلام بعقائده التوحيدية الصافية. وشرائعه الكريمة المكّمة للإنسان، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِّنَ الْأَطْنِيبِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وبمصادرة اليقينية الثابتة الممتنعة على التبديل والتحريف. هو الدين الحق الوحيد في العالم اليوم. وهو المخلص الحق الوحيد في العالم اليوم لبني الإنسان من كل هذه العبوديات المهينة؛ فإن الجميع سوف يحاربه ويواجهه ويحارب كل من يدعو إليه ويعمل به.

لقد أعلنها الجميع حرباً على الإسلام كل من جهته وعلى طريقته؛ لأن الإسلام بحقائقه الثابتة الراسخة وفطريته الصافية هو الإعلان الحق الوحيد اليوم لحقوق الإنسان، وهو الطريق الوحيد لحرية ليتخلص هذا الإنسان المدجن المعلمن من كل هذه العبوديات المهينة لكرامته وآدميته المسخرة له لسلطان السوق والاستهلاك وسلطة الدولة المطلقة. ويتوجه للحرية الصادقة والقيمة العليا بتعبده لله رب العالمين. وهيمنة شريعته الكريمة عليه.

• أمام حشد وجمع كبير في لندن ألقى هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق محاضرة بتاريخ ٣١/١٠/٢٠٠١م وقال: إن السلام مع الإسلام مستحيل، وإن الحرب ضد الإرهاب يجب أن تستخدم كفرصة لإعادة تشكيل النظام العالمي الجديد. وإن هناك اختلافاً أساسياً مع الإسلام قد لا يفهمه حتى الآن سوى بريطانيا وأمريكا^(١).

ويقول صامويل هنتغتون: «إن المشكلة بالنسبة للغرب ليست في التطرف الإسلامي؛ بل في الإسلام كطريقة مختلفة للحياة اقتنع المسلمون بسموها وتفوقها على غيرها»^(٢).

ويقول: «الصراع كان من ناحية نتاج اختلاف، وعلى وجه الخصوص رؤية المسلمين لدينهم على أنه وسيلة للسمو والارتقاء وتوحد الدين والسياسة»^(٣). ويخلص هنتغتون إلى: «أن الصراع بين الإسلام والغرب هو أمر مفروغ منه فطالما بقي الإسلام هو الإسلام - وهو ما سيحدث - والغرب هو الغرب - وهذا

(١) المصدر كتاب امبراطورية الشر الجديدة؛ د. عبد الحي يحي زلوم (٥٦).

(٢) صراع الحضارات (١١٧).

(٣) المصدر السابق (١٢٩).



أمر مشكوك فيه - فإن الصراع الرئيس بين حضارتين عظيمتين وطريقتين مختلفتين في الحياة سيبقى يميز العلاقة بينهما في المستقبل»^(١).

وتقول كارين آرمسترونغ: «يبدو الآن أن الحرب الباردة ضد الإسلام ستحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ويربط المسلمون اليوم الإمبريالية الغربية والحملات التبشيرية المسيحية بالصليبيين. وهم ليسوا على خطأ فيما ذهبوا إليه»^(٢).

ولكن هذه الحرب لم تعد باردة؛ بل هي ساخنة وسافرة وتدميرية أيضًا. يعترف صموئيل هنتغتون بذلك فيقول: «تورطت الولايات المتحدة خلال السنوات الخمس عشرة بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٥ طبقًا لتقارير من وزارة الدفاع الأمريكية في سبع عشرة عملية عسكرية في الشرق الأوسط كانت كلها موجهة ضد المسلمين مباشرة. ولم تحدث أية عمليات من هذا القبيل إطلاقًا من قبل القوات العسكرية الأمريكية ضد أي شعب أو حضارة أخرى»^(٣).

هذا قبل شن الولايات المتحدة لحربها المدمرتين لأفغانستان. المسلمة. والعراق المسلمة. ودمرتهم تدميرًا ؛ بل قد صرح السكرتير العام لحلف شمال الأطلسي (الناتو) عام ١٩٩٥ م بـ «أن الإسلام السياسي كان خطرًا بمقدار خطورة الشيوعية على الغرب»^(٤).

بل إن الغرب يستعيد كل أحقاد الماضي ويصنفون أنفسهم أعداء بامتياز

(١) المصدر السابق (١٣٠).

(٢) كتاب الإسلام (٦١).

(٣) صراع الحضارات (٢٧٧).

(٤) انظر كتاب امبراطورية الشر الجديدة (٣٩٤).

للإسلام، بعد سقوط غرناطة المسلمة عام ١٤٩٢م انطلق «كرستفر كُلمبس» ومعه تسعون بحارًا على ثلاث سفن لاكتشاف العالم الجديد، وعكس كلمبس العنصر الديني المسيحي المعادي للإسلام والمسلمين، بحقد مستعر، ففي مفكرته عن رحلته الأولى بتاريخ ٣ آب ١٤٩٢م استهل كلمبس مفكرته بهذه العبارة «باسم إلهنا يسوع المسيح»، ثم قال: إن سموكم كاثوليكين ومسيحيين وأمرأء أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع، وكأعداء لملة محمد (Maomet) وكل الوثنيين والهراطقة والذين ارتأوا أن من المناسب أن يرسلوني أنا كرسفر كلمبس إلى الأجزاء المسماة بالإنديز للنظر في الطريقة الممكنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة»^(١).

وحتى لا يقال إن هذه أمور قديمة ومضت، وأن العالم خصوصًا الغرب قد تغير، فقد أصدر الكتاب والباحث الأمريكي «اليهودي» الشهير «توماس فردمان» كتابًا بعنوان «العالم مسطحًا»، التاريخ الملخص للقرن ٢١، اختار فردمان أن يضع مقدمة كتابه هذا ما كتبه «كرستفر كلمبس» في مذكرته الأولى الآتفة الذكر «يا صاحب السمو كاثوليكين وأمرأء، أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع وكأعداء لملة محمد، وكل الوثنيين والهراطقة...»^(٢).

إذن هي الحرب القديمة الحديثة. على الإسلام؛ لأنه هو الدين الحق؛ ولأنه هو سبيل البشر للتحرر من العبودية المهينة ولتبقى الشعوب في العالم غافلة مسحوقة. ولتبقى الدول الاستعمارية والقوى الكبرى والشركات الكبرى

(١) المصدر: كتاب الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب: مايكل بْرِيز. ترجمة أحمد الجمل وزيايد منى (ص ٨١).

(٢) توماس فردمان: العالم مسطحًا (٤) النسخة العربية.

وبارونات الربا تحصد دماء وعرق وجهه هذه الشعوب الغافلة المسحوقة.

لما كان يوم القادسية العظيم سنة (١٤) هـ ووقفت جنود الله المسلمة لتحرير العباد. جرت مفاوضات مع القادة الفرس، وسأل القائد الفارسي «رستم» الجندي المسلم المجاهد «ربيعي بن عامر» عليه السلام فقال له: ما الذي جاء بك؟ فكان جوابه: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»^(١).

أما الغرب فهو يقيم الحروب وينشئها لمصلحته الاستعمارية الخاصة. إنه فعلاً أحادي النظرة والتزوة. إنه أناني. إنه يصنف كل من لا يحقق له مصلحته أنه بالضرورة شرير ويستحق القتل والإبادة.

في سنة ١٧٨٣ وقف الملك البريطاني «جورج الثالث» وقال: «إن كل من يخالفني فهو خائن ووغد وسافل».

واليوم في سنة ٢٠٠١م يقف الرئيس الأمريكي «جورج دبليو بوش» يقول للعالم كله: «من لم يكن معي فهو ضدي»، ويروج هو وطاقم إدارته لفكرة محور الشر ويضع في هذا المحور كل من لم يحقق المصلحة الأمريكية والإسرائيلية كما يراها هو، وصدق الله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْهَرَارِ فَإِنَّا فِيهِ قُلٌّ فَإِنَّا فِيهِ كِبِيرٌ وَمَصْدُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ. وَالْمَسْجِدَ الْهَرَارِ وَإِنَّا فِيهِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَبِمَتِ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) ذكر ذلك الإمام الطبري في التاريخ؛ حوادث سنة ١٤هـ (٤٠١/٢).

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩].

ومن هذا كله يظهر بجلاء أن الإسلام بعقائده الراسخة ومصادره الصادقة وأحكامه العادلة هو الإعلان الوحيد والطريق الوحيد لتحرير الإنسان وتحقيقه أعلى معدلات الحرية الحققة.



الفصل الثالث

الجرية وحفظ النفس

بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

الحرية وحفظ النفس

بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

أولاً: قيمة النفس وحفظها في الشرع الإسلامي:

النفس الإنسانية قيمة ثمينة؛ بل هي أئمن موجودات هذا العالم. وأكرم مخلوقات الله الخالق العظيم.

وتظهر قيمة هذه النفس الإنسانية وتكريمها عند الله خالقها في الأمور الآتية:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

• كرمهم الله بالعقل وبالنطق وبالتعديل القامة وتجميلها، وبالمطاعم والمشارب والملذات، وبحسن الصورة وبتسخير جميع المخلوقات الأخرى لهم.

وأجمع علماء الإسلام أن جسد الآدمي طاهر وشعره وعرقه.

واستدل الشافعي بهذه الآية على أن جسد الآدمي لا ينجس بالموت^(١).

• كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرمه بخلقته على تلك الهيئة. كرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض. كرمه بالاستعدادات العقلية

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/١١٥)، والقرطبي (١٠/١٩٠-١٩١)، وروح المعاني للألوسي

والنفسية والبدنية التي عمر بها الأرض يغيّر فيها وينتج وينشئ. ويركب ويحلل. ثم كرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملائكة الأعلى إلى هذه الأرض، الدار التي عمرها الإنسان^(١).

٢- كرم الله بني آدم بأن خلق عنصرهم الأول أباهم آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الكرام المقربين.

وقد نص القرآن على هذا التبجيل والتكريم لأبينا آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ﴾ [سورة ص: ٧١-٧٣].

٣- كرم الله الخالق العظيم هذا المخلوق البشري «الإنسان» بالفطرة السليمة. العارفة بخالقها. العالمة بربها. التي لولا العوارض والصوارف لما عبدت إلا الله خالقها ومسويها. وربها ومولاها.

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيتَ لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسر جماعات العلماء أهل التفسير من السلف الفطرة هنا بالإسلام، أي أن الله فطر الناس من أصل خلقتهم مسلمين له مؤمنين. لولا ما يعرض لهذه

(١) في ظلال القرآن؛ سيد قطب (٤/ ٢٢٤١) بتصرف.



النفس من عوارض ويصرفها عن دينها من صوارف لما عبدت إلا الله تعالى، وهذه هي حقيقة الإسلام^(١).

وهذا قول الصحابة كأبي هريرة والتابعين، ومن بعدهم: كابن زيد ومجاهد وعكرمة وغيرهم. وقد دل الحديث الصحيح على ذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها». قال أبو هريرة: وقرأوا إن شئتم ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِلُ لِيَخْلُقِ اللَّهُ﴾^(٢).

وكلمة «فطرة» في الآية منصوبة بالفتحة عند جميع القراء.

ووجه نصبها على قولين:

القول الأول: أنها منصوبة على أنها مفعول به بتقدير فعل اتبع أو الزم، فيكون المعنى: اتبع فطرة الله. وهذا قول الزجاج^(٣).

والقول الثاني: أنها منصوبة على المصدر، فيكون المعنى: فطر الله الناس على ذلك فطرة، وهذا قول الطبري^(٤).

والرسل ﷺ جاءوا بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها. وتقويته، وإمداده ونفي المغير للفطرة. فالرسل ﷺ بعثوا بتقرير الفطرة وتكملها، لا بتغيير الفطرة

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٣/١٠-١٨٥)، والقرطبي (٨/١٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) معاني القرآن (٤/١٨٤).

(٤) تفسير الطبري (١٨٣/١٠).

وتحويلها، والكمال يحصل للفطرة المكملة بالشرعية المنزلة^(١).

٤- كرم الله تعالى الإنسان بالعلم وميزه حتى على الملائكة. وجعل ذلك هو مقوم استخلاف الإنسان في هذه الأرض.

وقد ذكر الله تعالى ذلك مفصلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَلَمُوا غَدَاةً غَبِيبَةً فَلَنَاجُواهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَتْ أَلَمْ نَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالْأَرْضَ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

يقول الحافظ العماد ابن كثير: «يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتوبيه بذكرهم في الملاء الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾»^(٢).

وقال أيضًا: «هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وإنما قدم هذا على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم»^(٣).

(١) انظر (٣٤٨/١٦) من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٩/١).

(٣) المصدر السابق (٧٣/١).

وقال تعالى أيضًا: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

هذه الآيات الجليلات. أول ما نزل من الوحي الكريم على رسول الله محمد ﷺ وفيها من تكريم الإنسان وتشريفه أمور جلية:

أ- فيها بيان أن الله العظيم الخالق هو الذي برأ هذا الإنسان وكونه وأنشأه وطوره، ونقله في خلقته من العلقه المهينة إلى الصورة الحسنة، والخلقة التامة.

ب- أنه كرم الإنسان بالعلم ورفع به، بأن خلق فيه أدوات التعلم والفهم من السمع والبصر والعقل والحواس، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فجعله عليمًا. والعليم لا يكون إلا حيًا. وكرمه أيضًا بأن يكون قديرًا سميعًا، بصيرًا. والأكرم الذي جعل غيره عليمًا هو أولى أن يكون عليمًا. وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد^(١).

ج) علم الإنسان بأن أوجد له أدوات الكتابة والتعلم ووسائلها ومن أشرفها وأجلها القلم. فالباء في قوله (بالقلم) باء السبب، أي: القلم سبب ووسيلة للعلم والتعليم وكتابة العلوم، وحفظها في المدونات.

ولذلك أقسم الله بالقلم لشرفه وعظيم مهنته وفائدته، فقال تعالى: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْطَرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِعَيْنِ رَبِّكَ يَمْحُونَ ۝﴾ [القلم: ١-٢].

والقلم هنا: المراد به قلم التقدير الأول: الذي سطر الله به مقادير كل شيء

(١) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/٣٦١).

قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». رواه مسلم^(١).

وهو اسم جنس يدل على أقلام كثيرة، ليس قلماً واحداً، كما في الحديث الصحيح: «رفعت الأقلام»^(٢)، فإذا كان الله تعالى كتب من علمه المحيط بالخلق بالقلم دل على شرف القلم. وشرف كتابة العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أَفَسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ بِهِ يَكُونُ الْكِتَابُ السَّاطِرُ لِلْكَلَامِ: الْمُتَضَمِّنُ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَأَلْفَسَامُ وَقَعَ بِقَلَمِ التَّقْدِيرِ وَمَسْطُورِهِ فَتَضَمَّنَ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ تَنَاسَبَ الْمُقَسَمِ عَلَيْهِ.

أَحَدَهُمَا: الْإِحَاطَةُ بِالْحَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ بِالشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ أَبْلَغُ مِمَّنْ عَلِمَهُ بَعْدَ كَوْنِهِ فَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَحْكَمُ وَأَصْدَقُ.

الثاني: أَنَّ حُصُولَهُ فِي الْكِتَابَةِ وَالتَّقْدِيرِ يَتَضَمَّنُ حُصُولَهُ فِي الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَالْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ فَإِفْسَامُهُ بِآخِرِ الْمَرَاتِبِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ أَوَّلَهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ وَذَلِكَ غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ إِذَا صَارَ مَكْتُوبًا. فَلَيْسَ كُلُّ مَعْلُومٍ مَقُولًا وَلَا كُلُّ مَقُولٍ مَكْتُوبًا وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ حِكْمَةَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْقَدْرِ السَّابِقِ بِالْكِتَابِ دُونَ الْكَلَامِ فَقَطْ أَوْ دُونَ الْعِلْمِ فَقَطْ»^(٣).

(١) مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦) وصححه.

(٣) مجموع الفتاوى (٦٢/١٦).

(د) أنه تعالى علم الإنسان ما لم يعلم؛ وذلك يكون بطريقتين:
طريق الحس والمشاهدة واستحثاث العقل للوصول إلى المعارف من كتاب
الكون الفسيح الهائل.

والطريق الثاني: تعليم الإنسان ما لم يعلم ولا يمكن أن يعلمه لا بحس ولا
بعقل وهو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه من أنواع العلم العظيم من علوم الغيب
العظيمة ومن علوم التشريع التي بهما صلاح النفوس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «والتَّعْلِيمُ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ مَا أَنْزَلَهُ كَمَا قَالَ:
﴿الَّذِينَ عَلَّمُوا الْقُرْآنَ﴾ ❶ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ❷ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ❸ وَقَوْلُهُ ﴿بِالْقَلَمِ﴾
يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ كَلَامِهِ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ. وَنُزُولُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي أَنْزَلَ فِيهَا
كَلَامَهُ وَعَلَّمَ نَبِيَّهٗ كَلَامَهُ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ دَلِيلٌ عَلَى شُمُولِ الْآيَةِ لِذَلِكَ»^(١).
ودلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية»^(٢).

لذلك استحثت النفس الإنسانية الحفظ والصيانة من كل ما يندسها ويفسد
فطرتها من الشرك والكفر والفجور والآثام.

ويتمثل حفظ وصيانة النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي في الأمور الآتية:

الأمر الأول:

حفظها مما يفسدها ويخبثها. ويدنسها. ويجعلها مظلمة شريرة. والنفس
البشرية إنما يفسدها أعظم الإفساد ويخبثها أعظم الخبث الشرك بربها، والكفر
بخالقها وما يجر ذلك من العمل السيئ الفاسد الخبيث. الذي تظلم به النفوس.

(١) المصدر السابق (١٦/٣٦٤).

(٢) المصدر السابق (١٦/٣٦٢).

وتنقلب إلى وحوش لا تعرف إلا شهوتها ولا تحقق إلا نزوتها.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «قد أفلح من زكى الله نفسه، فكثرت تطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال»^(١).

فبالإيمان والعمل الصالح: تزكوا النفوس البشرية وتسمو وتشرق وترتفع وتصفو وتصبح خيرة طاهرة زكية نقية. تنتج الخير والإحسان والمعروف؛ فإذا تطهرت وزكت وسمت بالإيمان والعلم بالله وعبادته والعمل الصالح أصبحت هذه النفس الإنسانية من جنس نفوس الملائكة الشريفة؛ بل ربما أفضل، فاستحققت أن تنزل عليها الملائكة وتبتهلها. وتخالطها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٢٥ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٢٦ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ۝٢٧ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٣].

ويصبح المؤمنون الصالحون أكمل حالاً ومالاً باعتبار كمال ما انتهوا إليه من الملائكة الكرام. وإن كان الملائكة أفضل باعتبار كمال ما هم عليه الآن. في منازلهم في الملكوت الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم من الأحوال والشهوات^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٢/٦٠٣).

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/٣٤٣).

أما إن كفر بنو آدم وعبدوا غير خالقهم تعالى وعملوا السيئات. فتظلم نفوسهم وتقسوا قلوبهم. وينحطون في أحط الدرجات وأخبث المنازل. حتى أنهم يكونون في حكم خالقهم أحط من البهائم. منزلة. وأضل من الأنعام سبيلاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَافَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَ لَّعْنَةٍ بَلَّ لَهُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَآلَ لَّعْنَةٍ بَلَّ لَهُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. وذلك يتبين بوجوه:

الأول: أن البهيمة منزوعة العقل إلا العقل الغريزي الفطري لمعاشها. فلا سبيل لها إلى أن تتكلم بعلم أو عمل أو صلاح أو إصلاح أو رشد. أكثر مما هي عليه، أما الإنسان ففضل بالعقل والإدراكات والحواس والمواهب التي بها يتكلم ويصلح. فإذا تعطل عن بلوغ صلاحه وكماله الذي خلق من أجله بان نقصه وانحطت منزلته. وظهر خسارته.

الثاني: أن البهائم غير مكلفة ولا ينتظرها ثواب ولا عقاب. ولا مصير من الشقاوة أو السعادة. وأما الإنسان فهو مكلف من قبل خالقه. وإنما خلقه لذلك. وله مصير محتوم هو صائر إليه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ عَنِ النَّارِ هَلْ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿خَلِيلِكَ﴾ ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَيَنَادُونَ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

أما البهائم؛ فإنها وإن حُشرت: ﴿وَإِذَا أَلُوهُشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وبُعِثت واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء؛ فإن ذلك لتمام عدل الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «لَتَأْذُنُ الْحَقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُقَادُ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(١).

ثم يقال لها كوني تراباً، عندها يتمنى الكافر لما يعاين من الأهوال ويتنظره من المصير المؤلم الرهيب أن لو كان مصيره مصير هذه البهائم. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

الوجه الثالث:

أن جميع الكائنات بما فيها البهائم مؤمنة بخالقها تسبحه وتصلي له إلا كافر وفاجر بني آدم؛ فإنه كافر بربه، متمرد على خالقه. يعبد ويسبح غير ربه ومولاه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَسْأَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

(١) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة (١٨/١٩)، والترمذي (٦٨/٢).

الأمر الثاني:

مما تحفظ فيه النفس الإنسانية وتسان في التشريع الإسلامي:

أنها تحفظ من حرمانها في اختيار ما تريد. بما لا يعود بالفساد والمضرة عليها ولا على غيرها حتى الدين؛ فإن الله تعالى مع أنه أبطل جميع الأديان. ولا يقبل غير الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، إلا أنه تعالى منعنا أن نكره أحداً على قبول هذا الحق. وأن نرغم أحداً على الدخول في الإسلام وقبوله عنوة. على قاعدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وسبب ذلك وحقيقته أن الدين لا يُكره أحد عليه. لأنه قناعات واعتقادات ومحبة وشعور. فكيف يكره أحد على هذا؟! لأن الإكراه في حقيقته هو حمل الإنسان بالقوة والإجبار ليوافق بظاهره على ما هو كاره له وغير مرید له بباطنه. قال أحمد بن فارس: «الكاف والراء والهاء: أصل صحيح واحد يدل على خلاف الرضا والمحبة»^(١).

وفي اللسان: «أكرهته: حملته على أمر هو له كاره»^(٢).

وقال ابن حجر رحمه الله: «الإكراه إلزام الغير بما لا يريده»^(٣).

(١) معجم مقاييس اللغة (٩٢٣).

(٢) لسان العرب (٥٨/١٢).

(٣) فتح الباري (٣١١/١٢).

وهذا معنى هذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

قال الإمام الطبري رحمته الله: «فتأويل الكلام إذن: قد وضح الحق من الباطل واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه فتميز من الضلالة والغواية فلا تكرهوا أحدًا من أهل الكتابين ومن أبحث لكم أخذ الجزية منه على دينكم دين الحق؛ فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانته له فإلى ربه أمره وهو ولي عقوبته في معاده»^(١).

وقال الإمام العماد ابن كثير رحمته الله: «أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلالة وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الإسلام مكرهاً مقسوراً»^(٢).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمته الله: «إن قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية إقناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر... يخاطب الكيان البشري كله... بكل جوانبه... في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدتها إلجاء إلى الإذعان...»^(٣).

ومما يدل على أن الله تعالى: لا يريد إلجاء الخلق إلى الإيمان إلجاء تخضع له أعناقهم ويستسلم له ظاهريهم ذلة ورهبة. قوله تعالى في أول سورة الشعراء:

(١) تفسير الطبري (١٩/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٦٥/١).

(٣) في ظلال القرآن (٢٩١/١).

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ظلت أعناقهم ذليلة، للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء»^(١).

وهذه الآية جاءت في السياق مباشرة بعد قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿طَسَّرَ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿لَقَدْ بَنِغْنَا نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١-٤].

فذكر تعالى آيات الكتب وهو القرآن المنزل على صفوة وخاتم رسله محمد ﷺ. ووصفه بأنه كتاب مبين. ظاهر الحجج واضح الدلالة، ومع ذلك أعرض عنه القوم وكذب به أكثرهم. وعاندوا حججه. مما جعل النبي ﷺ يكاد يقتل نفسه كمدًا وحزنًا وقهرًا. وهذا معنى قوله: ﴿بَنِغْنَا نَفْسَكَ﴾. بسبب عدم إيمانهم وإعراضهم عن هذا القرآن مع عظيم بيانه. وقوة حججه. وظهور براهينه. وعجزهم عن معارضته.

كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَمَّا لَكَ بَنِغْنَا نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، بعد قوله تعالى: ﴿الْحَدِيدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿فَيَسَّاءُ لِيُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١-٢]، فهو كتاب عظيم منزل من عند الله لا عوج فيه. ولا اختلاف، قيم: يهدي للتي هي أقوم وأحسن.

وكتاب هذا وصفه ينبغي أن تقبل عليه القلوب والعقول به تهتدي. ومنه تستقي. وعليه تستقيم. ولكن الذي يقع من الخلق أو أكثرهم الإعراض عنه

(١) تفسير الطبري (٩/٤٣٢-٤٣٣).

وتكذيبه. مما يجعل النبي الكريم ﷺ يكاد يقتل نفسه كمدًا وألمًا وحسرة عليهم. وأسفًا من إعراضهم بسبب عدم إيمانهم بهذا الحديث الذي هو القرآن العظيم، مع كل هذه القيمة التي هو فيها، والاستقامة التي هو عليها.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «لعلك قاتل نفسك لتركههم الإيمان: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾؛ أي معجزة ظاهرة، وقدرة باهرة، فتصير معارفهم ضرورية؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية»^(١).

«وقد كان الله قادرًا على أن يلوي أعناقهم كرهاً إلى الإيمان، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسرًا... ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيات القرآن. منهاج حياة كاملة. معجزًا في كل ناحية. معجزًا في بنائه التعبيري باستقامته على خصائص واحدة لا يختلف ولا يتفاوت... معجزًا في بنائه الفكري فلا فلتة فيه ولا مصادقة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي تتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها... معجزًا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها. وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين...

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخير رسالة مفتوحة للأمم كلها، وللأجيال كلها... فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل...»^(٢).

(١) تفسير القرطبي (١٣/٦١).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٥٨٤-٢٥٨٥) باختصار.

وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن بما صنعه ببني إسرائيل . لما كرهوا أمر الله ورفضوا التوراة وتمردوا على أحكام الله وعاندوا نبيهم موسى ﷺ ، فأكرههم الله تعالى إكراهاً والجأهم إلجاء إلى الأخذ بها . ففعلوا تحت تهديد هذا الإكراه فما زال عنهم هذا الإكراه حتى نكثوا وعادوا إلى غيهم وتكذيبهم وتمردهم .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نُنَقِّا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ : يقول من العمل بالكتاب، وإلا خر عليكم الجبل فأهلككم، فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوة . ثم نكثوا بعد ذلك .

وقال قتادة: « جبل نزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم به » .

وقال ابن جريج: « التؤمنن بالتوراة ولتقبلنها، أو ليقعن عليكم »^(١) .

فلما جاء الإسلام عقب ذلك، جاء يعلن هذا المبدأ الكبير: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته، وفكره، ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحمله تبعه عمله، وحساب نفسه . . . وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني . . .

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق « الإنسان » التي يثبت له بها وصف « إنسان »،

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٠٨/٦ - ١٠٩) .

فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً^(١).

ثم لاحظ هنا أن أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أسلوب إنشائي خبري وإن كان المراد به الطلب، ينهي المؤمنين أن يكرهوا أحداً على دينهم.

وعدل في الخطاب هنا من أسلوب الطلب بالنهي إلى أسلوب الإنشاء بالخبر ليبين أن الإكراه والإلجاء لا تأثير له البتة في قبول الدين، لأنه قناعات وإرادات ومحبة وشعور. فمتى أكره عليها قبلها ظاهراً وله مخرج بالنفاق بأن يبطن خلاف ما يظهر.

قال الإمام العماد ابن كثير رحمته الله: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلالة وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيد الدخول في الإسلام مكرهاً مفسوراً^(٢)».

وقال الشيخ ابن سعدي رحمته الله: «هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن

(١) في ظلال القرآن (١/٢٩١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٦٥).

جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده، فإنه قد تبين الرشد من الغي»^(١). وقال الطاهر بن عاشور رحمته الله: «إن المراد بنفي الإكراه نفي تأثيره في إسلام من أسلم كرهاً فراراً من السيف على معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَتَوَلَّوْا﴾ [النساء: ٩٤]، وهذا القول تأويل في معنى الإكراه وحمل للنفي على الإخبار دون الأمر»^(٢).

وقال الأستاذ سيد قطب رحمته الله: «والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾... نفي الجنس كما يقول النحويون... أي نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداءً. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهى عن مزاولته. والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعاً وأكد دلالة»^(٣).

لذلك فإن هذه الأمة المسلمة هم خير الناس للناس. وأنفع الخلق للخلق، وأعدل أمة وأرحمها. فاستحققت تفضيل الله وتكريمه وجعلها هي الأمة الخيرة العدل الشاهدة على جميع الأمم. القيمة على الكتاب الوارثة له القائمة به. الداعية إليه. المنقذة للبشرية من ظلمات الشرك. والخرافة. وتسلط الطواغيت. ومصادرة العقول والقلوب.

قال الله تعالى في وصفها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الإمام الطبري رحمته الله: «كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد صلوات الله عليه، وبما

(١) تفسير ابن سعدي (١/٢٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/٢٨).

(٣) في ظلال القرآن (١/٢٩١).

جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقلبة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطًا»^(١).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تحتل الجعل الشرعي أي أمرناكم باتباع الشرائع التي شرعناها لكم التي هي متوسطة بين طرفين.

قال الطبري رحمه الله: «وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم «وسطًا» لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه. ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»^(٢).

ويحتمل أن يكون الجعل القدري: أي أن الله تعالى أخرج هذه الأمة وشرع لها أحسن الشرائع وأتمها وأعدلها. لتكون في واقع الأمر كذلك عدولاً خياراً. ليكونوا شهداء على الأمم كلها في الدنيا والآخرة. وقد كانوا كذلك.

أما في الدنيا فإيمانهم بجميع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام. وموالاتهم جميعاً. ومحبتهم وتعظيمهم بدون تفريق بين أحد منهم. فهم أولى الناس بالرسول. وألصق الأمم بالأنبياء ﷺ.

وجمع الله لهم في شريعتهم المنزلة بين الحزم والعدل، وبين الرحمة والإحسان والفضل ما ليس لغيرها من الشرائع.

(١) تفسير الطبري (٨/٢).

(٢) المصدر السابق (٨/٢-٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «الشَّرَائِعُ ثَلَاثَةٌ: شَرِيعَةُ عَدْلِ فَقَطْ، وَشَرِيعَةُ فَضْلِ فَقَطْ، وَشَرِيعَةُ تَجَمُّعِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَتُوجِبُ الْعَدْلَ، وَتَنْدُبُ إِلَى الْفَضْلِ، وَهَذِهِ أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ الثَّلَاثِ وَهِيَ شَرِيعَةُ الْقُرْآنِ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ. مَعَ أَنَّا لَا نُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى عليه السلام أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ، وَكَذَلِكَ الْمَسِيحُ -أَيْضًا- أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَنْ نَصَّدَكَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا فضل^(١).

وقال تعالى عن رسالة خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم وما تحمله من عدل ورحمة وإحسان للعالم وللإهود والنصارى على وجه الخصوص: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُدًى لَّهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ هُمْ قَاذِرُونَ أَمْنًا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۖ وَطُورٍ سِينِينَ ۖ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أقسم بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهدهاء، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، كما

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٦١-٦٢) باختصار.

ذكر هذه المواضع الثلاثة في التوراة بقوله: «جاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»^(١).

فإن إشراقه من ساعير ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سيناء هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه هو ظهور نوره بمحمد ﷺ، وفي نص التوراة: رتبها على ترتيبها الزمني فقدم الأسبق فالأسبق، وأما القرآن فأقسم بها على وجه التدرج درجة بعد درجة فختمها بأعلى الدرجات»^(٢).

أما في الآخرة، فأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقال لأمنه: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمنه، فيشهدون أنه قد بلغ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»^(٣).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه قال في هذه الآية: «كانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم»^(٤).

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

(١) هذا النص في سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ٣٣ (١-٣) وبدل: استعلن: سطع.

(٢) الجواب الصحيح (٣/٣٧٣-٣٧٤) و(٥/٢٠٧-٢٠٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٨٧) و(٧٣٤٩).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٣٦)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري (٣٤/١٧).

الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه الآية الجليلة تشريعية للأمة المسلمة من جهة؛ لكنها تكليفية لها من جهة أخرى، فقد وصف الله تعالى -وقوله الحق- هذه الأمة بأنها خير أمة وجدت على ظهر الأرض فهم خير الناس. وأجل أمة وأشرفها.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم متمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

وتظهر خيريتها في الأمور الآتية متى قامت بها، ورعتها حق رعايتها:

١- ما اشترطه الله عليها في الآية لضمان الخيرية وبقائها واستمرارها، وهو قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فإن جملة تأمرون وتنهون وتؤمنون. جملة فعلية في محل النصب على الحال، أي أنتم خير أمة أخرجت للناس حالة كونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله تعالى.

فعلى هذا فإنه يختل من الخيرية بقدر ما يختل من الشروط السابقة.

رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم»^(٢).

ورُوي عنه رضي الله عنه أنه قال: «من أراد أن يكون من تلكم الأمة فليأد شرط الله

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم (٨٤/٤) وصححه، وقال الحافظ ابن حجر: (وهو حديث حسن صحيح وفي حديث علي عند أحمد بإسناد

حسن: أن النبي ﷺ قال: «أنتم خير الأمم»، فتح الباري (٨٦/١٧).

(٢) تفسير الطبري (٣/٣٩٠).

منها: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»^(١).

وقال الإمام مجاهد رحمته الله: «معناه على الشرط المذكور: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»^(٢).

ولذلك تفقد الأمة من هذه الخيرية بقدر ما تضع وتفرط في أمر الله والقيام بكتابه وأداء هذه الشروط العظيمة.

قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليلقين في قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»^(٤).

واعتبر بحال بني إسرائيل فقد كانوا يوماً من الأيام أمة مختارة مصطفاة. لما كانوا يؤمنون بالله وكان فيهم أنبياء الله وكان فيهم الكتاب والحكم والنبوة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلِيمٍ ۖ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ۝ وَالْأَيْتَنَّهُمْ مِنَ الْآيَتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٢-٣٣].

وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَضَعْنَاهُمْ

(١) الطبري (٣/ ٣٩٠).

(٢) الطبري (٣/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي (٣١٦/٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧).

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَلَاءُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿[الجاثية: ١٦-١٧].

فلما كفروا بآيات الله ونعمه. وقتلوا أنبياء الله. وتمردوا على شريعة الله؛ بل امتدت أيديهم الآثمة إلى كتاب الله فحرفوه وبدلوه. وقالوا كذباً وافتراءً هذا من عند الله. فانقلب ذلك التفضيل إلى تخسير. وتحول ذلك الاختيار إلى لعن وطرود واندثار.

فوصل بهم الحال إلى أن قال الله عنهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْمَكَاذِبِ هُمْ خَلِيدُونَ ﴿[المائدة: ٧٨-٨٠].

٢- وتظهر خيرية هذه الأمة كذلك وفضلها وشرفها أنها أمة العدل والمساواة، الجميع في حكم الله سواء. شعارها الذي قامت عليه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[الحجرات: ١٣].

يقول رسول الله ﷺ: «ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»^(١).

أمة لما قامت وسادت شريعتها أمن الناس كل الناس على حرمانهم وأموالهم وأعراضهم.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٠/٣).

أمة يقول نبيها ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة»^(١).
 أمة في ظل شريعته الغراء. ردع الاعتداء. ووصلت الحقوق إلى الأراذل والأيتام والضعفاء.

يقول نبيها ﷺ: «لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعص»^(٢).
 قال الإمام عكرمة في تفسير آية الخيرية هذه: «كان من قبلكم لا يأمن هذا في بلاد هذا، ولا هذا في بلاد هذا، فلما كنتم أنتم آمين فيكم الأحمر والأسود»^(٣).

وقال عكرمة أيضًا: «لم تكن أمة دخل فيها من أصناف الناس مثل هذه الأمة»^(٤).

٣- وتظهر خيريتها كذلك في أن هذه الأمة تستنقذ الناس من الكفر بالله والشرك به. ومن العبودية لغير الله تعالى من العبوديات المهيئة للطواغيت والجبابرة من الكياسرة والأفاصرة، ومن وهم الخرافة وضلال العقول. وظلمة النفوس إلى روح الإيمان وطاعة الرحمن وعدل الإسلام؛ بل إنها تقاوت وتجاهد من أجل تحرير البشرية كلها من رق العبودية وذلل الخضوع للطواغيت والملوك الجبابرة. لتتعم البشرية بعدل الإسلام ولو لم تدخل فيه. وتتدين به، ثم إنها تنقذ بدعوتها وأخلاقها وجهادها أمما من جحيم عذاب الله تعالى في الآخرة. وعظيم وأليم عقابه ونقمته لتتعم هذه الأمم بروح الله ورحمته، والفوز بجنته

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٩١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٣).

والنجاة من عذابه . ولو كانت ربما في أول الأمر كارهة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»^(١).

وفي لفظ موقوف على أبي هريرة قال : «كنتم خير أمة أخرجت للناس : خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»^(٢) .
والمعنى : أنهم يُأسرون في الجهاد ، يأسرهم المسلمون فيأتون بهم في السلاسل فإذا رأوا وعاینوا عدل الإسلام ورحمته وكيف يعيش المسلمون في إيمان وعدل ورحمة أحبوا الإسلام فأسلموا طوعاً . فصار مصيرهم إلى الجنة والنجاة .

قال الإمام ابن الجوزي رحمته الله : «معناه أنهم أسروا وقيدوا فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعاً فدخلوا الجنة فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول»^(٣).

والجهاد إنما شرع في الإسلام ليتحرر البشر كلهم من كل العبوديات المهينة المشينة لغير الله خالقهم . ليكونوا جميعاً عبيداً لله خالقهم ، عابدون له لا يخضعون بالدينونة إلا له تعالى .

قال الله تعالى : ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الَّذِينَ كُلُّهُمُ لِلَّهِ فَلَمَّ آتَاهُمَا إِلَهُكَ اللَّهُ يَمَا يَمْلِكُونَ بَعِيرٌ﴾ [الأنفال : ٣٩] ، وقال رسول الله ﷺ : لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بعثه لفتح خيبر : «انفذ على رسلك حتى تنزل

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠).

(٢) البخاري (٤٥٥٧).

(٣) انظر فتح الباري (١١١/١٢).

بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١).

فهداية الناس للخير والحق واستنقاذهم من الكفر والعبودية لغير الله هو الهدف والغاية في الإسلام من عقد الأولوية ونصب رايات الجهاد وبعث السرايا والجيوش.

وقال الصحابي الجليل ربيعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد جيش الفرس المجوس لما سأل رستم ما الذي جاء بكم؟ فقال ربيعي: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»^(٢).

فتتج من حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية العظيمة أن اهتدى الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً وأحبوا الإسلام رغبة لا رهبة. وصلحت الأرض بعد فساد. وأضاءت بعد ظلام.

وكان من اختار دينه من أهل البلاد المفتوحة يتمتع بعدة مزايا لم تحصل في تاريخ الحروب كلها:

- إنهم يُقَرَّن على دينهم ولا يكرهون على تركه ولا يجبرون على الدخول في الإسلام على قاعدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ كما مر.
- إنهم يُأْمَنُونَ على أموالهم وأعراضهم ودمائهم. بلا عدوان عليها. قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠).

(٢) ذكره الطبري في تاريخه (٤٠١/٣)، وانظر الإصابة لابن حجر (١٥٨/٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

- إنهم لا يُسْتَرْقُونَ؛ بل يبقون أحرارًا متى كفوا عن القتال ووافقوا على شروط الذمة، ودفَعوا مقدارًا زهيدًا من المال جزية.
- إنهم لا يُكَلَّفون بالقتال مع المسلمين. بل يقاتل عنهم المسلمون ويحمونهم.

ترجم الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي كتاب الجهاد من الجامع الصحيح فقال: «باب يُقَاتَلُ عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَلَا يُسْتَرْقُونَ»^(١).

وفقه هذه الترجمة أن أهل ذمة المسلمين أمنهم من واجب المسلمين، وأن المسلمين يقاتلون في الدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم ولا يكلفون هم بقتال؛ بل ولا يسترقون ويبقون أحرارًا يقرون على دينهم ما اختاروه ورضوا به حتى ولو نقضوا العهد مع المسلمين وخانوا.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يسترقون، أي ولو نقضوا العهد»^(٢).

ونقل فيه ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ الإجماع على ذلك^(٣).

وترجم البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح فقال: «باب إذا قالوا صيأنا ولم يحسنوا أسلمنا . . . وَقَالَ عُمَرُ: إِذَا قَالَ مَتَرَسٌ فَقَدْ آمَنَهُ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْأَلْسِنَةَ كُلَّهَا، وَقَالَ: تَكَلَّمْ لَا بَأْسَ»^(٤).

أما الأثر الأول: فقد قال الحافظ في الفتح: «وصله عبد الرزاق عن طريق

(١) فتح الباري (١٢/١٤٠).

(٢) فتح الباري (١٢/١٤٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) فتح الباري (١٢/٣٦٣).

أبي وائل قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس . . . وفيه: وإذا لقي الرجلُ الرجلَ فقال لا تخف فقد أمنه، وإذا قال مترس فقد أمنه، إن الله يعلم الألسنة كلها^(١).

والمراد أن أي رجل مسلم من المجاهدين قال أي كلمة بأي لغة أشعر فيها الكافر المحارب بالأمان فقد عقد له ذمة الإسلام، ووجب على المسلمين تأمينه وحقق دمه. وكلمة «مترس» كلمة فارسية معناه: «لا تخف».

وأما الأثر الثاني: فقد قال الحافظ أيضًا في الفتح: «وروى ابن أبي شيبة ويعقوب بن سفيان في تاريخه من طرق بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: حاصرنا تستر فنزل الهرمزان على حكم عمر فلما قدم به عليه استعجم فقال له عمر: تكلم لا بأس عليك. وكان ذلك تأمينًا من عمر، وفي لفظ: بعث معي أبو موسى بالهرمزان إلى عمر فجعل عمر يكلمه فلا يتكلم فقال له عمر: تكلم، قال: أكلام حي أم كلام ميت؟ قال: تكلم لا بأس. قال: فأرادوا قتله، فقال عمر: لا سبيل إلى ذلك قد قلت له تكلم لا بأس»^(٢).

فيالله هذا ملك أسير من ملوك الفرس أمن بين جميع المسلمين على دمه بكلمة واحدة من أمير المؤمنين «لا بأس» ثم انظر إلى هذه المفارقة هذا الهرمزان الذي تمتع بكل هذا التأمين والأمان قابل ذلك كله بالنكران والكفران والغدر، فكان أحد رؤوس المتآمرين على قتل هذا الخليفة المبارك الفاروق عمر رضي الله عنه.
فأين أخلاق المسلمين النبيلة وأين غدر ولؤم هؤلاء الكفار؟!

ثم روى البخاري في الباب المذكور عن عمرو بن ميمون عن أمير المؤمنين

(١) فتح الباري (١٢/٢٦٤).

(٢) المصدر السابق.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في وصيته للخليفة بعده: وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم^(١).

ويؤب البخاري أيضًا فقال: «باب: الوصاة بأهل ذمة رسول الله ﷺ»^(٢). وأخرج الحديث السابق.

بل إن الذمي مع تمتعه بكل هذه المزايا؛ فإن للعفو عنه والصفح مجال عظيم حتى مع غدره وجرمه وعدوانه وإضراره بالمؤمنين.

ترجم الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الصحيح فقال: «باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم»^(٣).

ثم أخرج حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ: «اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود»، فجمعوا له، فقال: «إني سألتكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. فقال: «كذبتم؛ بل أبوكم فلان»، قال: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أيينا، فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا»، ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة

(١) البخاري برقم (٣٠٥٢).

(٢) فتح الباري (١٢/٢٥٤).

(٣) فتح الباري (١٢/٢٦٠-٢٦١).

سَمًا؟ قالوا: نعم، قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرْك»^(١).

وهذا السم الذي وضع في الشاة وأكل منها النبي ﷺ وبعض أصحابه تضرر منه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وكان سببًا رئيسًا في مرضه الذي توفي منه، وقد قال قبل وفاته عليه الصلاة والسلام: «وما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلت بخير. وهذا أوان انقطاع أبيهري»^(٢).

ومات بسبب هذا السم بعض أصحابه وهو الصحابي: بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه.

ومع هذا لم يعاقب النبي ﷺ يهود بشيء ولم يقتل المرأة وهي زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم التي وضعت السم في الشاة؛ بل عاملهم مزارعة على القيام بأرضهم على نصف الخارج منها^(٣).

وترجم البخاري أيضًا: «باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر، وقال ابن وهب: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، سئل: أعلى من سحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب»^(٤).

والقتال إنما شرع في الإسلام أولًا لحفظه وردع العدوان عليه من الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولحفظ يرضته وحقن دماء أهله.

(١) صحيح البخاري (٣١٦٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٨).

(٣) انظر: فتح الباري (٨١/١٦).

(٤) فتح الباري (٢٦٦/١٢).

وشرع ثانيًا لإيصاله لأهل الأرض قاطبة وكسر كل الحواجز المعيقة لوصوله للناس كي يبصروا نور الله وهدى الله ثم يقررون بمحض إرادتهم الدخول فيه إن شاءوا أو البقاء على أديانهم وما هم عليه.

«لقد انتضى الإسلام السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحدًا على الإسلام؛ ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد.

• جاهد الإسلام وأهله أولًا ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، ففي هذه الآية جعل القرآن العظيم الاعتداء على الدين الحق وإيذاء أهله لفتنتهم وصرفهم عنه أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها -ومن هنا أخذ الفقهاء مسألة إذا تضايقت الضرورات قدم الأهم. فإذا تضايقت كلية الدين وضرورته مع كلية الحياة وحفظ النفس قدم ضرورة حفظ الدين والثبات عليه على حساب فقد النفس وذهاب الحياة. فلو ألجئ مسلم إلى الكفر أو يقتل اختار القتل على أن يبقى مسلمًا لا يكفر بالله- فالدين الحق أعظم قيمة من الحياة وفق هذا النص العظيم.

وإذا كان المؤمن مأذونًا له في القتال ليدفع عن حياته وماله. فهو من باب أولى مأذون له في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه.

• وجاهد الإسلام ثانيًا لإيصال الحق والخير للناس وإزالة العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير وإيصال هذا الحق للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة، فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها. وليلبغه إلى أسماعها وإلى قلوبها. فمن شاء بعد هذا البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فلا. فلا إكراه في الدين كما تقرر آنفًا.

• وجاهد الإسلام ثالثاً: ليقيم في الأرض منهجه وحكمه الذي أنزله الله تعالى وارتضاه ولا يقبل ديناً سواه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي نظام الإسلام وحده تتحقق حرية الإنسان. لأن الإسلام وحده هو الذي يقرر أن هناك عبودية واحدة لا غير هي العبودية لله الكبير المتعال، كما قرناه آنفاً. فليس في الإسلام فرد أو طبقة أو جماعة تشرع للناس أحكاماً وتستذلهم عن طريق هذا التشريع. في الإسلام التشريع وأحكامه حق لله الواحد الأحد، والجميع بدون استثناء يتجهون إلى الله وحده بالخضوع والطاعة والعبودية^(١).
الأمر الثالث:

مما تصان فيه النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي هو حفظها، وصيانتها من العدوان عليها بالقتل وإزهاقها وحرمانها الحياة ظلماً وعدواناً. دبَّت الحياة في هذه الأرض بعد أن أهبط الله تعالى أبانا آدم عليه السلام، وأمنا حواء إلى هذه الأرض؛ لتكون مستقراً للبشر، ومتاعاً إلى حين. قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].
وعظم الله -الخالق العظيم- شأن الحياة التي هي نفخة كريمة من روحه في

(١) في ظلال القرآن (١/٢٩٣-٢٩٦) بتصرف واختصار.

الطين اللازب، وجعل الحياة آية كريمة من آياته العظيمة المبرهنة على عظمة الخالق تعالى وقدرته وكماله وجلاله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

ولتعظيم شأن الحياة وتكريمها، لأنها نفخة كريمة من روح الله -الخالق العليم- أمر الله تعالى الأملاك الكرام والأرواح العظام، وفيهم جبريل -روح القدس- وميكائيل -صاحب القطر والمطر والسحاب-، وإسرافيل -صاحب النفخ في الصور لبعث الحياة مرة أخرى ليوم المعاد- أمرهم جميعاً بالسجود لهذا الطين اللازب بعد أن صار بشراً سوياً بأن نفخ الله فيه من روحه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْمَعُونَ﴾ [سورة ص: ٧١-٧٣]. وكان أول ذنب عُصي الله تعالى به في هذه الأرض، وأول جريمة أرتكبت: هي جريمة العدوان على هذه النفخة الكريمة من روح الله -الخالق العليم-. إنها جريمة القتل، وإزهاق النفس البريئة، وإراقة الدم الحرام، وذلك في قصة ابني آدم «قاييل وهابيل».

ولتعظيم أمرها، وشناعة إثمها، وفحش خطيئتها ذكرها الله تعالى في كتبه المنزلة على أنبيائه الكرام.

قال الله تعالى في كتابه الحكيم ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْمَلَكِينَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ

جَزَاؤًا الْفَلِيلَيْنِ ﴿١٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُرَی سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢١﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وفي التوراة التي بأيدي يهود والكتاب المقدس العهد القديم عند النصارى نجد النص الآتي: «وقال قاين لهابيل أخيه: لنخرج إلى الحقل. فلما كانا في الحقل، وثب قاين على هابيل أخيه فقتله. فقال الرب لقاين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم أحارس لأخي أنا؟. فقال: ماذا صنعت؟! إن صوت دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض، والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دماء أخيك من يدك، وإذا حرثت الأرض فلا تعود تعطيك ثمرها تائهاً شاردًا تكون في الأرض...»^(١).

ثم بعد أن ذكر الله تعالى جريمة القتل الأولى عقّب تعالى بتحذير الناس عمومًا وبني إسرائيل خصوصًا من خطورة سفك الدماء، وإزهاق النفوس البريئة. وخص بني إسرائيل بذلك لعلمه بكثرة ما سيفعلون من هذه الجريمة التي طالبت حتى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

نعم لقد أسرف بنو إسرائيل عبر تاريخهم في الدماء كثيرًا كما قال الله تعالى عنهم. في إنجيل متى الحوارى: «أيها الحيات أولاد الأفاعي، كيف لكم أن تهربوا

(١) الكتاب المقدس؛ العهد القديم، سفر التكوين. الإصحاح ٤ (٧-١٦).

من عقاب جهنم؛ من أجل ذلك هاأنذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبه، فبعضهم تقتلون، وتصلبون، وبعضهم في مجامعكم تجلدون ومن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكي سُفك في الأرض، من دم هايل الصديق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح، «الحق أقول لكم: إن هذا كله يقع على هذا الجيل»^(١).

وفي إنجيل لوقا: «ولذلك قالت حكمة الله: سأرسل إليهم الأنبياء والرسل وسيقتلون منهم، ويضطهدون، حتى يُطالب هذا الجيل بدم جميع الأنبياء الذي سُفِكَ منذ إنشاء العالم، من دم هايل إلى دم زكريا الذي هلك بين المذبح والهيكل. أقول لكم: أجل؛ إنه سيطلب به هذا الجيل»^(٢).

فحكم الله في القرآن والإنجيل: أن من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا. ومن أحياها واستبقاها فكأنما أحيا الناس جميعًا. قال الإمام الحسن البصري رحمته الله: «إن قاتل النفس الواحدة يصير إلى النار، كما لو قتل الناس جميعًا»^(٣).

وأخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل»^(٤).

فهذا أعظم ما يكون في حفظ النفس البريئة، وعصمة الدماء المعصومة في التشريع الإسلامي النبيل.

(١) الكتاب المقدس؛ العهد الجديد، إنجيل متى (٢٣/٣٣-٣٦).

(٢) الكتاب المقدس؛ العهد الجديد، إنجيل لوقا (١١/٤٩-٥١).

(٣) تفسير الطبري (٤/٥٤٠-٥٤١)، وانظر فتح الباري (٨/٢٦).

(٤) البخاري (٦٨٧٦).

ثانيًا: قيمة حفظ النفس في التشريع البشري:

إذا نظرنا تشريعًا وواقعًا إلى قيمة النفس الإنسانية في الديانات المحرفة (اليهودية والنصرانية) أو الوضعية أو القوانين الأرضية التي صاغها البشر؛ فإن الأمر مختلف، لقد أهدرت إنسانية الإنسان وتحول إلى سلعة تصادر وتباع وتشتري.

أصبح القتل والإبادة الجماعية، والتطهير العرقي والإبثني، ولأجل الطمع في ثروات الشعوب الضعيفة والمغلوبة هو سمت البشرية خصوصًا في العصور المتأخرة.

أولًا: اليهود تشريعهم وواقعهم:

اليهود شعب عنصري احتقاري، يحتقر شعوب الأرض، ويرى أنها إنما وُجدت لخدمته.

ثم هو شعب إبادي يعشق الدماء والقتل، وإزهاق النفوس البريئة لا شيء إلا لتفريغ شحنة الحقد الأسود، ضد كل من ليس يهوديًا.

حتى قال عنهم مارتن لوثر كينغ: «لم تشرق الشمس يومًا على شعب أكثر دموية وحقدًا من اليهود»^(١).

ويقول جوزيف هيلر أحد منظري الصهيونية مبيّنًا النفسية الاستعلائية لدى اليهود: «فاليهود ليسوا طائفة دينية فحسب، وإنما لهم طبع قوي متميّز، وفردية خاصة بهم، احتفظوا بها على مدى التاريخ، وإسرائيل لم تكن قط كنيسة، وإنما تعتبر نفسها شعبًا مقدسًا له مهمة روحية واجتماعية رفيعة، واليهود لا يؤلفون أمة

(١) نقلًا عن كتاب: الخديعة الكبرى للدكتور. محمد جمال طحان (١٢١).

كغيرهم من الأمم؛ فإن جوهر الشعب اليهودي ووجوده وتكوينه العقلي، ومصيره الأخير، وماضيه وحاضره، وذاكراته التاريخية، ومثله العليا لا يمكن أن تنفصل بعضها عن بعض، وتتميز عن أصوله الروحية، وموقفه أمام الحياة^(١). ويظهر حقد اليهود ودمويتهم واستعلائهم على شعوب الأرض في الأمور الآتية:

١) ماديتهم التي جعلتهم يجسّدون الإله «يَهْوَه» في صورة عجل، أو ثور، وتارة أفعى:

يقول المؤرخ الشهير «ول ديورانت»: «إن العبريين في أول ظهورهم على مسرح التاريخ، كانوا بدوًا رَحَلًا، يعبدون الصخور، والماشية والضأن، وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلصوا قط من عبادة العجل الذهبي^(٢)، لأن عبادة العجول كانت ولا تزال حيّة في ذاكرتهم، فكانوا في مصر وظلّوا زمنًا طويلًا يتخذون هذا الحيوان القوي أكل العشب رمزًا للإلهم وأنا لنقرأ في سفر الخروج^(٣): كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي، وكيف أعدم موسى واللاويين ثلاثة آلاف منهم عقابًا لهم على عبادة هذا الوثن، وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى، ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وُجدت في أقدم آثارهم، ومنها الأفعى النحاسية التي صنعها موسى والتي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالي ٧٢٠ ق.م) وكانت الأفعى تبدو حيوانًا مقدسًا لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم

(١) نقلًا عن كتاب: اليهودية وحررها المستمرة على المسيحية لإيليا أبو الروس (١١٠).

(٢) قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ لِيَجْعَلَ ابْغْضَهُمْ قُلُوبَنَا يَا مَرْغُومٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٩٣].

(٣) انظر النص في الكتاب المقدس «العهد القديم»، سفر الخروج. الإصحاح ٣٢ (٢٥-٢٨).

وذلك لأنها رمز للذكورة المخصصة من جهة، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود، وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة القديسين. وفي الأصنام الصغيرة المتقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم كذلك، ظلت المعتقدات السحرية التي كانت منتشرة في العبادات القديمة باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة^(١).

وقد كانت هذه النزعة المادية في تجسيد الإله في صورة وثن من حجر أو حيوان من ذهب ونحو ذلك نزعة ملازمة لليهود.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنهم بمجرد خروجهم من مصر وإنجاء الله لهم من فرعون وجنوده بتلك المعجزة الباهرة ومعهم وبصحبته نبي الله موسى ﷺ ومع ذلك يقول تعالى عنهم: ﴿وَجَنُوزًا يَبْتَغِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُؤُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَنَطْلٌ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٢٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْكَلْبِ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وفي سفر الخروج^(٢): «فقال الرب لموسى: هلم انزل فقد فسد شعبك الذي أصدعته من أرض مصر فسرعان ما حادوا عن الطريق الذي أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلاً مسبوگًا، فسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدعتك من أرض مصر».

في سفر الملوك الأول^(٣): «فاستشار الملك وعمل عجلين من الذهب وقال

(١) قصة الحضارة. ول ديورانت (٣٨٨-٣٣٩)، المجلد الأول والجزء الثاني.

(٢) الإصحاح: ٣٢ (٧-٩).

(٣) الإصحاح: ١٢ (٢٨-٢٩).

لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هذه آلهتك، يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر، وجعل أحدهما في بيت إيل، والآخر وضعه في دان».

وسجل القرآن العظيم عليهم شيئاً من ذلك، وذلك في طلبهم الصريح من نبي الله ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل الله إليهم وأن يروه جهرة. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وهؤلاء الذين طلبوا من موسى هذا الطلب هم خيار بني إسرائيل في ذاك الوقت وصحبة نبي الله موسى، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيقَيْنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِأَبْصَارِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَوَّيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ﴾ [النساء: ١٥٣].

ولما تركهم نبيهم موسى ﷺ وذهب إلى ميقات ربه أربعين ليلة فقط اتخذوا العجل الذي صنعه من حليهم، وعبدوه من دون الله، وجعلوه هو الإله. في كفر صارخ وشرك فاضح. ضارين عرض الحائط كل نعم الله العظيمة عليهم. وإنجانهم من فرعون وقومه. وإهلاك فرعون وجنوده أمام أعينهم. وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى وغير ذلك. وهارون ﷺ معهم وبينهم يحذرهم وينذرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۖ﴾ [البقرة: ٥١].

وقال تعالى عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۖ﴾ أَفَلَا يَرْوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا يَعْلَمُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَرُوا لَنَا فَنُقَرِّبُ إِلَهُكُمْ الرَّحْمَنُ فَالْيَمُونِ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ۖ﴾ [طه: ٨٨-٩١].

قال الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله: «فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معايبتهم من آيات الله جل وعز وعبره ما تتلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله. ومرة يعبدون العجل من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: اذهب أنت وريك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. ومرة يقال لهم: قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم. فيقولون: حنطة في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاذهم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم ﷺ، التي يكثر إحصاؤها»^(١).

(ب) الفوييا اليهودية:

الفوييا اليهودية: مرض مستقر في نفسية كل يهودي. وهو الخوف من المستقبل دائما بشكل مبالغ فيه، والاعتقاد بأن اضطهادا ما سيحدث يوما لإبادة اليهود من قبل الأغيار: وهم كل من ليس يهوديا، إنه -الحقد على الماضي والخوف من المستقبل- هذه الفوييا تدخل في تكوين فسيولوجية الطفل اليهودي وتكوين ثقافته الاعتقادية. إنه يتشبع بقضيتين:

(١) تفسير الطبري (١/٣٢٩).

• قضية تقول له «لا تنس» ما جرى لليهود من كره وحقد وإبادة من قبل كل من ليس يهودي.

• وقضية تقول له: «لا تغفر» لمن فعلوا بك ذلك أو يمكن أن يفعلوا.

• لا تنس أنك شعب الله المختار.

• لا تنس كره الأغيار لك.

• لا تنس الاضطهاد العالمي لليهود.

• لا تنس مئات السنين من العبودية في مصر.

• لا تنس السبي الآشوري والسبي البابلي.

• لا تنس تدمير الأمبراطور «تيطس» لأورشليم.

• لا تنس الاضطهاد النازي لليهود والهوليكست وغيرها.

تقول الدكتورة سناء عبد اللطيف: «يسعى أدب الأطفال العبري الموجه إلى أطفال اليهود إلى إبراز اتجاه هام جدًا من الاتجاهات الأيدولوجية الصهيونية، وهو: «أبدية الاضطهاد اليهودي»، فمن المعروف أن الأيدولوجيا الصهيونية روجت فكرة مؤداها أن اليهود تعرضوا للاضطهاد والتتكيل الذي توافرت فيه ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: الامتداد التاريخي. بمعنى أن الاضطهاد الذي حاق باليهود استمر منذ بداية التاريخ اليهودي الحالي بشكل دائم.

وبالبعـد الثاني: الامتداد الجغرافي، بمعنى: أن الاضطهاد شمل اليهود في كل مكان.

وبالبعـد الثالث: الفارق الكيفي بمعنى أن الاضطهاد الذي لقيه اليهود كان من

الضخامة والشراسة بحيث لا يمكن أن يعادله أي اضطهاد لأي جنس آخر في العالم»^(١).

ونظرًا لهذه العقدة اليهودية أنشأ اليهود ما يسمى «معاداة السامية» وهي تعني معاداة كل شيء يهودي، واستطاعوا عن طريق الأمم المتحدة والولايات المتحدة والغرب أن يلزموا بها العالم. بأن كل شيء فيه مطالبة لليهود أو ردع لهم ولجرائمهم هو معاداة للسامية.

يقول المفكر اليهودي الشهير «يهوذا بنسكر»: «إن معاداة السامية هو الرفيق الذي لا مهرب منه لليهودية على مدى التاريخ»^(٢).

واستطاع مؤسس الحركة الصهيونية «ثيودور هرتسل» أن يحدد مفهومه للأمة اليهودية بأنها الأمة السامية المتميزة مؤكدًا أن جميع الشعوب الأخرى لا سامية وأنها تتريص باليهود.

يقول هرتسل: «إن جميع الشعوب مجتمعة أو منفصلة، والتي يعيش بينها اليهود دائمًا هي ذات نزعة لا سامية ظاهرة أو خفية... إن اللأسامية موجودة منذ الأزل وباقية إلى الأبد»^(٣).

ويؤكد هذا الأمر المفكر الصهيوني الشهير «نحمان سيركين» إذ يقول: «منذ بدء تعرف اليهود إلى العالم والتوتر قائم بين هذا العالم وبينهم. ولقد اتخذ هذا التوتر في العصر الحديث شكل اللاسامية، إن هذه العداوة ما بين اليهود

(١) كتاب: كيف يربي اليهود أطفالهم (٤٣).

(٢) نقلًا عن كتاب: أرض الميعاد؛ د. عبد الوهاب المسيري (٤٤).

(٣) كتاب الدولة اليهودية (ص ٢٢).

والأغيار مجودة في كل زمان ومكان»^(١).

وها هو «ديفيد بن غوريون» مؤسس دولة إسرائيل على أرض فلسطين المغصوبة يلقي خطاباً أمام قادة حزب العمل بتاريخ ٧ كانون الأول سنة ١٩٣٨م أي قبل خطابه بإعلان دولة إسرائيل بنحو عشر سنوات فيقول: «لو خُيرت بين إمكانية إنقاذ كل أطفالنا في ألمانيا بنقلهم إلى انكلترا، وإنقاذ نصفهم بنقلهم إلى إسرائيل لاخترت الحل الثاني. علينا أن لا نأخذ بعين الاعتبار حياة هؤلاء الأطفال ولكن أيضاً تاريخ الشعب الإسرائيلي»^(٢).

هذه الفوبيا اليهودية ولدت في نفوس كل اليهود جميع أنواع الحقد على كل من ليس يهودي وسهلت لدى اليهود قتل وإبادة الأغيار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. «لذلك يظهر اليهود حقدهم غير القابل للشفاء تجاه أمم الأرض وشعوبها، فاليهود متمردون دائماً وهم دائموا الشك والريبة والحسد. وتجدهم أذلاء في العسر. وقحون حاقدون في اليسر. وهم أعداء القيم الإنسانية الرفيعة وهم أكثر شعوب الأرض إجراماً... لقد شكل اليهود دائماً خطراً على غيرهم من الشعوب. فهم سبب الكوارث التي حلت بتلك الشعوب... وقد حرق اليهود الحقيقة دائماً، ونشروا عوضاً عنها الأباطيل الكاذبة ويجرؤ اليهود بوقاحة على إعلان حقدهم الأسود للشعوب، فهم يركعون أذلاء حينما يحيق بهم سوء. ويتمردون بوقاحة عندما يسرقون النعمة ورغد العيش. إن كنت لا تصدق فاذهب إلى فلسطين فهناك تستطيع أن تتكلم أحقر لغة»^(٣).

(١) نقلاً عن كتاب: الفكرة الصهيونية؛ لأنيس صايف (ص ٢١٦).

(٢) نقلاً عن كتاب: الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية؛ لروجي جاردودي (ص ٦٥).

(٣) انظر كتاب: صورة الله الوثنية والدموية في التوراة (ص ١٦٢) للأب حنا حنا.

(ج) عنصرية اليهود ودمويتهم:

طوال تاريخ اليهود وهم شعب قاسٍ متعجرف عنصري سفاك للدماء، دائم التمرد، مادي، أناني، ليس للرحمة والشفقة إليه سبيل.

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى من إثمهم وجرائمهم وحقدهم وتمردهم شيئاً كثيراً. فقد قتلوا الأنبياء الكرام، وسفكوا الدم الحرام عتوا وظلموا. وأكلوا الربا. وفعلوا الفواحش، وسبوا رب العالمين، وأضافوا إليه القبائح تعالى الله عن كفرهم وإثمهم علواً كبيراً. وحرفوا كتب الله. ووضعوا من عندهم كتب الإثم والكفر والفجور «كالتلمود» و«القبالا» وملؤوها بالإثم والكفر والقتل والحقد. وعظموها أكثر من كتب الله المنزلة.

فصاروا بامتنياز أعداء الله تعالى، وأعداء الرسل الكرام والأنبياء العظام وأعداء الحق والعدل والسلام. وأصبحوا أساس كل الفواحش والجرائم والقبائح في العالم. أينما وجدوا وحيثما حلوا، فلنسمع لحديث القرآن العظيم الحق عنهم. وتحذيره الواضح منهم.

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُجُلَتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥-١٦١].



يقول الأب «إيليا أبو الروس»: «لقد كان خطر اليهود قائماً، وهم مشتون مبعثرون في أنحاء الأرض فكيف بهم وقد أصبح لهم «دولة»، تمدوا شراذمهم ومسخروهم في الخارج بالمعونة والغذاء، وينفثون سمومهم في الداخل والخارج بالحقد والبغضاء، إن على آبائنا ومفكرنا وسياسينا أن لا يغفلوا قط عن هذا الخطر الداهم الذي يمثل تعاليم الوحشية، وسفك الدماء، والإبادة في عقيدة دينية لا أخلاقية، ينسبونها إلى النبي موسى من إلههم «يَهُوَه» إله الجنود»^(١).

ويقول المؤرخ اليهودي «جان جستر» في رسالته الجامعية عن يهود الإمبراطورية الرومانية مؤكداً الطبيعة الإجرامية لليهود: «كل الجرائم التي ارتكبتها البشر، ارتكبتها اليهود أيضاً»^(٢).

ويقول الأب «جورج وليمز» عن غزو اليهود مع الفرس مدينة القدس سنة «٦١٤م» والجرائم الفظيعة التي ارتكبوها بحق المسيحيين من سكان القدس: كل الأعمال الرهيبة التي رافقت نهب جيش بربري للمدينة عزّزها حقّد اليهود... لقد تبع اليهود الفرس من الجليل لإرضاء انتقامهم بذبح المؤمنين، وهدم أكثر كنائسهم قدسية، لقد غرقوا بشكل كامل في الدم، وفي غضون أيام سقط قتيلاً «٩٠,٠٠٠» مسيحي من كلا الجنسين ومن كل الأعمار والمهن، ضحية كراهيتهم التي لا تستثني أحداً»^(٣).

في سفر النبي «أشعيا» من وصف اليهود ما يوافق ما ذكر الله عنهم في القرآن

(١) اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية (٥).

(٢) نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود؛ زياد منى (٢٤١).

(٣) كتاب: المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس (٢٤٤).

العظيم: «يد الرب لا تقصر عن الخلاص، وأذنه لا تثقل عن السماع؛ لكن آثامكم فرقت بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم حجبت وجهه عنكم فلا يسمع؛ لأن أكفكم تلطخت بالدم، وأصابكم بالإثم، وشفاهكم نطقت بالكذب، وألستكم تمت بالإثم، ليس من مُدَّعٍ بالبر ولا محاكم بالصدق يتكلمون على الخواء وينطقون بالباطل، يجلبون بالظلم ويلدون الإثم، ينقفون بيض الحيات، وينسجون خيوط العنكبوت ويبيضهم من أكل منه يموت، وما كسر منه ينشق عن أفعى، خيوطهم لا تصير ثوبًا، ولا يكتسبون بأعمالهم، لأن أعمالهم أعمال إثم. وفعل العنف في أفهم. أرجلهم تسعى إلى الشر، وتسارع إلى سفك الدم البرئ، أفكارهم أفكار الإثم. وفي مسالكهم دمار وتحطيم، لم يعرفوا طريق السلام. ولا حق في سبلهم، قد جعلوا دروبهم معوجة. كل من سلكها لا يعرف السلام. لذلك ابتعد الحق عنا ولم يدركنا البر. نترقب النور فإذا بالظلام. والضيء فإذا بنا سائرون في الديجور . . . لأن معاصينا معنا وآثامنا قد عرفناها:

- العصيان والكذب على الرب.
- والارتداد من وراء إلهنا.
- والنطق بالظلم والتمرد.
- والحيل بكلام الكذب.
- والتمتمة به في القلب.
- فارتد الحكم إلى الوراء، ووقف البر بعيدًا؛ لأن الحق عثر في الساحة، والاستقامة لم تقدر على الدخول فصار الحق مفقودًا . . .»^(١).

(١) سفر أشعيا. العهد القديم (٥٩/١-١٥).

هذا حديث كتابهم ونبيهم عنهم. ولا أظن أحدًا يقرأ هذا السجل الحافل بالشر والعتو والجريمة والإثم إلا حسب أنه حديث عن أسوء بشر وأحط قبيل وأقذر قوم وجدوا على ظهر الأرض.

يقول العالم والمؤرخ اليهودي «برنار لازاريه»: «اقتنع الرأي العام العالمي لأسباب كثيرة بميل اليهود إلى السحر. والأمر الذي يدعو إلى القلق هو اقتناعهم بهذه الفكرة وأن لها نصيبًا من الصحة إلى حد ما... في التلمود دروس خاصة في الدجل ونحن عاجزون عن تتبع العلوم الإبليسية الواردة في التلمود وخاصة في «كبالا»^(١)، وكلنا يعرف أن أعلى درجات السحر هو الذي يتم بدم الإنسان، كما نعرف جيدًا أخبار الصبية من غير اليهود الذين ذهبوا ضحية على أيدي اليهود في الطقوس الدموية اليهودية»^(٢).

ويقول العالم والمؤرخ المسيحي الأب قسطنطين: «إنني أظن أن الشيطان عند حضوره الكوكب الأرضي إنما يحضر متقمصًا الشكل اليهودي، وأقطع فوق ذلك بحضوره منتسبًا إلى «كبالا»؛ فإن كبالا أقصر جسر يربط بين المرء الضال والشيطان إنه جسر مبتور لا رجعة منه للضال»^(٣).

«بإمكانني القول إنني أعرف شعبًا واحدًا فقط يحس أن بإمكانه الادعاء بأنه

(١) كبالا: كتاب آخر لليهود لا يقل قبحًا ولا إجرامًا عن التلمود ويضم الأفكار والاعتقادات التي ترفضها جميع الأديان. وهو كتاب ملئ بالسحر الأسود الذي يبحث في علم الشيطان والأرواح الشريرة وعلم الأموات. ويتمسك معظم اليهود في العالم به ويسير عندهم جنبًا إلى جنب مع التلمود وهو أقدم من التلمود وهو قسمان: الأول: «سفر يتزيرا» أي كتاب التكوين، والثاني: «سفر هازهار» أي كتاب الضوء والنور، وفيهما من الرعب والإرهاب والعلوم الشاذة والغريبة. انظر: دائرة المعارف اليهودية (٦٥٠/٧) ط. الأولى ١٩٠٤م.

(٢) كتاب: مناهضة الشعوب السامية (٢/٢١٥).

(٣) كتاب: اليهود في كفة التاريخ (١٨٧).

تسلم أمرًا إلهيًا لإبادة كل السكان الذين انتصر عليهم. وهذا هو إسرائيل، وفي هذه الأيام من النادر أن يمعن المسيحيون واليهود النظر في وحشية «يَهُوَه» التي تفتقر إلى الرحمة التي لا تتكشف في النصوص المعادية فحسب وإنما أيضًا في الأدب ذاته الذي يعدونه مقدسًا^(١).

يقول الأب «مايكل بُرَيْر» رئيس كلية اللاهوت والدراسات الكتابية في كلية سانتا ماري بجامعة سَري: «على المرء أن يعترف بأن أجزاء كثيرة من التوراة. ومن سفر التثنية بشكل خاص، تحوي عقائد مخيفة وميولاً عنصرية وكراهية للغرباء، ودعمًا للقوة العسكرية... وقد قدمت على أنها تفويض من السماء. في إطار سفر تم الاعتراف به نصًا مقدسًا»^(٢).

ويقول المؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي: «إن جرائم إسرائيل أفظع من جرائم النازية»^(٣).

لقد هاجمت الصحف اليهودية الأمريكية توينبي واتهمته بمعاداة اليهود. فكتب مقالًا في شهر فبراير سنة (١٩٥٥م) قال فيه: «إن المكابيين أجبروا «أدوم» و«الجليل» على اعتناق اليهودية بالقوة. وبذلك مهدوا لأن يكون هيرودس «والمسيح» يهوديين، وليسوا من الأمميين... وإنه لمعزن حقًا أن تكون مجرمًا بالتعصب أو أن تكون ضحية له، وقد كان اليهود على التعاقب مجرمين به، وضحايا له منذ القرن الثاني قبل الميلاد، إن مأساة التاريخ اليهودي الحديث هي أنها بدلًا من أن يتعلم اليهود من مصائبهم وآلامهم قد صنعوا بغيرهم «العرب» ما

(١) G.E.M. de ste Croix ، in said 1988: 166.

(٢) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني للأب ما يكل بُرَيْر. (٢٢-٢٣).

(٣) كتاب: دراسة في التاريخ، فصل: اليهود والغرب الحديث (١١٩/٨).

صنعه الآخرون بهم أي النازيون»^(١).

• «وأما مدن هؤلاء الأمم التي يعطيها لكم يهوه إلهكم ملكًا، فلا تبقوا أحدًا منها حيًّا؛ بل تحللون إبادتهم، وهم الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون، كما أمركم يهوه إلهكم، لئلا يعلموكم أن تفعلوا الرجاسات التي يفعلونها في عبادة آلهتهم فتخطأوا إلى يهوه إلهكم»^(٢).

• «وأخرج داود الشعب الأسرى الذين بقوا في المدينة ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد، وأحرقهم في أثون الآجر، وهكذا صنع بجميع الأسرى من مدن عمون»^(٣).

• «أما الدانيون فقد أقبلوا إلى لايش ومعهم أصنام ميخا والكاهن فوجدوا شعبًا آمنًا مسالمًا فهاجموها، وقتلوا أهلها بحد السيف وأحرقوها»^(٤).

• «وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»^(٥).

• «فالآن اذهب واضرب «عماليق»، وحرّموا كل ماله ولا تعف عنهم؛ بل اقتل رجالًا وامرأة وطفلًا ورضيعًا، بقرة وغنمًا وجمالًا وحمارًا»^(٦).

• «كل من وُجد يُطعن، وكل من هرب يسقط بالسيف، وتحطّم أطفالهم أمام

(١) نقلًا عن كتاب: اليهودية العالمية وحريها المستمرة على المسيحية لإيليا أبوروس (ص ١٣٥).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر تثنية الاشتراع: ٢٠ (١٦-١٨).

(٣) المصدر السابق، سفر صموئيل الثاني: ١٢ (٣١).

(٤) المصدر السابق، سفر القضاة: ٢٧ (١٨).

(٥) المصدر السابق، سفر يشوع: ٢١ (٦).

(٦) المصدر السابق، سفر صموئيل الأول: ١٥ (٣).

عيونهم، وتذهب بيوتهم وتفضح نساءهم»^(١).

• «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة أمامك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم؛ فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم»^(٢).

هذه النصوص «مقدسة» من الكتاب «المقدس» الذي يدين به ويعتقه اليهود في العالم؛ بل وكل النصارى المؤمنون بالعهد القديم كجزء عظيم من الكتاب المقدس. وهي نصوص تثير الرعب، وتأصل القتل لكل شيء.

لذلك عاث اليهود في الأرض فسادًا وبرروا لأنفسهم قتل الأغيار، وإراقة الدماء، وحرقوا التوراة وحشوها بالحقد والقتل، ووضعوا الكتب المزورة المليئة بالقتل والشر والفساد والإفساد العظيم في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَفْلُوءَةٌ عَلَّتْ آيَاتُهُمْ وَلَمِنَا يَمَّا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنُيَبِّدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ثُمَّ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُفَيْنَا وَكُفِّرْنَا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وسأذكر طرقًا من جرائمهم البشعة:

أ- اليهود هم قتلة الأنبياء بامتياز وقتلة كل داعٍ للخير والعدل والسلام والهدى عبر تاريخهم الإجرامي الحافل والطويل:

يقول عنهم رب العالمين في كتابه المبين:

(١) المصدر السابق، سفر أشعيا: ١٥ (١٣).

(٢) المصدر السابق، سفر تثنية الاشتراع: (٧-١٠-٢٣).

• قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِفُرْقَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالْبَيِّنَاتِ وَإِلَازِي قُلْتُمْ قَلِيلًا فَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

• وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

• وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

• وقال تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

• وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّضْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

• وقد هَمَّوا بقتل نبي الله هارون عليه الصلاة والسلام لما نهاهم عن عبادة العجل من دون الله تعالى، فقال تعالى في هذا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

• وهمَّوا وعزموا على قتل نبي الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. ولولا أن الله تعالى أنقذه ونجاه ورفعته إليه لكان قد فعلوا جريمتهم النكراء. ولكن شُبَّهَ لهم. ومع هذا يعتقدون بل ويفاخرون

بأنهم قتلوا المسيح ﷺ. انتقامًا ونكاية.

قال تعالى فيهم: ﴿وَكُفِّرْهُمْ وَقُولِهِمْ عَلَىٰ مَرِيضٍ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٨﴾ وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

• قتلوا نبي الله زكريا وابنه السيد الحصور يحيي عليهما الصلاة والسلام: في إنجيل لوقا^(١): «سأرسل إليهم الأنبياء والرسل، سيقتلون منهم ويضطهدون يطالب هذا الجيل بدم جميع الأنبياء الذي سفك منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا الذي هلك بين المذبح والهيكل».

وفي متى^(٢): «يقع عليكم كل دم زكي سفك في الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح».

يقول أحد شراح الكتاب المقدس: «إن مقتل هابيل وزكريا هو المقتل الأول والأخير الوارد ذكرهما في الكتاب المقدس العبري (تك ٨/٤-١٠ وأخ ٢٤/٢٠-٢٢) وهما يمثلان كافة جرائم التاريخ المقدس بصرف النظر عن الشهداء اللاحقين كشهداء زمن المكابيين الوارد ذكرهم في العهد القديم اليوناني»^(٣).

• بل إنهم ليكملوا سلسلة جرائمهم القذرة ضد مصدر كل خير وعلم هدى، وهم الأنبياء ﷺ حاولوا مرارًا قتل سيد الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد ﷺ ليطفنوا بزعمهم أمل البشرية بالحق والهدى والنجاة، وليفصموا

(١) الإصحاح (١١/٤٩-٥١).

(٢) الإصحاح (٢٣/٣٥-٣٦).

(٣) انظر الكتاب المقدس، العهد الجديد الذي أصدرته الرهبانية اليسوعية والتي قام بها الأب حمودي اليسوعي وبطرس البستاني الصادرة سنة ١٩٦٩ م (٢٣٥).

بأيديهم الأثمة آخر حلقة من سلسلة الاتصال بالسماء، بمحاولتهم الخاسرة قتل خاتم الأنبياء، فداه أبي وأمي ونفسي ﷺ.

• خرج رسول الله ﷺ في نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، وَكَلَّمَهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَّةِ رَجُلَيْنِ مِنْ قَبِيلَةِ كَلَابَ قَتَلَهُمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ فِي قِصَّةٍ حَصَلَتْ، فَقَالَتْ يَهُودُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: نَفْعَلُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَاجْلِسْ هَاهُنَا حَتَّى نَقْضِيَ حَاجَتَكَ، وَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الشَّقَاءَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ، فَتَأَمَّرُوا بِقَتْلِهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّكُمْ يَأْخُذُ هَذِهِ الرَّحَا وَيَضَعُدُّ عَلَى ظَهْرِ الْبَيْتِ، فَيُلْقِيهَا عَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ يَشْدُخُهُ بِهَا؟ فَقَالَ: أَشَقَّاهُمْ عَمْرُو بْنُ جُحَاشٍ: أَنَا، فَجَاءَ الْوَحْيُ عَلَى الْقَوْرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُمَا بِهِ، فَتَنَهَّضُ مُسْرِعًا، ثُمَّ لَحِقَهُ مِنْ مَعِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَالُوا لَهُ: نَهَضْتَ وَلَمْ نَشْعُرْ بِكَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَمَّتْ بِهِ يَهُودُ، وَكَانَ ذَلِكَ نَقْضًا لِلْعَهْدِ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ سَبَبُ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ وَإِجْلَانِهِمْ. وَفِي خَبَرِهِمْ وَشَأْنِهِمْ نَزَلَتْ سُورَةُ الْحَشْرِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ^(١).

• ومرة أخرى وضعوا له ﷺ السم في لحم الشاة المشوية غدراً وجرمًا؛ فإنه لما فتح خيبر أهدت له امرأة من يهود خيبر شاة مشوية ووضعت فيها السم. وسألت أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثر السم في الذراع. فلما وضعت له ﷺ رفعت إليه الذراع فنهش منها. فأخبره الذراع أنه مسموم. فقال عليه الصلاة والسلام: اجمعوا لي من ها هنا من اليهود. فسألهم: أجمعتم في هذه الشاة سمًا؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك وإن كنت صادقًا لم يضرك^(٢).

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية (١٢٧/٣-١٢٩).

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٦٩). وانظر زاد المعاد (٣/٣٣٥).

وكان هذا السمّ هو سبب مرض رسول الله ﷺ بعد ثلاث سنوات مرضه الذي توفي فيه؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قال في مرضه ذاك: «ما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلت من الشاة بخير، وهذا أوان انقطاع أنبُهرِي»^(١).

قال الإمام الزهري رحمه الله: فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً^(٢).

ب- مذابح ومجازر سنة (٦١٤م):

بعد سقوط القدس تحت الاحتلال الساساني الفارسي في سنة (٦١٤م) دخل اليهود بصحبة الجيش الفارسي الغازي المحتل وارتكبوا أبشع أنواع المجازر والقتل بحق كل السكان النصراني في ذاك الوقت وكان الذين قتلوا أكثر من (٩٠,٠٠٠) شخص من الرجال والنساء والأطفال.

يقول المؤرخ الإنجليزي «هنري هارت فلمان» وهو رئيس كاتدرائية «سان بول» بلندن: «جاء ذلك في نهاية انتظار طويل لانتصار وانتقام. وهم لم يهملوا الفرصة. فقد غسلوا تجديف المدينة بدم المسيحيين وقد قيل إن الفرس باعوا الأسرى المساكين وكان انتقام اليهود أقوى من جشعهم. فهم لم يترددوا في التضحية بثرواتهم لشراء العبيد؛ بل قاموا بقتل كل من اشتروه ودفعوا ثمنه غالباً وأشيع في ذلك الزمن أن عدد الذين قتلوا كان (٩٠,٠٠٠) شخص»^(٣).

ويقول الأب «جورج وليمز» عن مجازر سنة (٦١٤م): «كل الأعمال الرهيبة

(١) صحيح البخاري (٤٤٢٨) في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته. وانظر زاد المعاد (٣/٣٣٦).

(٢) زاد المعاد (٣/٣٣٧).

(٣) كتاب: تاريخ القدس "History of Chetews". نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود؛ تأليف زياد منى (ص ٢٤٢).

التي رافقت نهب جيش بربري للمدينة عززها حقد اليهود ... لقد تبع اليهود
الفرس من الجليل لإرضاء انتقامهم بذبح المؤمنين. وهدم أكثر كنائسهم قدسية.
لقد غرقوا بشكل كامل في الدم. وفي غضون أيام سقط (٩٠,٠٠٠) مسيحي، من كلا
الجنسين. ومن كل الأعمار والمهن. ضحية كراهية اليهود التي لا تستثني أحداً^(١).
ويقول القس الفلسطيني «انطيوخوس سترانيغوس» في كتابه «الاستيلاء على
أورشليم»: «ابتهج اليهود الأدياء بشدة، ذلك أنهم يكرهون المسيحيين ورسوموا
خطة شيطانية ... وفي هذا الفصل اقتربوا من حافة البركة ونادوا أبناء الرب
المجوسيين فيها قائلين: إذا أردتم النجاة من الموت فصيروا يهوداً وأنكروا
المسيح، تتخلصوا آنئذ من الوضع الذي أنتم فيه سنحرركم بأموالنا،
وستستفيدون منا ... ولما تبين لليهود الأنجاس صمود المسيحيين وإيمانهم
الذي لا يتزعزع، استثيروا بغضب شديد ... كم من أرواح زهقت في بركة «ما
ميلا»، كم مات منهم جوعاً وعطشاً، كم قُتل من القسيسين والرهبان بحد
السيف ... من يستطيع إحصاء تلال جثث المذبوحين في أورشليم»^(٢).
ج. شهداء وشهيدات نجران:

إنها مذبحه تضاف إلى سجل اليهود الأسود المليء بالإجرام والقتل
والخراب والكراهية لكل ما هو من الأميين والأغيار.
وصدق الله العظيم في وصفهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

(١) كتاب: المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس (٢٤٤).

(٢) نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود؛ زياد منى (ص ٢٤٨-٢٤٩).

وقد اتفق على ذكر هذه الجريمة النكراء، المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية.

وأعظم وأوثق مصدر سجلها هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ۝ وَشَهِيدٌ ۝ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ ۝ وَاللَّهُ ذَاتُ الْوَقْدِ ۝ إِذْ هَرَّ عَلَى قُدُودٍ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

قال أبو محمد بن هشام رحمته الله: «وَيَنْجِرَانِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ دِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام عَلَى الْإِنْجِيلِ، أَهْلُ فَضْلِ، وَاسْتِقَامَةِ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ، لَهُمْ رَأْسٌ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ، وَكَانَ مَوْقِعُ أَضْلٍ ذَلِكَ الدِّينِ بَنْجِرَانِ... فَسَارَ إِلَيْهِمْ دُو نُوَاسٍ بِجُنُودِهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْقَتْلِ، فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَحَدَّ لَهُمُ الْأَخْدُودَ، فَحَرَقَ مِنْ حَرَقِ النَّارِ، وَقَتَلَ بِالسَّيْفِ وَمَثَلَ بِهِمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ أَلْفًا، فِي ذِي نُوَاسٍ وَجُنْدِهِ تِلْكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ﴾... الْآيَاتِ»^(١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمته الله: «وَاجْتَمَعَ أَهْلُ نَجْرَانَ عَلَى دِينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الثَّامِرِ، وَكَانَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَحُكْمِهِ. ثُمَّ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أَهْلَ دِينِهِمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ، فَمِنْ ذَلِكَ كَانَ أَضْلُ النُّصْرَانِيَّةِ بَنْجِرَانِ.

(١) السيرة النبوية (٣١/١) و(٣٥-٣٦)، وانظر: تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري (٤٣٥-٤٣٦).

فَسَارَ إِلَيْهِمْ ذُو نُوَاسٍ الْيَهُودِيُّ بِجُنُودِهِ مِنْ جَمِيرَ، فَدَعَاَهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوْ الْقَتْلِ، فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَحَدَّ لَهُمُ الْأَخْدُودَ، فَحَرَّقَ بِالنَّارِ وَقَتَلَ بِالسَّيْفِ، وَمَثَلَ بِهِمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ عِشْرِينَ أَلْفًا. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ: اِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ سَبْعِينَ أَلْفًا^(١).

هذا الصحيح إن شاء الله في خبر هؤلاء المؤمنين الذين حُرِّقُوا في الأخدود وأنزل الله فيهم سورة البروج.

ولا يشكل على هذا ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله في أواخر الجامع الصحيح من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ...، فذكر قصة الغلام والساحر والراهب وفيه: فَقَالَ النَّاسُ: أَمَّا يَرْبُ الْغُلَامِ، أَمَّا يَرْبُ الْغُلَامِ، أَمَّا يَرْبُ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَقْوَاءِ السَّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَصْرَمَ النَّيْرَانُ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِّي فَاخْمُوهُ فِيهَا، الحديث^(٢).

فهذا الحديث مختلف في رفعه ووقفه، فأخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فرفعه، وليس فيه ذكر أن هذه القصة هي التي عناها الله تعالى في سورة البروج.

وأخرجه الترمذي^(٣) من طريق معمر بن راشد عن ثابت عن عبد الرحمن موقوفًا من كلام صهيب، وفي حديثه ذكر في آخره يقول الله تعالى: ﴿وَقَتَلَ أَهْبَابُ

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٩٢).

(٢) صحيح مسلم رقم (٣٠٠٥).

(٣) الترمذي رقم (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب.

أَلْأَخْذُورِ ① أَلَّتَارِ ذَاتِ أَلْوَقُورِ إِلَى الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

فَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا قِصَّةُ أُخْرَى غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ^(١) . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
وَفِي رِسَالَةِ «مَارِي شَمْعُون الْأُورْشَمِي»: «جَمَعَ الْيَهُودُ كُلَّ الشَّهَدَاءِ وَأَحْضَرُوها إِلَى الْكَنِيسَةِ وَكَدَّسُوهَا هُنَاكَ ، ثُمَّ أَحْضَرُوا الْكَهَنَةَ وَالشَّمْسَاءَ الْإِنْجِيلِيِّينَ وَالْأَفْهِياقُونَ وَالْقُرَاءَ وَالْمَكْرُسِيِّينَ رِجَالًا وَنِسَاءً . وَحَسَبَ أَقْوَالِ الَّذِينَ قَدَمُوا مِنْ نَجْرَانٍ غَصَّتِ الْكَنِيسَةُ مِنْ جِدَارِهَا إِلَى جِدَارِهَا بِحَوَالِي أَلْفِي شَخْصٍ . ثُمَّ جَمَعُوا الْحَطَبَ حَوْلَ الْكَنِيسَةِ مِنَ الْخَارِجِ وَأَضْرَمُوا النَّيْرَانَ ، وَهَكَذَا أَحْرَقُوا الْكَنِيسَةَ بِكُلِّ مَنْ فِيهَا تَمَّ إِحْرَاقُ الْبَيْعَةِ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الشَّهَدَاءِ الْقُدِّيسِينَ وَالْأَسْقَفِ بُولْسَ وَرِجَالَ الْإِكْلِيروسَ ، وَسَائِرِ النَّاسِ كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا فِي الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ تَشْرِينِ الثَّانِي . وَفِي الْيَوْمِ ذَاتِهِ اسْتَشْهَدَتِ الشَّمْسَاءُ أَلْيَصَابَاتُ وَرَفِيقَاتُهَا . . .»^(٢) .

د . جَرَاثِمُ وَمَذَابِحُ الْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ وَغَيْرِهَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ :

حَدَّدَ «تِيودور هِرْتْسَل» (١٨٦٠-١٩٠٤م) أَهْدَافَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْيَهُودِ عَلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ بِأَنَّ الدَّوْلَةَ الْيَهُودِيَّةَ سَتَكُونُ : جِزْءًا مِنَ الْمَتْرَاسِ الْأُورُوبِيِّ ضِدَّ آسِيَا ، وَمُخَفَّرًا مُتَقَدِّمًا لِلْحَضَارَةِ فِي مَوَاجَهَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ^(٣) .

وَعِنْدَمَا نَاقَشَ مَا إِذَا وَجِبَ إِقَامَةُ الدَّوْلَةِ فِي الْأَرَجْتَيْنِ أَوْ فِي فِلَسْطِينَ قَالَ هِرْتْسَلُ : «فِلَسْطِينَ هِيَ وَطَنُنَا التَّارِيخِي الَّذِي نَتَذَكَّرُهُ عَلَى الدَّوَامِ ، إِنْ اسْمُ

(١) انظر فتح الباري (١٨/٣٥٠) .

(٢) انظر : نص الرسالة كاملاً في كتاب : قُدِّيسَاتُ وَمُلَكَاتُ مِنَ الْمَشْرِقِ السَّرْيَانِيِّ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ . تَأَلَّفَ : سِبْسْتِيَانُ بُرْكَ . وَسُوزَانُ هَارْفِي وَغُلْفُ بَوْدْسُك . تَرْجَمَهُ : فَرِيدَةُ بُولْسَ وَمَيْسُونُ الْحَجِيرِي (ص ١٢٣) .

(٣) كتاب الدولة اليهودية (٩٦) .

فلسطين تحديداً سوف يجذب شعبنا بقوة دفع عجيبة»^(١).

ويؤكد هرتسل على تفوق العرق اليهودي على غيره. وهي العنصرية الملازمة لكل يهودي.

فيقول هرتسل: «إن عرق مجتمعنا خاص ومتميز لأننا مرتبطون سوية من خلال إيمان آبائنا فحسب»^(٢).

واستخدم هرتسل مفاهيم «الشعب المختار» و «العودة إلى أرض الميعاد» كوسائل لتعبئة الرأي العام اليهودي.

وفي أول مؤتمر صهيوني الذي عقد في شهر آب أغسطس سنة (١٨٩٧م) في مدينة «بازل» السويسرية حدّد هرتسل هدف المؤتمر فقال: «إنه لمن مصلحة الأمم المتحضرة أكثر فأكثر وللحضارة بشكل عام أن تقام محطة متمدنة على أقصر طريق يؤدي إلى آسيا. والمحطة هي فلسطين ونحن اليهود حماة رايات المدينة مستعدون للتضحية بممتلكاتنا وأرواحنا من أجل قيامها»^(٣).

وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية "Der Judenst Uat" لتيودور هرتسل، التقى هرتسل «مؤسس الحركة الصهيونية اليهودية» في العاشر من مارس سنة (١٨٩٦م) بـ «وليم هتشلر» (Will iam Henry Hechler)^(٤).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٤٦).

(٣) المصدر كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني؛ تأليف الأب مايكل برير (ص ١٥٣).

(٤) انظر معلومات مفصلة عنه في كتاب الصهيونية المسيحية؛ تأليف: بول ميركلي (ص ٢٩).

وهذا اللقاء الأول بين الصهيونية اليهودية من جهة، والصهيونية المسيحية من الجهة الأخرى.

وقام كل منهما بتأليف كتاب عن إعادة اليهود إلى فلسطين، فأصدر هرتسل كتابه الشهير «الدولة اليهودية» صدرت الطبعة الأولى منه سنة (١٨٩٦م).

أصدر هتشلر قبل ذلك كتابه: إعادة اليهود إلى فلسطين طبقاً للنبوءة (Die Bevor steh ende Rueckkehr der Juden nach polaes tina).

وصدر سنة (١٨٨٢م).

وعن هذا اللقاء كتب هرتسل في مذكراته: «في العاشر من آذار مارس (١٨٩٦م) زارني وليم هتشلر، قسيس السفارة البريطانية في فيينا إنه رجل محب حساس ... وهو يعد حركتي «أزمة نبوءة» تكهن بها قبل عامين، لقد كان وفقاً لنبوءة تؤرخ من عهد حكم عمر^(١) (٦٣٧-٦٣٨م): أن فلسطين بعد اثنين وأربعين شهراً نبوياً، أي بعد ألف ومئتين وستين سنة ستكون أعيدت لليهود...»^(٢).

لقد اعتمدت الحركة الصهيونية اليهودية وكذا شقيقتها الحركة الصهيونية المسيحية على نبوءات أسفار الأنبياء في الكتاب المقدس خصوصاً هذه النبوءة من سفر أشعيا^(٣):

(١) يقصد الفتح الإسلامي للقدس ودخول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدينة القدس وتطهيره بنفسه موقع المسجد الأقصى الذي حوله النصارى إلى مزبلة ثم صلى فيه، ثم بناء المسجد وحكم المسلمون بيت المقدس وكتب لهم عمر الأمان كما هو مفصل في كتب التاريخ وكان ذلك ابتداء من سنة ١٥ هـ الموافق ٦٣٦ م والسنة التي تليها ١٦ هـ ٦٣٧ م. انظر: تاريخ الطبري (٤٤٨/٢-٤٥٠).

(٢) نقلاً من كتاب الصهيونية المسيحية. تأليف بول مركلي (ص ٢٦).

(٣) الكتاب المقدس. العهد القديم. سفر أشعيا. الإصحاح: ٦٠ (٩-١٤).

«جزر البحر تنتظر الرب.
 وسفن ترشيش في الطليعة.
 لتحمل بنيك من بعيد.
 ومعهم الفضة والذهب، لاسم يهود إلهك.
 لقدوسي إسرائيل الذي مجّذك».

وقال يهوه: «الغرباء بينون أسوارك.
 وملوكهم يكونون في خدمتك.
 كنت في غضبي عاقبتك.
 وفي رضائي الآن رحمتك.
 أبوابك تفتح دائماً.
 لا تنغلق نهاراً وليلاً.
 ليحيي إليك الأميون بكنوزهم.
 وتنقاد إليك ملوكهم.
 فالأمة التي لا تخدمك تبید.
 ومملكتهما تخرب خراباً.
 مجد لبنان يأتي إليك.
 وبنو الذين عذبوك يأتون إليك منحنين.
 ويسجد لأخمص قدميك.
 كل من استهان بك.

ويدعونك «مدينة الرب».

«صهيون قدوس إسرائيل».

ترضعين لبن الأمم.

وترضعين ثدي الملوك».

يقول بول يركلي معلقاً على هذا النص: «إذا كانت «ترشيش» تعني كما درج الباحثون الكتابيون على الزعم، جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئها ... ، والناس الذين يأتون بينيك من بعيد، كانوا متمثلين على نحو واضح ببريطاني عهد أوليفر كرمويل^(١)، إن البريطانيين هم الذين سيبنون أسوارك في أزمان قادمة وملوكهم يخدمونك»^(٢).

وفي النص: أن السكان الأصليين لفلسطين بحسب النص وبحسب توظيف الصهيونية اليهودية والمسيحية هم: أبناء الذين عذبوا اليهود ويجب بناء على ذلك أن يأتوا منحنين ويسجدوا تحت أقدام يهود، وينظروا لليهود على أنهم مقدسون.

ويجب بناء على النص: أن يبتزوا جميع الأمم ويرضعوا ثرواتهم وأن على الأممين من حولهم وملوكهم أن يأتوا إلى إسرائيل بثرواتهم وكنوزهم ويقدموها لهم، وينقادون إليهم وتصبح إسرائيل هي فوق كل القوانين وكل الأنظمة يحق لها فعل أي شيء تريد.

(١) أوليفر كروميل رئيس وزراء بريطانيا أول من رحب بعودة اليهود إلى إنجلترا ووضع حدًا للحظر الرسمي البريطاني المفروض عليهم من أيام الملك إدوارد الأول عام (١٢٩٠م) انظر كتاب: الصهيونية المسيحية (ص ٦١).

(٢) كتاب الصهيونية المسيحية (ص ٦٣).

وأن الأمة التي لا تخدمها فإن على من انشأوا إسرائيل تخريبها وإبادتها، هل هذا هو ما حصل ويحصل وتعمل إسرائيل وبريطانيا وأمريكا وغيرها عليه؟ وبناء عليه تقوم إسرائيل بإبادة وترحيل «ترانسفير» الشعب الفلسطيني في عملية إبادة وتصفية عرقية ليس لها في التاريخ الحديث مثيل، وبدعم من الصهيونية المسيحية ممثلة في بريطانيا وأمريكا.

إنها أبشع وأفظع جريمة قتل وإبادة وتطهير عرقي في التاريخ الحديث تتم باسم الربّ والنبوءات والكتب المقدسة.

ويشارك أئيم بين الصهيونية المسيحية والصهيونية اليهودية.

يقول بول ميركلي: «إن الحماسة للإعادة اليهودية لم يكن بأي حال من الأحوال محصوراً بـ (اليوريتانيين) من أمثال كرمويل، فالأنغليكان من كل الانتماءات حتى الكثير من مشاهير العقلايين، تشاركوا في عناصر الإيمان. ففي كتاب «تعليقات على رسائل القديس بولس» كتب جون لوك: «يستطيع الرب أن يجمعهم في كيان واحد... وأن يوفر لهم ظرفاً مزدهراً في وطنهم الخاص بهم»^(١).

وحتى «إسحاق نيوتن» فقد ترك أبحاثه العلمية لدراسة حركات الأجرام السماوية وكرّس آخر سنين حياته لإعداد كتاب تأملي هائل حول أحداث آخر الزمان. تعلم لأجله اللغتين العبرية والآرامية وهما لغتا أنبياء العهد القديم. واهتم بدراسة النبوءات. فأصدر كتابه الشهير: «نبوءات دانيال ورؤيا القدس يوحنا».

(١) كتاب الصهيونية المسيحية (٦٢).

"Observa tilons upon the prophec ies of daniel and taa ocalypse of st john".

وبناء على نبوءة منقولة من سفر دانيال^(١) والنبوءة السابقة من سفر أشعيا .
قال إسحاق نيوتن : «إن أمر العودة قد لا يأتي من اليهود أنفسهم؛ بل من مملكة أخرى صديقة لهم»^(٢).

كتب «إسرائيل زانغويل» (Zangwill Israel): «نادراً ما ألقى حدث مقبل بمثل هذا الظل الكثيف قبل وقوعه في الحقيقة مثلما فعل تدخل بريطانيا لمصلحة فلسطين يهودية»^(٣).

وحتى «نابليون بوناپرت» القائد الفرنسي الشهير في زحفه واحتلاله للمشرق الإسلامي وفلسطين وحربه ضد الدولة العثمانية واحتلاله فلسطين سنة (١٧٩٩م) وجه بياناً لجميع اليهود في العالم ليهبوا للعودة إلى أرضهم أرض الميعاد .
ثم في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩١٧م صدر وعد بلفور الشهير بإنشاء وطن قومي للعِرق اليهودي في فلسطين .

كتب «يوسف فايتس» (Yosef Weitz) مدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي ورئيس لجنة ترحيل العرب من فلسطين (ترانسفير) في مذكرته بتاريخ ٢٠ كانون أول (١٩٤٠م) فقال : «يجب أن يكون واضحاً فيما بيننا أن لا مكان في هذا البلد لشعبيين ... الحل الوحيد هو أرض إسرائيل

(١) «فاعلم وافهم أنه من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى رئيس مسيح سبعة أسابيع ثم في اثنين وستين أسبوعاً تعود تبني السوق والسور ...»، الكتاب المقدس . العهد القديم، سفر دانيال . الإصحاح : ٩ (٢٥-٢٧).

(٢) نقلاً عن كتاب: الصهيونية المسيحية (ص٦٢).

(٣) المصدر السابق (٦١).

بدون عرب . . . ليس هنالك من طريق آخر نسلكه سوى القيام بترحيل العرب إلى البلاد المجاورة . . . يجب ألا نبقي على قرية واحدة، يجب ألا نبقي على قبيلة واحدة . . .»^(١).

«من أجل غزوهم لفلسطين، كان اليهود بحاجة إلى تاريخ يشر بغزو وإبادة أي كائن بشري لا يعتنق ديانتهم، كما قلت بداية، فإن اللغة الدينية يمكن أن تكون عنيفة جدًا، لذلك أصبح هذا الأدب عنيفًا يشرعن الأشياء المقرفة مثل التطهير العرقي الذي مثلته فصول عزرا النساخ . . . في سفر إشعيا النبوي حيث يلام الجميع تقريبًا ويحكم عليهم بالتدمير المستقبلي؛ لأنهم لم يلتفتوا إلى «يهوه» وخالفوا تعاليم التوراة. إن هذا يفسر الكراهية في العهد القديم ضد أي شخص تقريبًا ليس عضوًا في المجتمع اليهودي، ويفسر على نحو خاص فكرة أن الكنعاني الجيد هو الكنعاني الميت، لأنك عندما لا تكون فردًا من شعب الرب المختار، فأنت جيد ميتًا»^(٢).

رغم علمانية الدولة، وأن زعماء الحركة الصهيونية المؤسسين لإسرائيل علمانيون يحرص اليهود على تجذير العمق الديني والبعد التاريخي في نفوس أطفالهم وشبابهم في امتلاك فلسطين وأنها حق خاص لهم، وأنه بناء على ذلك يحق لهم فعل كل شيء من القتل والإبادة والتطهير العرقي والترحيل (الترانسفير) للأغيار من سكان البلاد الأصليين.

وقد ازدادت نسبة التدين داخل المجتمع الإسرائيلي في فلسطين المحتلة،

(١) المصدر كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني للأب مايكل برير (ص ١٧٧).

(٢) يشوع والعنف الغربي، نيلز لمكة. (ص ١١٨). ضمن كتاب الجديد في تاريخ فلسطين القديمة.

يؤكد الباحث الإسرائيلي «سامي سموحة»: أن الشعب اليهودي وكذا الجيش مشبع بثقافة دينية حريدية^(١) تقوم على ثلاثة أسس:

١- العصبية والتميز العرقي (الشوفينية).

٢- القوة العسكرية المتفوقة.

٣- الكره والتشكيك في الأغيار «كل من ليس يهوديًا».

فيقول: «إن هذه الثقافة السياسية الجديدة تتغذى من مشارب الصهيونية بتأويلاتها اليمينية، والتي تعتمد على العصبية، والقوة العسكرية والجسدية؛ والأمة والأرض والتشكيك في الأغيار... وأن هذه الثقافة الجديدة تبشر بصيغة جديدة للصهيونية. تدمج بين القومية والقيم التقليدية والتراث الديني»^(٢).

يقول الباحث الفلسطيني نبيه بشير: «كشف لنا مؤخرًا بحث يستند إلى نتائج استطلاع رأي في هذا الصدد أن نسبة أبناء المجتمع الإسرائيلي الذين يُعرّفون أنفسهم بأنهم متدينون أو (حريديم) لم تتغير منذ العقد السادس حتى يومنا هذا. وتبلغ نسبة المتدينين في المجتمع الإسرائيلي اليوم حوالي (٥٣%)^(٣). ينتمون إلى ثلاثة أنماط. حريديم (٥٥%)، ومتدينون (١٢%)، وتقليديون (٣٥%)، في حين تبلغ نسبة العلمانيين حوالي (٤٣%) و (٥٥%) فقط معادون للدين»^(٤).

ويضيف أيضًا: «أما على صعيد عدد المقاعد في الكنيسة؛ فإن تغييرًا كبيرًا

(١) مصطلح يعني التشدد والتزمّت الديني.

(٢) نقلًا عن كتاب: عودة إلى التاريخ المقدس؛ لنبيه بشير (ص ٢١).

(٣) أي أكثر من نصف المجتمع.

(٤) عودة إلى التاريخ المقدس، الحريدية والصهيونية (ص ٢٤).

حصل في هذا الصعيد، ففي حين نال المتدينون في الكنيست الأولى عام (١٩٤٩م) ستة عشر مقعدًا فقط فقد نالت الأحزاب الدينية في الكنيست الخامس عشر لسنة (١٩٩٩م) سبعة وعشرين مقعدًا . . . أي أن هناك زيادة مقدارها (٧٠%) في عدد مقاعد المتدينين في البرلمان الإسرائيلي، بالإضافة إلى ثلاثة مقاعد أخرى لمتدينين في أحزاب غير دينية^(١).

وبهذا تحولت اليهودية في أذهان اليهود أنفسهم إلى نوع من النزعة العرقية. التي تعتقد أن الرب (يَهُوَه) حَلَّ فيهم دون سواهم. لذا فإن الشعب اليهودي حسب كل التفسيرات اليهودية المهيمنة هم مقدسون يحل بهم الرب ويسكن فيهم.

ويعتمدون على ما جاء في سفر التثنية^(٢): «أنتم أولاد لِيَهُوَه إلهكم . . . لأنك شعب مقدس لِيَهُوَه إلهك. وقد اختارك يَهُوَه لتكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

هناك فقرات عديدة في التوراة تصف اليهود وبني إسرائيل بأنهم مقدسون. • في سفر اللاويين^(٣): «إني أنا يَهُوَه إلهكم فتقدسون وتكونون قديسين؛ لأنني أنا قَدّوس. إني أنا يهوه الذي أصعدكم من أرض مصر ليكون لكم إلهًا. فتكونون قديسين».

• في سفر التثنية^(٤): «وواعدك يَهُوَه اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا، وتحفظ

(١) المصدر السابق (٢٥).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح: ١٤ (٢-١).

(٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر اللاويين، الإصحاح: ١١ (٤٤-٤٥).

(٤) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح: ٢٦ (١٨-١٩).

جميع وصاياه، وأن يجعلك مستعليًا على جميع القبائل التي عملها في الشاء والاسم والبهاء، وأن تكون شعبًا مقدسًا ليهوه إلهك».

في القرآن الكريم ذكر لهذه النفسية اليهودية الزاعمة أنها من نسل الإله وأنهم أبناء وأحباء، وأنهم يعتقدون أن هذا عهد أبدي سرمدي لا ينحل بصرف النظر عن كفرهم بالله وجرائمهم وقسوتهم وقتلهم الأنبياء الذي بسببه لعنهم الله بعد التقريب وطردهم وأبعدهم بعد الاختيار والاصطفاء.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفِرُّ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

قام الباحث الاجتماعي والنفسي الإسرائيلي، «جورج تمرين» (Georges Tamanin) بالبحث في آثار التعصب القومي والديني على التكوين الخلقي والنفسي لدى الشباب الإسرائيلي ومدى تأثير «الكتاب» خصوصًا سفر يشوع عليهم، وقام بهذا الإجراء سنة (١٩٩٣م).

وقد خرج بنتيجة: أن التكوين الثقافي والنفسي لغالبية الشباب اليهودي تقوم على عناصر ثلاث:

١- مفهوم (الشعب المختار) أي تفوق العنصر اليهودي على سائر الشعوب خصوصًا العرب.

٢- تفوق الديانة اليهودية.

٣- تسويغ أعمال الإبادة الجماعية والتطهير العرقي التي قام بها أبطال توراتيون.

اختار جورج تمرين سفر يشوع نظرًا لمكانته الخاصة في النظام التربوي

الإسرائيلي، إذ يقوم كتاريخ قومي وركيزة أساسية من ركائز الخرافة القومية الإسرائيلية.

واختار مجموعات من التلاميذ تتراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام ونصف وأربعة عشر عامًا. وطرح عليهم مقاطع من سفر يشوع وهي هذه:

• «فتفخ الكهنة في الأبواق، فهتف الشعب عند سماع صوتها هتافًا شديدًا، فسقط السور في مكانه. فافتحم الشعب المدينة، لا يلوي أحدهم على شيء، واستولوا عليها، وقتلوا بحد السيف جميع ما في المدينة من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير»^(١).

• «واحتل يشوع في ذلك اليوم «مَقِيدَة» وضربها وقتل ملكها بحد السيف وكل نفس فيها ولم يبق فيها باقيةً واجتاز يشوع ورجاله من «مقيدة» إلى «لبنة» فضربها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها، ولم يبقوا فيها باقيةً واجتاز يشوع ورجاله من لبنة إلى «الخش» وأحاط بها وحاربها فاستولوا عليها في اليوم الثاني وضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنة»^(٢).

ثم سألهم هذين السؤالين:

- ١- هل تعتقد أن يشوع وبني إسرائيل تصرفوا تصرفًا سليمًا أم لا؟
- ٢- افترض أن الجيش الإسرائيلي استولى على قرية عربية في معركة هل تعتقد أن من المستحسن أن يتصرف تجاه السكان كما فعل يشوع تجاه شَعْبِي أريحا ومقيدة ولبنة ولخش؟

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح: ٦ (٢٠-٢١).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح: ١٠ (٢٨-٣٢).

وخلص تَمَرين إلى نتائج أظهرت وجود موقف مفعم بالضغينة بين عدد غير قليل من الذين قدموا إجابات. وهو ما يَسُوغ الميول التمييزية الدينية والعصبية العنصرية.

وفسّر تَمَرين هذه النتائج بأنها برهان قاطع على تأثير الشوفينية والضغائن الدينية القومية على الموقف الخلقي.

وخلص تَمَرين إلى أن ما توصل إليه كان اتهامًا شديدًا للنظام التربوي الإسرائيلي. وأثار هذا البحث ضجة كبيرة وأطلق على المسألة (فضيحة تَمَرين). وقدّ كرسيه في جامعة تل أبيب، وفي رسالة وجهها إلى مجلس أمناء الجامعة قال فيها: «لم أكن أحلم بأن أصبح آخر ضحايا يشوع عندما استولى على أريحا»^(١).

هذا ما لقيه «جورج تمرين» اليهودي من الصهاينة اليهود. وهو يشبه عندي موجة الغضب والضغط التي تعرض لها باحث آخر مسيحي ولكن من قبل الصهاينة المسيحيين:

فقد أصدر الباحث البريطاني «كيث وايتلام» "Keithw. Whitelam" رئيس قسم اللاهوت بجامعة شفيلد ببريطانيا دراسة واسعة ممحصّة. استغرقت منه زهاء عشر سنوات (١٩٨٤م - ١٩٩٣م) بعنوان «تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني»^(٢) "TAE INNENTION OF ANCIENT ISRAEL"، وهي دراسة تكشف كل تلفيقات الصهيونية بالحق التاريخي والتوراتي بفلسطين.

(١) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني؛ للأب: مايكل برير (٥٩-٦٢) باختصار.

(٢) صدرت الطبعة الأولى باللغة العربية سنة (٢٠٠٠م) دار قدس للنشر والتوزيع، دمشق.

قال عنها «ستيفن هَلَوِي» رئيس رابطة المكتبات اللاهوتية الأمريكية: «هذه دراسة رائدة تأتي في وقتها المناسب، وسط حقل الغمام، ستثير الاستحسان في بعض الأوساط ولكنها ربما أثارت مخاطر الاتهام بالقذف والتشهير، وتهديدات بالقتل للمؤلف من آخرين، يستحق الكاتب أن يُهنأ على تقديم مرآة استفزازية إلى أقصى الحدود وفي معظم الأحيان أمينة، يستطيع مبدأ الدراسات الكتابية من خلالها أن يرى صورته كما هي في حقيقتها دون رتوش، وتجميل، يستحق هذا الكتاب أن يوزع على نطاق واسع ليس فقط بين قراء مجلة الأدب الكتابي؛ بل وبين المتخصصين، وغير المتخصصين المهتمين بالمصادقية الثقافية السائدة للاستشراق»^(١).

كتب «كيث وايتلام» في مقدمة الطبعة العربية لكتابه: «أثار ظهور كتاب: تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني. في مطلع عام (١٩٩٦م) جدلاً كبيراً في الصحافة المحلية في المملكة المتحدة، إضافة إلى مراجعات نقدية كثيرة في: صنداي تايمز، وهائير إديوكشن سبلمنت في التايمز، واكتسب النقاش حول تاريخ فلسطين القديمة في العصر الجديد أهمية فائقة وازدادت حميتته، بحيث أنه لفت الاهتمام خارج الحدود الضيقة للعالم (الأكاديمي) متجلباً في مقالات: ذِكْرُ نِكَلْ أدف هاير إديوكسن، وعلى الصفحة الأولى من: وول ستريت جورنال الأمريكية، وتراوحت ردود الأفعال في العالم (الأكاديمي) بين المجاملات والتأييد إلى النقد البناء، والهجمات العنيفة التي تشكك في أهليتي ودوافعي ...

لقد ساعدت العديد من الأبحاث. والأعمال الهامة التي حققها علماء

(١) من تريفز للكتاب، مجلة الأدب الكتابي.

الحفريات على دعم وتقوية الطروحات والاستنتاجات الأساسية في كتاب: تليفق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، وجاء أفضل توضيح لإحدى المسائل الأساسية في الكتاب والقائلة إن دراسة تاريخ إسرائيل قد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالتوجهات السياسية الحديثة في الغرب ...

من بين أقسى ردود الأفعال على طروحاتي: كتب «هزئيل شانكس» في آذار نيسان عام (١٩٩٦م) افتتاحية بعنوان (كيث وايتلام يدعي أن الدراسات الكتابية تقمع التاريخ الفلسطيني لصالح الإسرائيليين) بمجلة (بلكل أركيو لوجست رفئو ... وقد ادعى أنني مآكر وخطر وغير متوازن ودنئ الروحية وملئ بدهاء كبير وأني معادي للصهيونية، وأني أكاديمي مزيف، ولدئ شهوة قتل الأب، وأن ما قدمته تاريخ مسئس بشكل خطر ... ثم انتهى إلى القول: إننا لا نستطيع أن نأمل إلا في أن أناسًا مثل «وايتلام» لن يكتسبوا القوة الكافية لتدمير مجال عملنا في الوقت الذي يبذل السياسيون الدبلوماسيون أقصى جهدهم لإحلال السلام في الشرق الأوسط ...

وكذلك حاول «وليم دفر» أحد أبرز الأثاريين الأمريكيين أن يشكك أيضًا في طروحاتي عن تليفق إسرائيل التوراتية. وقد صارت من الشائع الإشارة إليّ وإلى باحثين من أمثال «فيليب ديفيس» و «نيلز لمكة»^(١). و«توماس طلمسن»^(٢) الذين

(١) البرفسور نيلز لمكة من الدانمارك له عدد من الكتب من أهمها: يشوع والعنف الغربي، واستخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض. طبعًا باللغة العربية ضمن: الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، دار قدمس، دمشق (٢٠٠٤م).

(٢) البرفسور توماس طلمسن له عدد من الكتب في هذا المجال من أهمها: هل ينبغي أن نترك التاريخ لعلماء الآثار، و: من العصر الحجري إلى إسرائيل، طبعًا ضمن: الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، دار قدمس، دمشق (٢٠٠٤م).

أثاروا التساؤلات حول الطريقة التي تم بها تحقيق تاريخ بني إسرائيل ووصفهم بأنهم «تحرّضيون» و «مقلّون» و «عدميون» في محاولة للتشكيك في صدقية أعمالهم.

وقد طرح «دُفّر» مؤخرًا أنه من المهم: «مواجهة [التحرّضيين] الذي هم في الواجهة لأنهم يتحولون بسرعة إلى دعاة فكريين، وفكرهم يشكل خطرًا على الدراسات الكتابية، وعلى الحفريات الأثرية الفلسطينية - السورية، وعلى الدراسات اللاهوتية والدينية، وعلى حياة كل من الكنيس والكنيسة، وحتى على الوضع السياسي في الشرق الأوسط»^(١).

جرائم يهود في فلسطين:

● المرحلة الأولى: ما قبل قيام دولة إسرائيل إلى قيامها سنة ١٩٤٨م:

بعد ذلك التحضير الهائل الفكري والديني والسياسي لقيام دولة لليهود على أرض فلسطين سبق ذلك أيضًا تحضير إجرامي بالقتل والتهجير.

كتب «هرتسل» في مذكرته بتاريخ (١٢ حزيران ١٨٩٥م): «عندما نحتل الأرض سوف نقدم منافع فورية للدولة التي تستقبلنا. علينا أن نصادر بهدوء الممتلكات الخاصة الموجودة على الأرض المخصصة لنا. ويجب أن نسهل انتقال السكان المعمدين خلصة عبر الحدود عن طريق خلق فرص عمل لهم في بلاد المرور ويجب أن تنفذ عمليتي المصادرة وانتقال الفقراء بتكتم وباحتراز»^(٢).

(١) كتاب: تليفق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني (٩-١٨)، وانظر بقية هذا الكتاب لأهميته.

(٢) نقلًا عن الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (١٥٧).

وفي رسالة أرسلها «حايم وايزمان» أول رئيس للدولة اليهودية في فلسطين إلى «آرثر بلفور» وزير الخارجية البريطاني وصاحب الوعد المشهور - بتاريخ (٣٠ آيار سنة ١٩١٨) قال فيها: «فيما يتعلق بفلسطين فإننا لا ننوي حتى الخوض الشكلي في استشارة رغبات السكان الحاليين. إن الدول الكبرى الأربع ملتزمة بالصهيونية. سواء كانت على صواب أم خطأ. سواء كانت جيدة أم سيئة. فهي متجذدة في التقاليد منذ الأزل وفي الاحتياجات الحالية، وفي آمال المستقبل ذات شأن أكبر بكثير من رغبات سبعمائة ألف عربي يقطنون الآن تلك الأرض»^(١).

وكتب يوسف فايتس -رئيس لجنة ترحيل السكان الأصليين (ترانسفير) ومدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي- بتاريخ (٢٠ كانون أول سنة ١٩٤٠) فقال: «يجب أن يكون واضحًا فيما بيننا، أن لا مكان في هذا البلد لشعبيين إذا ما غادرها العرب، ستصبح البلد شاسعة ورحبة لنا، الحل الوحيد هو أرض إسرائيل دون العرب، ولا مكان هنا للمساومات ليس هناك من طريق آخر نسلكه سوى القيام بترحيل العرب إلى البلاد المجاورة، أي أن نقوم بترحيلهم جميعًا... يجب أن لا نبقي على قرية واحدة، ويجب أن لا نبقي على قبيلة واحدة، يجب أن يتم الترحيل «الترانسفير» باتجاه العراق وسوريا، وربما شرق الأردن، ومن أجل تحقيق هذا الهدف لابد من تدبير الأموال، بعد الترحيل فحسب، سيصبح هذا البلد قادرًا على استيعاب الملايين من إخوتنا، عندها لن تبقى هنالك مشكلة يهودية قائمة، وليس هناك من حل آخر»^(٢).

(١) المصدر السابق (١٧١).

(٢) المصدر كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب: مايكل برير. (١٧٧-١٧٨).

١- رسم المخططون العسكريون الصهاينة خطتين (خطة: ج) و (خطة: د) وكان هدف الخطتين. الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي العربية وطرده أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين.

وكان المخطط الرئيس لهذه الخطط هو: «بيغال يادين» القائد العسكري لعصابات (الهأغاناه).

وكانت (خطة: ج): خطة مناورة لكسب الوقت لتعبئة القوات من أجل تنفيذ (خطة د) التي تقضي باحتلال الأماكن والأراضي والمواقع التي ستخليها القوات البريطانية.

وكانت الخطة تقضي بالقيام بهجوم أكبر مباغت ضد السكان المدنيين وكانت محطات إذاعة للهأغاناه تبث التهديدات للسكان العرب بإنزال أشد العقوبات بهم إذا لم يهربوا.

ووفقاً لبنود (خطة د) تدمير القرى التي قاومت ويطرد سكانها، وسقطت القرى العربية تباعاً على نحو متسارع (القسطل وقالونيا وخلدا وساريس ويدر وبيت سوريك وغيرها). ومع ذلك حتى القرى التي لم تبد أي مقاومة دُمّرت وكان تدميرها انحرافاً عن بنود (خطة: د) لكنها جاءت متطابقة مع الحلم والنفسية الصهيونية^(١).

٢- مذبحه دير ياسين:

في ليلة التاسع من نيسان (١٩٤٨م) بدأت قوات مشتركة من منظمين

(١) المصدر السابق (١٨٢) بتصرف.

(إرغون^(١)) و (شترون^(٢)) قوامها نحو (١٣٢) عضوًا مسلحًا تدعمهم مدفعية الهاون التابعة للهاغانا هجوميًا على قرية (دير ياسين) الفلسطينية في ضواحي مدينة القدس الغربية، وفي اليوم التالي اكتشف أن (٢٥٤) فلسطينيًا من سكان القرية بينهم أكثر من (١٠٠) امرأة وطفل قد ذبحوا ذبحًا وألقوا بعد رش جثثهم بالكبروسين في بئر وأضرمت فيها النيران. وتم اكتشاف حالات تمثيل بالجثث وحالات اغتصاب.

ومن العجب أن اثنين من رؤساء هاتين المنظميتين المجرمتين المسؤولتين عن هذه المذبحة البشعة أصبحا لاحقًا رئيسين للوزراء في دولة إسرائيل وهما: (مناحم بيغن) قائد الإرغون في الفترة من ١٩٤٣-١٩٤٨م، والآخر: (إسحق شامير) القائد المساعد لمنظمة شترون.

كان لتنفيذ (خطة د) وقع مدمر على السكان الفلسطينيين. وكانت هذه المجازر هي التفسير لرحيل معظم العرب من فلسطين، فقد غرق مئات الرجال والنساء والأطفال من مدن يافا وحيفا وعكا الساحلية وهم يتدافعون للحصول على قوارب نجاة تنقلهم إلى بر الأمان ولقد تم طرد مئات الآلاف عبر الحدود بواسطة الأولوية اليهودية والعصابات الصهيونية.

وما كاد شهر نيسان من سنة (١٩٤٨م) ينتهي حتى حققت (خطة د) أهدافها^(٣).

(١) اسمها (إرغون زفاي لثومي): المنظمة العسكرية القومية وهي مجموعة يهودية مسلحة تشكلت سنة (١٩٣١) من قادة صهيانية ملتزمين بإنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين.

(٢) نسبة إلى اسم مؤسسها: أفرهام شيترون المنشق عن الإرغون وهي تدعو إلى إجلاء قسري للسكان العرب من فلسطين.

(٣) انظر كتاب: النكبة؛ عارف العارف (١/٢١٧).



● المرحلة الثانية: من قيام إسرائيل ١٩٤٨ م إلى ١٩٧٣ م:

أعلن «دافيد بن غورين» في ١٤ آيار/ مايو (١٩٤٨م) قيام دولة إسرائيل أي بعد ٥٠ سنة من مقولة مؤسس الحركة الصهيونية هرتسل عندما قال ملخصاً أعمال المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا سنة (١٨٩٨م): «إذا طُلب مني أن ألخص المؤتمر في جملة. فسوف أحترس من البوح بها علناً، ستكون على هذا النحو: في بال أقمت الدولة اليهودية فلو قلت هذا بصوت عال اليوم، فسوف أستقبل بسخرية عارمة. ربما سيتعرف عليها كل الناس في غضون خمس سنوات. وفي غضون خمسين سنة بكل تأكيد»^(١).

ثم ربطوا ذلك بالكتاب المقدس لأن الخمسين سنة تعكس المصدر السماوي لاستحواذ الأراضي والاحتفال بالسنة الخمسين وسموها (السنة اليوبيلية) وقد سميت هكذا لأنها كانت تعلن نفخاً بالبوق «يوبل».

في سفر الأحبار^(٢): «واحسب لك سبعة أسابيع من السنين أي سبع مرات سبع سنين، فتكون لك أيام أسابيع السنين السبعة تسعاً وأربعين سنة. وانفخ في بوق الهُتاف في اليوم العاشر من الشهر السابع في يوم التكفير تنفخون في البوق في أرضكم كلها. وقدسوا سنة الخمسين ونادوا بإعتاق في الأرض لجميع أهلها. فتكون لكم يوبلاً فترجعوا كل واحد إلى ملكه . . . سنة الخمسين تكون لكم يوبلاً . . . إنها يوبيل فتكون لكم مقدسة».

بعد إعلان قيام إسرائيل دخلت بعض الجيوش العربية إلى فلسطين وقامت

(١) مذكرات هرتسل (٥٨/٢).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الأحبار، الإصحاح: ٢٥ (٨-١٢).

حرب مع القوات الصهيونية المتفوقة عليا. وهُزِمَتْ وفي نهاية الحرب سيطرت إسرائيل على عموم فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. ووقعت النكبة الفلسطينية^(١):

قُتِلَ فورًا الآلاف نحو (١٣ و ١٠٠٠) فلسطيني وشرّد نحو (٨٠٠ و ١٠٠٠) فلسطيني. أصبحوا مهجّرين^(٢).

وحسب تقرير وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة الصادر سنة (١٩٩٤م): فإن عدد المهجرين في الضفة الغربية (٥٠٤ و ٠٧٠) مهجر، أي ما نسبته (٤٢%) من السكان الفلسطينيين و (٦٤٣ و ١٠٠٠) مهجر في قطاع غزة، أي ما نسبته (٧٥ و ٧%) من إجمالي السكان.

وحسب تقرير منظمة (الأنروا) الصادر سنة (١٩٩٥م) فإن عدد المهجرين (٢٤٨ و ٦٤٥ و ٤) أربعة ملايين وستمائة وخمسة وأربعون ألفًا ومئتان وثمانية وأربعين مهجرًا فلسطينيًا يعيشون في أقصى درجات الفقر والبؤس في مخيمات في سورية ولبنان والأردن والشتات.

لقد تم تفريغ مئات القرى الفلسطينية من سكانها وتدميرها، وعلى عجل تم توزيع أكثر من ستة ملايين دونم من الأراضي الفلسطينية بين المستوطنات اليهودية التي تم إنشاؤها تباعًا بطريقة متسارعة.

(١) انظر: أبعاد وحجم هذه النكبة العظيمة في كتاب: النكبة، للمؤرخ الفلسطيني: عارف العارف، طبع: المكتبة المصرية. بيروت (١٩٦٠م).

(٢) هذه هي التسمية الصحيحة. لا كما يشير قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) أنهم لاجئون. لأن ميثاق الأمم المتحدة يعرف اللاجئ بأنه الشخص الذي يسعى للإقامة في بلد أجنبي. لا ذلك الذي أخرج بالقوة من بلده.

لقد تم تدمير مئات القرى تدميرًا كاملاً، وبحسب المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي فإن نحو (٤١٨)^(١) قرية فلسطينية دُمّرت وشرّد أهلها أو قتلوا.

وبعد تقديمه دراسة شاملة عن تدمير كل قرية مزودة بمواد إحصائية وطبوغرافية وتاريخية وأثرية. يقول وليد الخالدي مصوراً الأبعاد القاسية والخطيرة لهذه النكبة العظيمة: «إن استعادة الأحداث كما في هذا الكتاب لا يدعو إلى قلب حركة التاريخ ولا يدعو إلى نزع شرعية الصهيونية؛ بل هي دعوة إلى قطع سلسلة السببية التي قد كانت خلقت أبعاد مأساة الشعب الفلسطيني... بهذه الروحية تم تجميع هذا المجلد. ليكون مذكراً بالمساعي الإنسانية وأن ما يعمل به الإنسان لنفسه غالباً ما يكون مصحوباً بتدمير الآخر»^(٢).

وبعد هزيمة ١٩٦٧م احتلت إسرائيل الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية ومرتفعات الجولان السورية وغزة وسيناء من مصر.

وأقدمت إسرائيل مباشرة بتدمير أكثر من (١٣٥) بيتاً فلسطينياً في حي المغاربة بالقدس القديمة لفتح الطريق إلى إقامة ساحة حائط المبكى وأعلنت إسرائيل بأن القدس بأكملها: الشرقية والغربية يجب أن تكون العاصمة الأبدية لإسرائيل.

«إن الاستيلاء المنظم على الممتلكات الفلسطينية الخاصة والعامة الذي أعقب الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة. والتطورات منذ ذلك الحين توحي بأن الحرب كانت مرحلة إضافية في استراتيجية الاستيطان الصهيوني على أرض إسرائيل التوراتية، واتبعت كل الحكومات الإسرائيلية منذ عام (١٩٦٧م) سياسة الاستيلاء على الأراضي العربية.

(١) وليد الخالدي: النكبة (٢٨٦).

(٢) وليد الخالدي. النكبة (٣١٩).

بدأت جماعة (غوشي إيمونيم^(١)) بالاستيطان في كل أرض إسرائيل وتصاعدت عملية التهويد مع مجئ حكومة الليكود من عام (١٩٧٧-١٩٨٤م) وتم تبني وبشكل علني هدف غوش إيمونيم فيما يعرف (بخطة دروبس) (Drobess plar) كسياسة ممنهجة للحكومة. وكان غرضها دعم الاستيطان اليهودي والشامل والتأكيد بأن الوجود العربي لن يعود^(٢).

• المرحلة الثالثة: من حرب ١٩٧٣م إلى الآن:

بعد قصف إسرائيل للبنان عام (١٩٨٢م) مستخدمة ذريعة لذلك محاولة الاعتداء على حياة السفير الإسرائيلي في لندن شلومو آرغوف.

قام الطيران الإسرائيلي والزوارق الحربية بقصف المواقع الفلسطينية في جنوب لبنان وبيروت الغربية. وكان هدف إسرائيل القضاء النهائي على المشاعر الفلسطينية بالعودة إلى فلسطين.

ونتج من هذه العمليات العدوانية:

• عدد القتلى (١٧٨٢٥) وعدد الجرحى (٣٠٢٢٠٣) مع احتمال كبير أن تكون هذه الأرقام دون المستوى الحقيقي.

• وبلغ عدد المهجّرين من الفلسطينيين اللبنانيين ما بين (٥٠٠ و ٨٠٠) مهجر.

• في الأعوام من (١٩٨٤ - ١٩٨٨م) وأثناء فترة حكومة ائتلاف من (الليكود والعمل) حدث تسارع كبير في برنامج الاستيطان.

(١) المجموعة الاستيطانية الرئيسة تأسست عام (١٩٧٤م).

(٢) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني للأب مايكل بَير (١٨٩).



وما كاد عام (١٩٨٨م) ينصرم حتى سيطر اليهود على أكثر من (٥٢%) من الضفة الغربية، و (٤٠%) من قطاع غزة أرض دولة.

ووصل عدد المستوطنات في الضفة الغربية وحدها إلى (١١٧) مستوطنة كلها بنيت على أراضي استولوا عليها بالقوة وهجر أهلها قسراً.

إضافة إلى ثماني مستوطنات كبرى يهودية بلغ عدد سكانها أكثر من (١٠٠,٠٠٠) يهودي، شيدت كلها في القدس الشرقية التي نزعت بالقوة.

وفي قطاع غزة بلغ عدد المستوطنات (١١٤) مستوطنة يهودية.

وجرد السكان الفلسطينيين من جميع أراضيهم وممتلكاتهم حتى مياه الشرب والمياه الصالحة للاستخدام والتي هي حق للإنسان وحتى الحيوان والشجر والطيور.

عمدت إسرائيل إلى استغلال وقح وقدر للمياه الجوفية حتى صارت فعلياً وحصرها لصالح اليهود.

في عام (١٩٨٧م) قامت شركة المياه اليهودية (ميكوروت) بحفر عشرات الآبار العميقة من موارد المياه الجوفية العميقة في الضفة الغربية تضخ أكثر من (٤٢) مليون متر مكعب في السنة من المياه لكي توزع حصراً على المستوطنات اليهودية.

وقامت شركة (ميكوروت) أيضاً بحفر آبار عميقة بالقرب من الينابيع التي يستخدمها المزارعون الفلسطينيون مما أدى إلى جفاف الينابيع وضرر واضح للسكان الفلسطينيين.

ويقدر أن إسرائيل تضخ ثلث احتياجاتها السنوية من المياه وهو ما يقدر بنحو (١٨) بليون متر مكعب من أحواض المياه الجوفية في الضفة الغربية. لتحقيق ثلاثة أهداف:

- ١- تزويد إسرائيل بالمياه المناسبة.
- ٢- تزويد المستعمرات اليهودية في الضفة والقطاع بالمياه المناسبة.
- ٣- عملية تعطيش وإضرار واضحة للشعب الفلسطيني البائس الواقع تحت الاحتلال^(١).

إنها جريمة بكل المعاني.

وبعد انطلاق مدريد عام (١٩٩١م) وأوسلو وغيرها مما سُمِّي عملية السلام ارتكبت إسرائيل الجرائم الآتية:

١- عملية الحساب من ٢٥-٣١ من شهر تموز عام ١٩٩٣م وأرغم القصف المنظم المتواصل على لبنان إلى تهجير (٤٠٠,٠٠٠) مهجر رحلوا شمالاً وقتل أكثر من (١٣٠) شخصاً من المدنيين وأضرار جسيمة في نحو (٦٠) بلدة وقرية.

٢- مذبحه الجامع الإبراهيمي في الخليل في ٢٥ شباط (١٩٩٥م) قام متدين يهودي «باروخ غولد شتاين» بقتل (٢٩) مسلماً يؤدون الصلاة بالجامع الإبراهيمي إنها ليست جريمة فردية رعناء قام بها شخص متهور؛ بل جريمة منظمة يرعاها المستوطنون بتواطؤ من الدولة اليهودية. ولا أدلّ على ذلك من تحويل قبر هذا المجرم باروخ غولد شتاين إلى «نصب الشهيد» مطالاً على الحديقة المقامة على متنزه لتخليد ذكرى المجرم كاهانا^(٢) في مستوطنة «كريات أربع» وهي مزودة بخدمات الصلاة للقادمين لزيارة الضريح وجهاز خاص

(١) انظر كتاب: النكبة؛ عارف العارف (١١٠/٢-١١٤)، والكتاب المقدس والاستعمار (١٩٠-١٩١).

(٢) هو منير كاهانا مؤسس حزب كاخ الصهيوني المتطرف.

لإشعال الشموع لتخليد ذكرى هذا المجرم.

ويخاطب الحاخام «دوف ليور» ابن غولد شتاين «يأكوف يائير» ويقول له: «يأكوف يائير اتبع خطى والدك. لقد كان على حق وهو بطل عظيم»^(١).

أصبح قتل المصلين من خلف ظهورهم في المسجد حقًا مؤكدًا عند هذا الحاخام المجرم وهذا القتل الغادر بطولية عظيمة. هذه هي النفسية اليهودية عبر التاريخ. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٣- في شهر نيسان عام (١٩٩٦م) قامت إسرائيل بعملية عنيفة جدًا جنوب لبنان أطلقها رئيس الوزراء شمعون بيريز سميت «عناقيد الغضب» وتسبب القصف الجوي والبحري والبري الذي دام (١٦) يومًا في مقتل المئات من المدنيين بينهم عدد كبير من الأطفال، وإحداث دمار شامل للحياة المدنية في جنوب لبنان وإحداث حالة مأساوية بترحيل نحو نصف مليون مدني من منازلهم وقراهم. هربًا من جحيم القصف. حتى الكتيبة الفيجية التابعة للأمم المتحدة في قانا قصفت. ومن السخرية أن الذي أمر بهذه العملية الإجرامية شمعون بيريز هو الحائز على جائزة نوبل للسلام.

ومن المفارقات المثيرة للاشمئزاز. أنه وفي أثناء عملية عناقيد الغضب الإجرامية حدث أمران مثيران:

الأول: في أثناء شهر نيسان وأثناء القصف اليهودي المركز. يُعقد مؤتمر في لندن في نيسان (١٩٩٦م) بمناسبة مرور مئة عام على صدور الطبعة الأولى من كتاب ثيو دور هرتسل «الدولة اليهودية» في سنة (١٨٩٦م) في فيينا بسويسرا.

(١) انظر: تقرير القدس الصادر في ١٢ ديسمبر ١٩٩٦م (ص ١٠).

والثاني: في ١٥ نيسان (١٩٩٦م) يقدم رجل اسمه «زيمون سيرا فنيوفينس» وهو يبلغ من العمر (٨٥ سنة) يقدم للمحاكمة أمام محكمة جرائم حرب وكانت التهمة الموجهة له، قتل ثلاثة يهود خلال شتاء عام (١٩٤١-١٩٤٢م) أي قبل (٥٥ سنة) وتم إحضار نحو (١٦) شاهدًا من كل بقاع الدنيا. وقد صفق الرئيس التنفيذي لمجلس النواب البريطاني لهذا العمل. وقال: لتأخذ العدالة مجراها...^(١).

٤- أصدر مركز المعلومات الوطني الفلسطيني إحصاءات حول انتفاضة الأقصى للفترة من ٢٩/٩/٢٠٠٠م إلى ٣١/١٢/٢٠٠٣م.

على النحو الآتي:

- (١) عدد الشهداء (٣٤٤٣) شهيدًا.
- (٢) من الأطفال (٥٢٦) شهيدًا.
- (٣) من النساء (١٨٨) شهيدة.
- (٤) الشهداء عن طريق الاغتيالات (٣٠٠) شهيد.
- (٥) الشهداء من المرض بسبب الحواجز (١٠٣) شهيد.
- (٦) الشهداء بسبب اعتداء المستوطنين اليهود (٤٢) شهيدًا.
- (٧) إجمالي عدد الجرحى (٤٦٦٧٩) جريحًا.
- (٨) إجمالي عدد الأسرى في السجون اليهودية (١١١١٢) معتقلًا
- موزعين على ٢٢ سجنًا يهوديًا من بينهم ٦٨ امرأة.
- (٩) عدد الأشجار التي تم اقتلاعها (٩٨٢١٥٤) شجرة تشمل

(١) انظر كتاب: الصهيونية المسيحية (١٩-٢٠) والكتاب المقدس والاستعمار (٣٧٦).



الزيتون والبرتقال وغيرها.

(١٠) إجمالي ما تم تجريفه من الأراضي (٦٢٢٠٣) دونماً.

(١١) إجمالي عدد المنازل التي هدمت أو تضررت (٥٩٩٠٠) منزلاً.

(١٢) نسبة الفقر في الأرض الفلسطينية بسبب سياسة الإغلاق والحصار (٦٠%).

(١٣) نسبة العاطلين تماماً عن العمل (٤٢,٧%).

٥- وبعد توقيع (أوسلو ٢) فرضت إسرائيل عقوبات جماعية قاسية جداً على الشعب الفلسطيني ولكن مدعمة هذه المرة بالشرطة التابعة للسلطة الفلسطينية. وأدى الإغلاق الداخلي لمدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة إلى زرب المواطنين الفلسطينيين في كتتنونات أشبه بمعقل كبير يشبه ما كان يسمى في جنوب أفريقيا أيام الحكم العنصري «بانتوستانس» (Bantustans)، وما كان يسمى في أمريكا اللاتينية أيام الاستعمار الأسباني: (Congregation's).

٦- وأخيراً ويظهر أنه ليس آخرًا في ديسمبر (٢٠٠٨م) وأوائل يناير (٢٠٠٩م) ترتكب إسرائيل اليهودية متغذية بكل أحقاد الماضي جريمة من أبشع الجرائم في التاريخ الحديث على مرأى ومسمع من العالم كله الذي ظل متفرجًا لا يحرك ساكنًا قامت إسرائيل وعلى مدى (٢٣) يومًا بقصف عنيف ومركز جوى وبحري وبري على قطاع غزة المحاصر أصلاً. وتستخدم علناً وعلى مرأى العالم أجمع ما يسمى بالأسلحة المحرمة دوليًا كالفسفور الأبيض وغيره، لتقتل وتبيد العزل من الرجال والنساء والأطفال وتحرق كل شيء بدون استثناء، ونتج من هذه العملية الإجرامية:

- (١) قتل أكثر من (١٥٠٠) فلسطيني ومنهم نحو (٦٠٠) طفل.
- (٢) تدمير مئات المنازل على رؤوس أهلها لتصبح مئات العائلات تحت البرد الشديد في العراق.
- (٣) قصف محطة الكهرباء الوحيدة وتدميرها لتغرق غزة في برد وظلام دامس.
- (٤) إغلاق جميع المعابر بما فيها مع الأسف معبر رفح المصري لمنع جميع الطواقم الطبية والهيئات الإغاثية والمساعدات الإنسانية والطواقم الإعلامية إمعاناً في الجريمة ودفناً لها تحت ركام غزة المدمرة.
- ولا يزال القتل والفساد والتدمير اليهودي مستمراً.
- لقد قابل اليهود بأفعالهم هذه، بالنكران كل التسامح الكبير الذي وجدوه من المسلمين في القرون الوسطى وما قبلها وبعدها.
- اعترف بذلك كثير من مؤرخيهم. مع حقائق التاريخ والواقع.
- فمنذ أن دمر البيزنطيون مدينة القدس سنة (٧٠م) لم يجد اليهود ملاذاً آمناً على أنفسهم ودينهم وكتبهم. وكذا الموحدون من النصارى كطائفة الأرسين أتباع «آريوس». أسقف الإسكندرية، لم يجدوا لهم ملاذاً آمناً أيضاً إلا في الجزيرة العربية وأطرافها. وهذا ما يفسر وجود طوائف وقبائل اليهود في الجزيرة العربية كالمدينة وتيماء وخيبر واليمن. وكذا النصارى بنجران والحيرة. ونحوها، وانتظاراً للنبي الخاتم الموعود الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.
- يسجل «لود فيغ هاغمن» هذه الشهادة: «فمنذ تدمير الرومان «القدس» في عام (٧٠م) هاجر اليهود إلى شبه الجزيرة العربية، واستقروا في الواحات الواقعة

على طريق القوافل الغربية الذي يسمونه «درب البخور». كما وصل المسيحيون أيضًا إلى ذلك الطريق، ولا سيما أثناء المشاحنات المسيحية المتعلقة بطبيعة المسيح التي حدثت في القرنين الرابع والخامس حيث كان يجد الملاذ هنا بوجه خاص مسيحيون ينتمون إلى مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح «ونساطرة» يؤمنون بطبيعتين منفصلتين للمسيح إلهية وبشرية، وتمكنوا من الإفلات من قبضة كنيسة الإمبراطورية البيزنطية^(١).

وقد كان في زمن النبي ﷺ بقايا من موحيدي النصارى رافضين لفكرة «بولس» و«بطرس» الإنطاكي وغيرهم في التثليث ونسبة الولد إلى الله تعالى، ومنهم «الآريسيون» أتباع «آريوس» أسقف الإسكندرية^(٢) الذي ناظر بقوة الأسقف «أثنا سيوس» رئيس شماسية الإسكندرية في بلاط الإمبراطور «قسطنطين» بأثنا في مجمع «نيقية» الشهير سنة (٣٢٥م)^(٣) وقد توفي بعد ذلك بعد عودته إلى الإسكندرية في ظروف غامضة^(٤).

ولما كتب النبي ﷺ كتابه المشهور إلى «هرقل» عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام. حمل النبي ﷺ هرقل إثم هؤلاء «الآريسيين» الرافضين للتثليث. المؤمنين ببشرية المسيح وما يلقونه من اضطهاد.

ففي كتابه عليه الصلاة والسلام لهرقل: «أسلم، تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؟ فإن عليك إثم الآريسيين»^(٥).

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق (٢٩).

(٢) انظر عنه كتاب: تاريخ الأقباط؛ زكي شنودة (١٥٠/١).

(٣) انظر المصدر السابق (١٥٤/١).

(٤) انظر: دائرة معارف القرن العشرين؛ فريد وجدي (٢٠٣/١٠).

(٥) صحيح البخاري رقم (٧).

قال ابن الأثير رحمته الله: «قال بعضهم: إن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية فجاء على النسب إليهم»^(١).

ويقول أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون بالولايات المتحدة «مارك ر. كوهين»: «أنفقت جُلّ حياتي العلمية كمؤرخ للقرون الوسطى، في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود الذين أقاموا في البلاد الإسلامية، وقد سعت في هذا الكتاب الذي طبع أول مرة سنة (١٩٩٤م) إلى فهم السبب الذي جعل القرون الوسطية الإسلامية (أي الفترة الممتدة ما بين ظهور الإسلام وحكم المماليك) أكثر أمانًا وسلامًا بالنسبة إلى اليهود مما كانت عليه حياتهم في شمال أوروبا المسيحية وغربها»^(٢).

ويقول أيضًا: «كان الرأي الشائع وقتئذ يذهب إلى أن اليهود «تحت نفوذ الهلال» قد تمتعوا بالاستقرار وحماية عظمى، ودرجة عالية من الاندماج السياسي والثقافي أكثر مما حظي به اليهود الذي كانوا «تحت نفوذ الصليب»، كان هذا صحيحًا خصوصًا في ما يتعلق بالاضطهاد الذي لحق باليهود «الأشكناز» في أوروبا الغربية فالتكافل (Symbiosis) الديني الإسلامي اليهودي المثمر. مثلما عبّر عنه «س. د. جويتاين - Goitein. D. S.» (وهي عبارة أدق من عبارة «عصر ذهبي» فيما كان أستاذي «جرسون د. كوهين» (Gersnd. Coben) يتكلم عن نخبة من فئات قليلة من الرجال الذهبين تناقض بشكل صارخ السجل المحزن للمواجهات بين اليهود والمسيحيين في بلاد الأشكناز»^(٣).

(١) النهاية في غريب الحديث (٣٨/١).

(٢) بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى (١١).

(٣) المصدر السابق (١٥).

ويقول المؤرخ «كلود كاهين - Claude Cahen»: «ليس ثمة شيء في الإسلام في القرون الوسطى يمكن تسميته تحديداً بمعاداة السامية».

«إن الموضوعية تحتم علينا أن نحاول مقارنة عدم التسامح المسيحي بنظيره الإسلامي لما لهما من أوجه شبه وأوجه اختلاف. إن الإسلام بغض النظر عن عديد من الاضطرابات قد أظهر من التسامح إزاء اليهود الذين عاشوا في بلاد المسلمين أكثر مما أظهرته أوروبا»^(١).

ويقول المؤرخ الشهير «حاييم هليل بن سسون - Haim Hillel Ban Sasson»: «إن الوضع القانوني والحماية التي كان يتمتع بها اليهود في البلاد الإسلامية كان عموماً أفضل مما كان عليه الحال في البلاد المسيحية؛ لأن اليهود في السياق الأول لم يكونوا الكفار الوحيدة. فبالمقارنة مع المسيحيين، كان اليهود أقل خطراً وأكثر ولاء للحكم الإسلامي ثم إن سرعة الغزوات الإسلامية واتساع مجالها قد فرضتا على المسلمين تخفيف الاضطهاد وضمان إمكانات كبيرة لبقاء أتباع عقائد أخرى في بلدانهم»^(٢).

لقد كان للمؤرخين اليهود موقفاً وهم يؤرخون لأحوال اليهود وأوضاعهم. تحت الحكم الإسلامي. وفي المقابل أحوالهم تحت الحكم المسيحي الأوروبي.

فأحوالهم تحت حكم الصليب عرف با «الفهم البكائي لتاريخ اليهود».

وأحوالهم تحت حكم الإسلام عرف با «التعايش الديني المثالي في بلاد الإسلام».

(١) نقلاً عن كتاب: بين الهلال والصليب. مارك ر. كوهين (٢٠-٢١).

(٢) المصدر السابق (٢١).

يمثل هذا الاتجاه بوضوح عميد مؤرخي اليهود في القرن التاسع عشر الميلادي وهو «هافريش غرايتز Heinrich Graetz».

يذكر في كتابه «تاريخ اليهود» أحوالهم في البلاد العربية فيقول: «إن عين الملاحظ لتقف مبتهجة لحال اليهود في شبه الجزيرة العربية عندما تضيق بتأمل حالتهم التعيسة في موطنهم القديم، في البلاد الأوروبية، وترهقها رؤية الضغينة المتمكنة في المسيحية، فهنا كان اليهود أحرارًا ليرفعوا رؤوسهم، ولم يحتاجوا أن ينظر إليهم نظرة تخويف وإذلال، خشية أن يحيق بهم الغضب الكنسي أو أن يغمرهم جاء السلطة الدينية، هنا لم يوصد الباب دونهم وسبيل المجد، لا ولم يُمنعوا من حظوة الدولة بل الأمر على العكس فقد سُمح لهم أن يُطوّروا قواهم دون عوائق، ضمن شعب حر بسيط ومبدع، ليظهروا شجاعتهم الرجولية، فينافسوا من أجل نيل شهرة ويطاولوا أعداءهم السيوف بيد مجربة»^(١).

ثانيًا: النصارى:

- «الله محبة، فمن أقام في المحبة أقام في الله، وأقام الله فيه»^(٢).
- «أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضكم، وباركوا لاعنيكم، من ضربك على خدك فاعرض له الآخر، وكل من سألَكَ فأعطه، ومن اغتصب مالك فلا تطالبه به، وكما تريدون أن يعاملكم الناس فكذلك عاملوهم»^(٣).
- «كل ما تكره لا تفعله لأحد من الناس»^(٤).

(١) نقلًا عن المصدر السابق (٣٣).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة يوحنا الأولى، الإصحاح: ٤ (١٦).

(٣) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ٦ (٢٧-٣١).

(٤) المصدر السابق، سفر طوييا، الإصحاح: ٤ (١٥).

• «كل ما تحبون أن يفعل الناس لكم فافعلوه أنتم لهم هذه هي الشريعة والأنبياء»^(١).

• «المحبة تصبر، المحبة تخدم ولا تحسد . . . لا تحق، ولا تبالي بالسوء، . . . وهي تعذر كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتحمل كل شيء»^(٢).

لما اعتمد النصارى على مختلف طوائفهم توراة يهود وأسفار الأنبياء ضمن الكتاب المقدس، تحت مسمى «العهد القديم».

ظهر التناقض الصارخ بين الدموية، والدعوة للحرب والقتل والإبادة التي تطفح بها كتب يهود كما ذكرنا قبل خصوصاً سفر «يشوع» وسفر «تثنية الإشتراع». وبين هذه النصوص في الأناجيل وكتب العهد الجديد الداعية للمحبة والتسامح. حتى مع الأعداء.

لقد لحظ بعضهم^(٣) ذلك وسجّل اعتراضه فقال: «كيف يأمر الله اليهود بواسطة موسى أن يلتمسوا الغنى والسلطة، ويتكاثروا حتى يملثوا الأرض، وأن يقتلوا أعداءهم ويذبحوا الأطفال، ويفنوا الشعوب عن بكرة أبيها، ثم يطلع علينا بعدها ابنه الناصري»^(٤) بتعاليم مغايرة جداً تقول: أن لا الغني ولا الطامح إلى السلطة مؤهل للإقامة بجوار أبيه وأنه يفترض بك إذا ما تلقيت صفقة من أحدهم، أن تعرض نفسك لاستقبال أخرى! فمن تراه يكذب؟ موسى أم يسوع؟

(١) المصدر السابق: إنجيل متى، الإصحاح: ٧ (١٢)، ولوقا، الإصحاح (٣١/٦).

(٢) المصدر السابق: الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس، الإصحاح: ١٣ (٤-٧).

(٣) هو الفيلسوف سابلوس ونني عاش في القرن الثاني الميلادي. انظر موسوعة أعلام الفلسفة؛ لروني إيلي ألفا (١/٥٣١).

(٤) يقصد المسيح ﷺ.

وهل نبي الله عندما أرسل ابنه ما سبق أن قاله لموسى وجهًا لوجه؟^(١).
وقد تصدى للرد عليه فيلسوف لاهوتي يدعى «أوريغانس»^(٢) سالكًا مسلكت
التأويل الشديد على أنها نضال الروح ضد الجسد^(٣). فلم يقدم جوابًا. بل زاد
إشكالاتًا.

هذه النصوص التي يتغنى بها المصلون في كنائس النصارى على اختلاف
طوائفهم لم تغن شيئًا دون بروز الرغبة في نفوس النصارى بالتفوق على بقية
البشر ووجوب حمل السلاح وإخضاع العالم تارة للكنيسة وتارة لأطماع الملوك
والدول المسيحية المتعاقبة.

بل استخدموا مصطلحات «الحرب المقدسة»، «الحرب من أجل يسوع»،
«الحرب العادلة»، وغيرها من الشعارات لتأجيج المشاعر ثم ممارسة القتل
والحرب والإبادة باسم السيد المسيح والكتاب المقدس ومباركة الرب.
ووجد الرهبان والقسس والأباطرة والملوك في الكتاب المقدس وفي العهد
الجديد أيضًا مضافًا إلى ما يطفح به العهد القديم ما يسند هذه النفسية المتعطشة
للقتل والإبادة من أجل شهواتها ومن أجل الاستغلال وتوسيع الممالك. ونحو
ذلك ن الأهداف الدينية.

• في إنجيل متى^(٤): «لا تظنوا أنني جئت لأحمل السلام إلى الأرض، ما

(١) نقلًا عن كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح؛ جوزيف لوكليير (٦٧-٦٨).

(٢) هو الفيلسوف «أوريجينس» لاهوتي يوناني توفي سنة ٢٥٣م، في كتابه الرد على
«سابليوس»، انظر: موسوعة أعلام الفلسفة. إعداد الأستاذ: روني إيلي ألفا (١/١٤٧).

(٣) انظر كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٦٨).

(٤) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٠ (٣٤-٣٦).

جنت لأحمل سلامًا بل سيفًا، جنت لأفرّق بين المرئ وأبيه، والبنت وأمّها، والكثّة وحمااتها، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته».

• وفي إنجيل لوقا^(١): «من لم يكن معي كان عليّ^(٢)، ومن لم يجمع معي كان مبدّدًا».

• وفي متى^(٣): «من لم يكن معي كان عليّ، ومن لم يجمع معي كان مبدّدًا».

• وفي لوقا^(٤): «أتظنون أنني جنت لأجل السلام في الأرض؟ أقول لكم: لا؛ بل الانقسام. فيكون بعد اليوم خمسة في بيت منقسمين ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة، سينقسم الناس فيكون الأب على ابنه، والابن على أبيه، والأم على ابنتها، والبنت على أمها، والحماة على كُنَّتها، والكثّة على حمااتها».

يقول الأب مايكل بُزَيْر: «تقدم الحروب الصليبية مثالًا صارخًا على الرابطة بين الدين والسلطة السياسية، وتمثل كيف تم توظيف «الكتاب» أداة للقمع، ويكفي هنا أن نشير إلى نمط التفكير الديني واللاهوتي اللذين قدّما تسويغًا لمثل ذلك التصرف. ويمكن العثور على جذور التسويغ البابوي للعنف في إنكار القديس أغسطين الذي لجأ إلى «العهد القديم» ليظهر أن من الممكن أن يأمر به

(١) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١١ (٢٣).

(٢) تُرى هل كان الرئيس الأمريكي جورج بوش «الصغير» مستحضرًا هذه الجملة من الإنجيل. عندما أعلن في أعقاب أحداث (١١/٩/٢٠٠١) أن من لم يكن معنا فهو ضدنا، ليقسم العالم كله إلى أنصار له. وأعداء. ولو لم يسجلوا أي موقف عدائي لأمريكا؟!

(٣) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٢ (٣٠).

(٤) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٢ (٤٩-٥٣).

الرب مباشرة، لقد كانت الحرب التي شُنت باسم الرب «حرباً عادلة» بامتياز. وعُدَّ إنكار خُلُقِيَّةِ شن حرب موافق عليها سماوياً نفيًا لوجود العناية الإلهية بحد ذاتها. علاوة على ذلك فإن الرب سيساعد أولئك الذين خاضوا حروباً باركتها السماء كما ساعد الربُّ بني إسرائيل في الانتصار على الأموريين»^(١).

يقول المؤرخ الشهير آرنولد توينبي: «إن اعتقاد بني إسرائيل المسجل كتابياً بأن «يَهُوَه» حضهم على إبادة الكنعانيين هو الذي أقر للإنجليز الاستيلاء على أمريكا الشمالية وإيرلندا وأستراليا، وأقر للهولنديين الاستيلاء على جنوب أفريقيا، وللبروسيين الاستيلاء على بولندا، وللصهاينة الاستيلاء على فلسطين»^(٢).

ويقول الأب مايكل بَرِير أيضاً: «اكتشفت بعد عودتي إلى القدس في آب عام (١٩٩٤م) أن بعض التقاليد الكتابية، إضافة إلى كونها انتشرت دعمًا للصهيونية؛ فإنها أيضاً قدمت جزءاً من التسويغ العقدي للفصل العنصري في جنوب أفريقيا أيضاً، وفوق ذلك قدم اللاهوت المسيحي الدعم الفكري للغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية. إذن بدا واضحاً الآن أن القصص الكتابية أسهمت في معاناة أعداد لا تحصى من المواطنين المحليين الأصليين . . . إن القصص الكتابية قد شجعت فعلياً كل أشكال الاستعمار العسكري المنبعث من أوروبا من طريق تزويده بالشرعية السماوية للمستعمرين الغربيين في حماسهم لزرع «مراكز تقدم» في «قلب الظلام» . . . أن التفسير النزيه للتقاليد الكتابية التي تأمر بالأعمال الفظيعة. وجرائم الحرب قد قدمت العزاء والسلوى لأولئك المصممين على

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٥٧).

(٢) المصدر السابق.

استغلال الأراضي الجديدة على حساب الشعوب المحلية الأصلية. هناك دليل وافر بأن «الكتاب» كان ولا يزال إلى حد ما المثل الأعلى الذي يسعى إلى استلاب الأرض بالفتوحات»^(١).

إن ما أصاب اليهود من فوييا ضد الأغيار. واستغلال للنصوص المقدسة لتبرير القتل والإبادة واستلاب الثروات. أصاب نظيره النصارى مع زيادة إرغام الناس على المسيحية أو القتل والإبادة باعتبار أنهم لا يستحقون الحياة.

وهي مخالفة صريحة لأعظم تعاليم «بولس الرسول» التي يتغنى بها النصارى من دعوته الصريحة لحرية الإنسان وأن قبول المسيحية إنما هو للتحرر من عبودية الفساد. ولذا برّر لأتباعه تحمل اضطهاد اليهود لهم، تمسكًا بالحرية التي وفرّها لهم إيمانهم بيسوع المخلص.

في رسالته إلى أهل رومية نجده يقيم تعارضًا بين «عبودية الفساد» و «حرية أبناء الله ومجدهم»، فيقول: «وأرى أن آلام الزمن الحاضر لا تعادل المجد الذي سيتجلى فينا، فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر تجلي أبناء الله، فقد أخضعت للباطل لا طوعًا منها؛ بل بسلطان الذي أخضعها، ومع ذلك لم تقطع الرجاء لأنها هي أيضًا ستحرر من عبودية الفساد، لتشارك أبناء الله في حريتهم ومجدهم»^(٢).

وفي رسالته إلى أهل غلاطية يقول: «إن المسيح قد حررنا تحريرًا، فاثبتوا إذًا، ولا تدعوا أحدًا يعود بكم إلى نير العبودية»^(٣).

لقد تميز العالم المسيحي عبر عصوره بالنزعة إلى الإبادة، والاحتلال. وفي

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٢٢-٢٤) باختصار.

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة إلى أهل رومة (١٨/٨-٢٠).

(٣) المصدر السابق، رسالة إلى أهل غلاطية (١/٥).

هذا العصر الحديث بشكل كبير، الذي يستحق أن يسمى بحق «عصر الرعب»؛ فإن العالم البشري كله اليوم يشهد في هذا العصر من الاضطراب والفوضى، وسوء المستقبل، وتجهم المصير ما يرعب القلوب. ويزلزل الأفكار . . . وقد أمسك بزمامها أمم كافرة - مسيحية - عملاقة «تستعمل قوة العفاريات بعقول الأطفال - كما قاله جود- . . . ومع سباق التسليح الرهيب، والتنافس في نشر أسلحة الفتك المبيد. أحس الناس بالهلع الذي يقض المضاجع^(١).

يقول المفكر الألماني «ديتر تسمر لنغ» Dieter Zimmerling: «بالنسبة إلى كثيرين في العالم بأسره تحول قرننا إلى عصر رؤيوي، كنا نحن الآخرين محض نظارة وإن كنا لم نبق بمنأى عن المشاركة فيه، من المنطقي إذاً أن يدور الحديث بالنتيجة عن: «عصر الخوف» و «عصر الحروب العالمية» و «نهاية كل أمان» وأخيراً عن «نهاية العصر الحديث».

تلك النزعة الإبادية كانت قد توطنت الخواطر، وهي تتلقى كل يوم غذاءً جديداً وتمدها كل نظرة نلقها على الجريدة أو شاشة التلفاز بزداد وفير.

تقسم شعاراتها وتكثيفاتها الكلامية مثل: بيئة، مناخ، غابات، إبادة الشعوب، مجاعات، حروب، أوبئة، طاقة نووية، فائض السكان، وغير ذلك من كلمات مرعبة . . . لقد بدأ الإنسان رحلة إلى الجحيم لا أحد غيره مسؤول عنها . . . سيهلك العالم ما دام هناك بشر، لذلك ثمة تصورات حول نهاية ما في مختلف الثقافات والأديان . . . غير أن المسيحية اخترقت هذا التصور وجعلت للزمان والمكان بداية ونهاية قطعيتين.

(١) من مقدمة كتاب: منهج الأشاعرة في العقيدة؛ للدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي

تخلت العلوم الطبيعية الحديثة التي تكونت في ركاب العقلانية والتنوير عن هذه التصورات، وركزت اهتمامها على تهينة علاقات «فردوسية» للإنسان على الأرض ... كما عُقدت الآمال على رفع الإنسان إلى سوية أخلاقية أعلى؛ لكن لم يتحقق هذا الهدف في أي مكان كما يبدو ... وكل الذي حدث هو ترقية نوعية الحياة على الصعيد المادي فقط في ما يسمى اليوم «العالم الغربي»^(١).

ويقول المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي (Noam Chomsky): «كان الأوروبيون يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكّنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم، فقد دهش الاسكان الأصليون في المستعمرات الأمريكية من وحشية الأسبان والبريطانيين، وبالمثل أربع غضب آلة الحرب الأوروبية المدمرة شعوب أندونيسا في الطرف الآخر من العالم»^(٢).

ويقول «باركر»: «إن هيمنة الأوروبيين على العالم قد اعتمدت بشكل حاسم على الاستخدام المستمر للقوة، وبفضل تفوقهم العسكري، لا بفضل أية ميزة اجتماعية أو أخلاقية أو طبيعية، تمكن البيض من بناء وقيادة أول هيمنة عالمية في التاريخ وإن لفترة وجيزة»^(٣).

ويقول ديتير تسمر لنغ: «نشأ الفرسان في ألمانيا من غير الأحرار فكانوا يقاتلون من أجل سيدهم النبيل ثم يتباهون ويتفاخرون بعد ذلك بأفعالهم

(١) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (٧-٩) باختصار.

(٢) كتاب: سنة ٥٠١ الغزو مستمر (ص ١٨).

(٣) المصدر السابق.

وبالغون فيها إلى درجة أغرت إثارتها النبلاء بالانتساب إليهم.

وصف الأسقف «بوتز يوسوتري» من إيطاليا العليا - توفي عام (١٠٩٩م) في مؤلف وضعه عام (١٠٩٠م) عنوانه: «كتاب عن الحياة المسيحية»، ما كان منتظرًا من المحاربين أي الفرسان، إنه بين أمور أخرى: القتال حتى الموت في سبيل خير الجماعة العامة، ومحاربة المرتدين والهرطقة، والدفاع عن الفقراء والأرامل والأيتام، والالتزام بقسم الولاء وعدم الشعور بالحسد تجاه سادتهم^(١).

لقد استخدم النصارى منذ القديم مصطلح «الحرب العادلة» لإبادة الشعوب الأخرى، والاستيلاء على أراضيهم ثم تنصيرهم بالقوة بعد ذلك.

يقول الأب مايكل بَزرير: «وهكذا أرسى «التنصير» الذي مارسه الكنيسة أساسات سلطة الدولة النّهابة، ومنحها السلطة على ثقافة الشعوب الأصلية، وتمت ممهاة الرب بالغزاة الأوربيين والشیطان بالكفار البرابرة، قدم التنصير الأساس العقدي للإخضاع تمامًا كما قدم البارود والحصان الأساس العسكري، وكان كلاهما في خدمة الهدف الحقيقي للغزوات وهو الإخضاع الاقتصادي للمنطقة وقد استمد دكرتو دو كراسيانو "Decreto de Graciano": التسويغ الأساسي للحرب المقدسة من العهد القديم (يشوع والقضاة وشاول وداود) عاكسًا التفويض السماوي بشن حرب مقدسة للسيطرة على الأرض الموعودة، وإحكام قبضتهم عليها وثم تلطيف الشكوك بكون ذلك عدوانًا عسكريًا من خلال ادعاء «أغستين» اليقيني بأن الحرب التي أمر بها الرب هي «حرب عادلة» حيث من غير الممكن أن يكون في الرب شر»^(٢).

(١) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (١٢٢).

(٢) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٨٢).

ويقول أستاذ اللاهوت الألماني لود فيغ هاغمن: «أما تاريخ المسيحية الغربية فقد وَضَعَ من جانبه، متأثراً بالأفكار الفلسفية في العصر القديم، النظرية التقليدية عن «الحرب العادلة/Cbellum iustum» وكان هذا في الحقيقة تناقضاً واضحاً مع المسيحية في أقدم أشكالها، وهي التي كانت تتخذ لنفسها من الحرب والخدمة العسكرية مكاناً قصياً»^(١).

وقد اعتمدوا في إجبار الناس على الدخول في المسيحية والخضوع لها. على ما جاء في إنجيل لوقا^(٢): «أخرج إلى الطرقات والدروب وألزم الناس بالدخول حتى يمتلئ بيتي».

فأفادت عبارة: «ألزم الناس بالدخول»، في تسويق حرب عادلة على الهراطقة. حاول بعض شراح الكتاب المقدس تفادي ما في هذه العبارة من استخدام القوة لإرغام الناس على الدخول في المسيحية فقال: «ليس المقصود هو العنف، بل دعوة ملّحة، هناك تفسيرات متأخرة أرادت استخدام هذا النص في سبيل الاهتداءات بالقوة ليس لها أي مبرر في هذا المثل، وكم بالأحرى في روح الإنجيل»^(٣).

ثم يأتي «توما الأكويني» "Thomas Von Aquen" فيذكر المعايير الأخلاقية التي تسوغ شن الحروب والتي تحدد أهداف الحرب العادلة في الدفاع عن النفس أو الإحساس بالظلم وخدمة السلام. ونحو ذلك.

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٤ (٢٣-٢٤).

(٣) الأب: صبحي حموي اليسوعي في تعليقه على هذا الموضع من الإنجيل طبعة الرهبانية اليسوعية (٢٤٥).

ولكن قبل أن يضع توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي معايير الأخلاقية.

كانت الممارسات الحرية في المسيحية قد انتشرت وشاعت وكان رجال الكنيسة من أمثال «البابا غريغور يوس الأول» بين عامي (٥٩٠-٦٠٤) يدعو إلى الحرب لنشر المسيحية.

وكانت الحرب تعد وسيلة مناسبة للانتقام من إهانة فعلية أو متوهمة للمسيح، أو المساس بالعقيدة المسيحية.

بل إن الحرب كذلك تأمن مجال النفوذ المسيحي وتوسيعه، وتنتج من ذلك الحملات الحرية الشعواء التي قام بها الإمبراطور «شارلمان» ضد شعوب الجرمان والسلاف. وضد المسلمين في أسبانيا على ضفاف جبال البيرنيه^(١).

وهكذا ارتبطت فكرة «الحرب العادلة» بمفهوم الحرب على الكفار.

وضَمِّنَ البابوات من أمثال «البابا ليون الرابع» (٨٤٧-٨٥٥م) و«البابا يوحنا الثامن» (٨٧٢-٨٨٢م) الحياة الأبدية والاتصال بالمسيح للذين يسقطون في القتال ضد المسلمين وضد النورماندين الوثنيين.

وهكذا أصبحت الحرب المقدسة لتوسيع نفوذ الكنيسة والرعاية البابوية لها. هي التي مهدت لفكرة الحروب الصليبية على نحو حاسم وجعلتها في النهاية تتحول إلى حقيقة واقعة.

يقول المفكر الألماني ديتير تسمر لنغ: «طاف البابا أوربان الثاني منذ أشهر

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠-٥١) وكتاب الحرب المقدسة تأليف جان فلوري (١٣٥-١٣٠) وكتاب ورثة الإمبراطورية الرومانية تأليف ريتشارد. أ. ساليبان (١٠٩-١١٨).

فرنسا داعيًا لمشروعه الكبير: حملة الصليب، مدعيًا أن الشرق طلب بإلحاح عونًا مسلحًا ضد السلاجقة المسلمين. قال البابا: إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون في حين يحتل الوثنيون الأماكن المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها، إنه يعتقد بوجود فرصة سانحة لتوجيه فائض قوة الفروسية نحو أهداف جديدة، أهداف أعلى، ليسود السلام في الداخل، وتنقل الحرب إلى الخارج»^(١).

والعصر الحاضر لا يختلف عن سابقه في حب الغرب المسيحي للحرب والقتال إن لم يكن أشد وأقسى. ودخول البعد الديني فيه واضح.

يقول البرفسور الدانماركي «نيلز لمكة»: «منذ سنوات قليلة، دُعيت لإلقاء محاضرة على قساوسة الجيش الدانماركي عن موضوع «الحرب في العهد القديم» كما دُعي زميلي في دراسات العهد الجديد بالأسلوب نفسه لإلقاء محاضرة عن «الحرب والعهد الجديد» قبلت الدعوى بسرور بدافع من قناعتي أن ثمة الكثير لأقوله... في اليوم المحدد للمحاضرة وصلت إلى الحفل لا أحمل معي سوى نسختي من الكتاب المقدس، وأنا أقول بإمكاننا أن نختار صفحة من العهد القديم لا على التعيين، وسيكون هناك بالتأكيد شيء ذو صلة بموضوعنا، وما تبين في النهاية، من دون امتلاك أي نوع من المخطوط أو المذكرات، تمكنت بسهولة من تسليّة الحضور لمدة حوالي ساعة عن الحرب في العهد القديم.

هذا جانب واحد من جوانب الموضوع، أما الجانب الآخر فله علاقة بالعنف الغربي، الذي له تاريخ طويل جدًا، منذ عدة سنوات، عندما وصلت النزعة

(١) النهايات: الهوس القياسي الألفي (١٢٦).

الإجرامية "HOOLI GANISM" في كرة القدم إلى أسوتها، شرح عالم اجتماع بريطاني أسباب هذه النزعة في الرياضة الحديثة، وفسرها على هذا النحو: «نحن الأوروبيون ببساطة نحب القتال» . . .

إن القتال ينتمي على نحو ما إلى موروثات الإنسان الغربي، قد تتغير الطريقة التي نقاتل بها، لكننا بالأساس نحب القتال، إن هدف هذه المحاضرة هو مع ذلك ليس أن أعد ملخصاً لنشاطات القتال، ولا أن أعلق على الشؤون الحديثة في هذه المنطقة، فهي ليس محاضرة سياسية؛ بل أن أجمع الشهوة الواضحة لدى الغربيين للحرب والغزو مع العقيدة الموجودة في أحد الأعمدة الأساس للحضارة الغربية، أي: العهد القديم . . .

إن ما أود التشديد عليه هو أن العنف الذي لا معنى له، الذي هو جزء من الحروب الأوربية قد يكون له ألوان عقدية، يمكن أن تمثلها على سبيل المثال فظاعات الحرب العالمية الأولى في الخنادق، مع الحرب الكيميائية بوصفها الوسيلة النهائية للحرب، أو الحرب العالمية الثانية التي وصلت إذا جاز القول خاتمها المشهدة "Spectacular" عندما تم إلقاء قنبلتين نوويتين فوق مدينتي يابانيتين^(١).

ويقول أيضاً: «بهذه الطريقة كان على النمط السائد للتاريخ أن يقدم خلفية لأجل خبرة المستقبل ودولة أمة (دولة قومية) يمكنها أن تستدعي مواطنيها الكثيرين إلى شن الحرب لمصلحة الأمة، فكانت النتيجة مدمرة. إن حروب

(١) يشوع والعنف الغربي، ضمن الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (١٠٣-١٠٥).

«نابليون بونابرت» كلفت خمسة ملايين شخص على الأقل أرواحهم، والحروب الألمانية ربما كلفت عشرة أضعاف هذا الرقم^(١) و^(٢).

ويضيف لمكة: «تتغير الأحوال عندما يقدم الدين عقيدة الحرب، عندما تصبح الحرب حملات صليبية تهدف إلى تدمير العقيدة المنشقة، ويقدم التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك قديمًا وحديثًا، من الواضح أن عقيدة الصليبيين في العصور الوسطى كانت توجهها عواطف كتلك التي صاغها سفر يشوع: إنها إرادة الرب "Deus Vult" صرخة الحرب الشهيرة للصليبيين قبل أن يقوموا بذبح سكان القدس لكي ينتقلوا إلى كنيسة الضريح المقدس ليسبحوا بحمد الرب ويحتفلوا بانتصاره، من الواضح مع ذلك أن الطرفين [المتحاربين] في أثناء الحرب العالمية الثانية كانا يحملان مثل هذه العواطف وخاضا حربًا كان ينظر لها الطرفان على أنها حملة صليبية مقدسة، فكانت في عيني الأمريكي حربًا حقيقية بين الخير والشر، هكذا كانت مذكرات الحرب الخاصة بالجنرال «أيزنهاور» التي حملت عنوان «حرب صليبية في أوروبا» "Acrusade in Europe"، وقد خيضت بوحشية لا سابق لها، ليس أقله في روسيا حيث كان ثمة غقيدتان متعارضتان الشيوعية والنازية: لا رحمة، لا قيود، ولا قواعد للاشتباك»^(٣).

استشهد «نيلز لمكة» بصليبية «أيزنهاور» وهذا كاتب آخر هو: «كرستفر

(١) الكاتب هنا يتحدث عن كلفة الحروب في أوروبا أما ما فعله الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فأمر مهول حقًا.

(٢) يشوع والعنف الغربي (١١٤).

(٣) المصدر السابق (١١٩).

هتشنز "Christopher Hitchens" يضع كتابًا حافلًا^(١) في حروب وزير الخارجية الأمريكي الشهير: «هنري كيسنجر» "Henry Kissinger". ومدى الصليبية والوحشية وانعدام الهدف الذي سبقها وصحبها.

يقول كرسفر هتشنز في مقدمة كتابه: «إلى ضحايا هنري كيسنجر البواسل الذين ستعمر أمثولتهم أكثر منه، ومن سمعته. وإلى جوزيف هيلر "Joseph Heller" الذي أدركها مبكرًا، وفهمها كاملاً. في رأيه المحافظ يرى غولد "Gold" أن التاريخ لن يذكر هنري كيسنجر كشبيه «بيسمارك» "Bismarck"، أو «ميترنخ» "Metternich"، أو كاسلرينغ "Castlereagh"؛ بل كإنسان بغيض صنع الحرب بسرور»^(٢).

ويضيف هتشنز أيضًا: «جل اهتمامي في هذا الكتاب منصب فقط على تلك الإساءات (الكيسنجرية) التي يمكن؛ بل يجب أن تشكل قاعدة وأساسًا لمقاضاة شرعية وقانونية لجرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، والإساءات الموجهة للقانون العام أو العرفي أو الدولي، بما في ذلك التآمر والتواطؤ لاقتراف جرائم القتل والخطف والتعذيب»^(٣).

يضيف هتشنز: «ما زالت استنتاجات تقرير عضو (الكونغرس) «أوتيس بايك» "Otis Pike"، تسبب صدمة لدى قراءتها، وتكشف لا مبالاة «هنري كيسنجر» الشديدة تجاه الحياة البشرية، وحقوق الإنسان»^(٤).

(١) هو كتاب: محاكمة هنري كيسنجر. طبع دار قدمس، دمشق، الطبعة العربية الأولى سنة (٢٠٠٢م).

(٢) محاكمة هنري كيسنجر (١٠).

(٣) المصدر السابق (٣١).

(٤) المصدر السابق (٣١).

ويضيف هتشنز: «إن عددًا من شركاء كينسجر في الجرائم، إن لم نقل معظمهم، في السجن الآن، أو أنهم ما يزالون بانتظار المحاكمة، أو أنهم عوقبوا ولحق بهم الخزي، أما حصانة كينسجر الموحشة فهي فاسدة إذ فاحت رائحتها لتصل إلى السماء فإذا أتيح لها أن تستمر فسنكون عندئذ ندافع بشكل مخجل عن الفيلسوف القديم «آناخارسيس» "Anacharsis" الذي قال: «إن القوانين شبيهة بيت العنكبوت قوي بما يكفي لاحتجاز الضعيف فقط، وأضعف من أن يستطيع احتجاز القوي»، حان الوقت كي تتخذ العدالة مجراها باسم الضحايا المعروفين والمجهولين الذين لا يمكن حصرهم»^{(١)٤(٢)}.

يصور لنا «ديتر تسمر لنغ» صورة قاتمة ومرعبة لما ينتظر البشرية.

فيقول: «كان لابد من وقوع حرب عالمية ثانية، وبناء قبلة ذرية جربت فعليًا على عدو ومن ممارسة النهب الأكثر فظاعة للمواد الأولية الطبيعية، ومن نمو سكاني انفجاري الطابع، وتدمير حادث أو مرتقب لمجالات حياة الإنسان، والحيوان والنبات، كان لابد من مرور زمن لا نهاية له، قبل أن يدرك أناس بصيرون، خاصة أن له أبعادًا قيامية وأن الإنسان صنعه بنفسه فلا يجوز أن تسأل عنه أية قوة متعالية إلا إذا كان يرى فيه فعل الشيطان كي يبرئ نفسه»^(٣).

يضيف تسمر لنغ: «جسدت الأسلحة النووية الإسهام الأكثر قذارة في الموت

(١) يظهر أن ما قاله المؤلف هتشنز سيبقى أمنيّة؛ لأن القضية لا تخص كينسجر بقدر ما هي منهجية سلوكية ونفسية فيسولوجية ذات بعد ديني أيضًا للإنسان الغربي والأمريكي خصوصًا صنّاع القرار وصنّاع الحرب، وهذا يذكر بإصدار الولايات المتحدة قانونًا من الأمم المتحدة يعطي حصانة لجنودها الذين ارتكبوا الفظائع في العراق وأفغانستان يقيمهم خارج المساءلة القانونية!!!

(٢) المصدر السابق (٣٣-٣٤).

(٣) النهايات: الهوس القياسي الألفي (١٨٧).

المعاصر للعالَم بعد أن جرب الأميركيون عام (١٩٤٥م) باليابانيين ما يمكن لأسلحتهم النووية فعله بالبشر، وتعاذل الاتحاد السوفيتي مع أميركا في تقنية السلاح الذري، بدأ سباق التسلح النووي إلى أن صار بوسع كل واحدة من القوى النووية القضاء مرات عديدة على مختلف أنواع الحياة في الأرض^(١).

يضيف: «وفقًا للاتجاهات المسيطرة في السياسة، ولتقنيات التدمير، يعدّ نشوب حرب عالمية -ثالثة- محتمل الحدوث كما استخلصت دراسة نشرت في لندن، عنوانها: الصراع في الفضاء الكوني. قالت الدراسة: «إن الشرق والغرب سيحتاجان ذات يوم إلى خوض تجربة قوة من أجل تسوية تناقضاتهما»^(٢).

يضيف: «تريد إسرائيل إضافة السلاح النووي إلى ترسانتها، كي تحافظ على تفوقها العسكري حيال جيرانها العرب، وقد كدست ماتّي رأس نووي^(٣) إلى الآن، ورفضت كالهند وباكستان توقيع اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية»^(٤).

ألقت الولايات المتحدة قنبلة نووية على هيروشيما باليابان، وأخرى على ناغازاكي يوم السادس من آب عام (١٩٤٥م).

لم يغب البعد الديني والتجذير الإيماني لمباركة هذا التدمير الإجرامي الذي لم يعرف له البشر مثيلاً.

(١) المصدر السابق (١٩٣).

(٢) المصدر السابق (١٩٣-١٩٤).

(٣) أثبت الصحفي الأمريكي الشهير: «سيمور هيرش» بالوثائق امتلاك إسرائيل لنحو (٣٠٠) رأس نووي تستطيع تدمير العالم العربي ثلاث مرات وتدمير نفسها أيضًا على مبدأ «الخيار شمشون»؛ لأنه يعتني بمقولة شمشون كما تروي التوراة الذي هدم المعبد على نفسه وعلى آسرة الفلسطينيين بعد معركة دامية. انظر كتاب: «الخيار شمشون» لسيمور هيرش.

(٤) المصدر السابق (١٩٦).

فيقول «ديتر تسمر لنغ» في اندهاش وسخرية: «كتب شخص بخط يده على التقرير المسجل يوم (٢٦) تموز من عام (١٩٤٥م) حول المادة الانشطارية المستخدمة في قنبلة هيروشيما يقول: «هذه المادة التي استعرضناها نقلها «بارسن» و «تييت»^(١) لتكون حصّة هيروشيما من يوم القيامة».

واستنزل الكاهن الميداني «وليام دوناي» بركة الرب على بعثة هيروشيما من خلال الصلاة التالية: «أيها الأب العلي القدرة الذي يصغي إلى صلوات من يحبونه، نرجوك أن تقف إلى جانب من يحلقون في أعالي سماءك لينقلوا القتال إلى أعدائنا ... نضرع إليك أن تجعل نهاية الحرب وشيكة كي ننعم من جديد بالسلام على الأرض ... سنواصل معتمدين عليك طريقنا لأننا نعرف أننا تحت حمايتك: الآن وإلى الأبد ... آمين، استجاب الرب لدعائه»^(٢).

دعوى التسامح الديني لدى النصارى:

لقد نشأت حركة تسامح في زمن الإصلاح في المذاهب والمجتمعات المسيحية في أوروبا، وإن كانت ضعيفة وفردية في جوانب كثيرة. ثم إنها جميعها تدعو للتسامح مع المسيحيين من الطوائف الأخرى. إلا في المعادة للإسلام والمسلمين. فتختفي دعوى التسامح. لتحل محلها «الفويا» بتصوير الإسلام على أنه العدو الأكبر للمسيحية.

يعترف أحد أكبر من أرخوا للتسامح في عصور الإصلاح بقلة المعلومات وتشويشها في هذا الجانب.

(١) الطياران اللذان قادا الطائرة التي ضربت هيروشيما.

(٢) المصدر السابق (١٩٧-١٩٨).

يقول «جوزيف لوكليز»: «نحن على يقين من أن المعلومات التاريخية حول هذه الأمور تشكو من الغموض، والتقطع لدى كثيرين من معاصرنا، إذا ما عسانا نعرف، في الأحوال العادية، عن تطور مسألة التسامح منذ بداية العصور الحديثة؟ إن المعلومات المتوافرة لدى اللاهوتيين؛ بل المؤرخين أيضًا، تبقى مشوشة، إن لم تكن مغلوطة، في معظم الأحيان باستثناء بعض الشخصيات الشهيرة، والأحداث الباهرة، ولا لوم عليهم؛ لأن وضع الأبحاث الراهن حول هذا الجانب من التاريخ الديني هو أقل تطورًا مما يمكن تصوره، وما أسهل التحقق من ذلك! (١)».

ويقول الأبوان «جوزيف كوك» "J. Cuoq" و «لويس غارديه» "L. Cardet". في الكتاب الذي أصدره باسم الفاتيكان عقب المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥م): «يجب علينا كمسيحيين ونحن نخاطب المسلمين؛ أن نفكر قبل كل شيء في صعوبات وعوائق الحوار مع المسلمين، والتي تتعلق بنا إلى حد كبير، وإلى الظلم والجور الذي أحاط به الغرب ذو التربية المسيحية المسلمين واقترب ذنوبًا وآثامًا عديدة بحقهم؛ المرارة العميقة قبل كل شيء يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن العصور الماضية كالعصور الحالية قد تركت في الأذهان والأفكار، وخاصة في بعض المناطق، مرارة عميقة حيال الغرب. إن المسيحيين قد أوقفوا؛ بل حطموا انطلاقتهم الحضاري نتيجة الحروب الصليبية التي أسهمت بوضع حد لأكثر الأوقات ازدهارًا في التاريخ الإسلامي، يضاف إلى هذا الاستعمار الذي حال دون نهضتهم التي بدأت بشاثرها تظهر في القرن التاسع عشر علينا أن نعتز بكل أمانة وصدق بالمظالم

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٧-١٨).

التي ارتكبتها الغرب، وأن نعطي الدليل بأننا نتخلى عن تضامنا مع التفكير والذهنية اللتين سادتا الماضي، ومع بعض التصرفات في الوقت الحاضر لتتحرر من أفكارنا المسبقة. فمن الضروري أن لا نستسلم لهذه النظرات والآراء السريعة والكيفية والاعتباطية في أكثر الأحيان والتي لا تنطبق إطلاقاً على المسلم المخلص والصادق...»^(١).

يقول الدكتور «رضوان السيد»: «ظهر مجال بحثي جديد هو ما عرف بصراع الحضارات أو حوارها، والذي ابتدعه «برنارد لويس» وركز عليه «هنتنغتون» في كتابه المعروف: صدام الحضارات (١٩٩٣-١٩٩٦م). وكان يمكن القول إنه لا شأن لهذه الاهتمامات المستجدة لدى الأمريكيين والأوروبيين بأوروبا الوسيطة، لولا أن العلاقات بين الغرب والإسلام، وبين العرب والغرب في العقدين الماضيين، أفضت لتأمل العلاقة الوسيطة المتأزمة، ودور الإسلام فيها، بدلاً من التركيز على المسؤولية الأوروبية عن الجهل والتوتر ومحاولات الإلغاء بالحروب الصليبية، ثم بالغزوات الاستعمارية. وهكذا جرى استخدام «تاريخانيات لويس»، ونظريات «أرنست غلز» الأنثروبولوجية، لإلقاء المسؤولية على كاهل الإسلام منذ ظهوره في القرن السابع وحتى اليوم»^(٢).

وسنذكر هنا رموز دعاة التسامح في عصر الإصلاح في العصور الوسطى وما قبلها وما بعدها وكيف أنهم هم بأنفسهم دعاة الخوف من الإسلام. وصنّاع الفوبيا ضد الإسلام. ومنظروا الحرب العادلة ضده.

(١) «يوحنا الدمشقي»: اسمه منصور بن سرجون ولد في دمشق عام (٦٧٥م)

(١) نقلاً عن كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى؛ لريتشارد سودرن (١١-١٢).

(٢) مقدمة كتاب: صورة الإسلام في أوروبا (٦).

تمتع بتسامح كبير من المسلمين وعمل وزيراً لبعض الأمويين وكان كاتباً وجايباً للضرائب إلى أن سرّحه الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز سنة (٧٢٠م) فانعزل في دَيْر «مارسابا» ببذاء البحر الميت بفلسطين، وألف الكتب في الرد على الإسلام ومهاجمته إلى أن رسمه البطريك «يوحنا الخامس الأورشليمي» كاهناً، وأصبح مستشاره الخاص.

يعتبر: يوحنا الدمشقي رأساً في مهاجمة الإسلام ورسم صورة الفوبيا عنه. يقول المفكر الفرنسي «روجيه جارودي» عن «دير مارسابا»: «في عام (٤٧٨م) أقام أحد النساك الذين ظل يجوب في صحراء يهوذا على مدى خمس سنوات وعُرف فيما بعد باسم «القديس سابا» في مغارة تقابل دير ما تزال آثاره ماثلة حتى اليوم، راح مريدوه يتوافدون عليه، ثم أقيم عام (١٠٠٥م) على المغارة دير يعد من أشهر الأديرة في الشرق، وقد مرّ بهذا الدير أو عاش فيه قديسون كبار كالقديس «تنيودور» والقديس «كير بلوس»، ولا سيما الشخصية المرموقة: القديس «يوحنا الدمشقي» (٦٧٥-٧٥٣م) الذي أمضى في هذا الدير ثلث القرن، وكتب فيه كل أعماله التي تعد نقطة انطلاق لحوار بين المسيحيين والمسلمين، ولكن بصيغة جدلية هجومية»^(١).

ثم يقول جارودي: «إن يوحنا الدمشقي في صومعته بدير القديس سابا في فلسطين التي أصبحت مسلمة، كان يناظر بحرية، ويجادل مبادئ الإسلام نفسه، ويدافع عن العقيدة المسيحية الرسمية»^(٢).

فها قد استفاد يوحنا الدمشقي من جو الحرية التي توفرت له في حكم

(١) المصدر كتاب: مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف؛ لأسامة العيسة (٦٨-٦٩).

(٢) المصدر السابق.

المسلمين. وتحت حمايتهم ليهاجم الإسلام. ويعدّه هرطقة ويدعو إلى حربه. ويدعو إلى عقيدته المسيحية. في الوقت الذي يصدر البيزنطيون المسيحيون من بني دينه حرماناً قاسياً في حق يوحنا الدمشقي.

فقد عقد الإمبراطور البيزنطي «كونستانتين كو برونيم» مجمّعاً مسكونياً من (٣٣٨) أسقفاً ليصدروا الحرمان الآتي:

«اللعة على منصور بن سرجون الذي خان المسيح، والذي يميل قلبه على المسلمين، اللعة والحرمان لعدو الإمبراطورية يوحنا الدمشقي المبشر بالبحر والمعظم للأيقونات»^(١).

ألّف يوحنا الدمشقي كتاب (ينبوع المعرفة) ومن القسم الثاني في هذا الكتاب: (حول الهرطقة) "De Haeresibus"، جعل الإسلام ضرباً من الهرطقات، وجعل النبي ﷺ تلقى معلوماته من راهب آريوسي، وأن تعاليم محمد بصدد شخص المسيح هرطقة مسيحية ذات طابع آريوسي.

وهو هنا يكرر ما سبق أن قاله المشركون أعداء النبي ﷺ: أنه يتلقى القرآن من رجل رومي اسمه «بلعام» أو «جبر» أو «يعيش» أو غير ذلك^(٢).

وقد ردّ الله ذلك وكذبه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَكَلَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ولقد تلقى النصارى هذا التهافت عن يوحنا الدمشقي مع تغييرهم في الشخصية التي يتلقى منها النبي ﷺ تعاليمه.

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: حاشية تفسير الطبري لأحمد شاكر (١/٥٤).

يقول لود فيغ هاغن: «هذه الأطروحة الخاصة بتأثر محمد براهب مسيحي تظل المرة بعد الأخرى، تلقي التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام سواء أكان ذا مصدر بيزنطي أم لاتيني ...»

وفي الروايات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصبح الراهب الآريوسي الذي ورد الحديث عنه عند يوحنا الدمشقي: «سرجيوس» أو «نسطوريوس» أو «جيورجيوس» أو «نيقولاوس» إلخ.

ومرة يظهر على أنه نسطوري، ومرة يظهر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، ومرة يظهر مرتدًا وحتى مؤلفًا للقرآن، ويصور على أنه مصدر غامض لمعلومات محمد^(١).

(٢) بطرس المبتجل: هو رئيس دير كلوني (١٠٩٤-١١٥٣م)، يدين له الغرب المسيحي بأنه صاحب أول ترجمة للقرآن في القرن الثاني عشر الميلادي، وقام بها في مدينة طليطلة الإسلامية وهو يتمتع بالحرية تحت حكم المسلمين.

أ) أنجز أول ترجمة إلى اللاتينية قام بها بمساعدة «روبرت الكيتوني»، وأنجزت عام (١١٤٣م).

وحتى نعلم خطورتها في تشويه الإسلام والقرآن وأنه مصدر للشر والخوف، وحتى نعلم دورها في صناعة الفوييا الإسلامية، نقرأ ما يقوله «لود فيغ هاغن»: «وحيث قُدر في القرن السادس عشر للترجمة الكيتونية للقرآن أن تطبع مرة في بال

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٦-٤٧).

تحولت إلى موضوع نزاع بين المسيحيين، إذ ذهب فريق منهم إلى تأييد طبعها، ومال آخرون إلى إعلان معارضتهم لذلك، ولم يُصرح بطبعها إلا في (١١) كانون الثاني عام (١٥٤٣م) بناء على تدخل من «مارتن لوثر».

وقد وقف مارتن لوثر إلى جانب الطبع المتنازع عليه في تلك الأيام بتسوية ورد في قوله: «لأن المرء لا يستطيع أن يلحق بمحمد أو بالأتراك شيئاً أكثر إثارة للغضب، ولا أن ينالهم بضرر وإيذاء هما أشد من كل ما عداهما من الأسلحة كالذي يلحق بهم حين يكشف عن قرآنهم لدى المسيحيين، لكي يروا كم هو كتاب ملعون، شائن إلى أقصى الدرجات وكم هو حافل بالأكاذيب والمخافات وكل الفظائع»^(١).

﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

(ب) يكرر بطرس المبجل فرية يوحنا الدمشقي السابقة من أن النبي ﷺ تلقى معلوماته من راهب نسطوري ولكن بطرس المبجل جعله: سرجيوس النسطوري.

ويقول بطرس المبجل في رسالته إلى «برنارد فون كليرفو»: «إن سرجيوس هذا جادل في ألوهية المسيح، وكسب محمداً إلى جانبه في هذا الاعتقاد»^(٢).

(ج) ثم ألف كتابه الحافل: «الخلاصة الجامعة لهرطقات المسلمين» ليكون مرجعاً موثقاً لكل من هاجم الإسلام من قس وراهبان النصراني بعد^(٣).

(٣) توما الأكويني "Thomas Von Aquin"، (١٢٢٥-١٢٤٧م):

أ- يعترف توما أن الإيمان لا يجبر أحد عليه ولا يكون بالإكراه.

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٩).

(٢) المصدر السابق (٤٧).

(٣) المصدر السابق (١١٤).

يقول في «الخلاصة اللاهوتية»: «من غير المؤمنين من لم يتم تبشيرهم بالإيمان، كاليهود الوثنيين، هؤلاء لا ينبغي أن يدفعوا إلى الإيمان دفعا؛ لأن الإيمان قضية طوعية»^(١).

ولكن لتوما الأكويني موقفان متناقضان.

ففي شأن الوثنيين واليهود في أوروبا أظهر تسامحا ملفتا للنظر. وأما في شأن المسلمين الذين يعدهم (هراطقة) فالإعدام والحرب والقسوة هي موقف توما منهم. حيث يشرع لإعدامهم ويضع كما سنرى أصول الحرب العادلة المقدمة ضدهم.

يقول «جوزيف لوكير»: «أما القديس توما فإن قسوته على الهراطقة لن تمنعه، كما سنرى من أن يظهر تسامحا مع الوثنيين، وإذا كان قد حرم كل تواصل بين المؤمنين والهراطقة أو المحرومين، فقد أجازة عموما مع اليهود وغير المؤمنين»^(٢).

لذلك يشرع أنه مع هؤلاء الوثنيين الخاضعين زمنيا للكنيسة، فليس للكنيسة إدانتهم على المستوى الروحي ولا إرغامهم على الإيمان المسيحي.

أما الهراطقة فلهم شريعة أخرى. فيقول توما: «يجوز معاقبة الهراطقة بصرامة تفوق تلك التي يستحقها المذنبون بجريمة القدح والذم الملكيين... لذا كان العدل أن يحكم عليهم بالموت»^(٣).

ب- ألف توما الأكويني كتاب «الخلاصة ضد الأتيين» وقد ألفه بإيعاز من:

(١) الخلاصة اللاهوتية (٢٢).

(٢) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١١٧).

(٣) المصدر السابق.

«رَمُند دي بينا فور» "Raimund Von Pena Fort" أحد كبار نظام رهبانية الدمينكان الذي كان يعمل في تبشير المسلمين ونشر المسيحية بينهم بأسبانيا . يقول لود فيغ هاغمن: «تشير كل المظاهر إلى أن كتاب «الخلاصة ضد الأميين» كان يقصد به أن يكون كتابًا تعليميًا للكلديات التي أنشأها نظام رهبانية الدمينكان لتدريب مبشري المستقبل»^(١).

ج- ثم يضع توما الإكويني بنفسه المعايير الأخلاقية والمسوغات الكتابية التي تسوّغ أي حرب ضد الأميين (المسلمين) وهي التي توارد قسوس ورهبان وباباوات النصارى على تسميتها «الحرب العادلة» .

يقول لود فيغ هاغمن: «أما تاريخ المسيحية الغربية فقد وضع من جانبه متأثرًا بالأفكار الفلسفية في العصر القديم، النظرية التقليدية عن الحرب العادلة "bellum iustum"، وكان هذا في الحقيقة في تناقض واضح مع المسيحية في أقدم أشكالها، وهي التي كانت تتخذ لنفسها من الحرب والخدمة العسكرية مكانًا قصيًا وكان الرائد في هذا: «أغسطينوس» بين عامي (٣٥٤-٤٣٠م) وكان منطلقه في الاحتجاج على الهرطقة هو ما ورد في لوقا (١٤ : ٢٣): «أخرج إلى الطرقات والدروب وألزم الناس بالدخول حتى يمتلئ بيتي» .

أفادته عبارة «ألزم الناس بالدخول» "Compelle intrare"، في تسويق حرب عادلة على الهرطقة ويذكر توما الأكويني بالاستناد إلى أغسطينوس المعايير الأخلاقية التي يمكنها كما يرى أنه تسوّغ أي حرب من الحروب»^(٢).

(١) مسيحية ضد الإسلام (٧٨).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٥٠).

وهذه معايير توما للحرب ضد الكفار:

(١) السلطة الشرعية هي السلطة المختصة التي تُشَنّ الحرب بأمر منها .

(٢) مستوى الوسائل والقدرات .

(٣) السبب الذي يسوغ الحرب، كالدفاع عن النفس والإحساس بالظلم ونشر الإيمان والعدل .

(٤) النية الحقيقية التي تنطوي على هدف يتمثل في خدمة السلام .

يشرح لود فيغ هاغمن هذه النية الحقيقية فيقول: «فالنية الحقيقية الماثلة في هذه النظرية عن الحرب العادلة لم تكن بموجب ذلك حصر الحرب بعجلة من المعايير الأخلاقية، أي أن السؤال الأساسي لم يكن: كيف أستطيع أن أنشئ ضميرًا حيًا من أجل الحرب؟ بل كان: بأي معايير تقييدية يوصي الرب بالحرب في كل الأحوال»^(١).

(٤) «مارتن لوثر»: الكاهن الألماني الشهير (١٤٨٣-١٥٤٦م):

كتب لوثر (١٥٢٠م): «الإيمان وحده يكفي المسيحي فلا حاجة به إلى عمل، وبالتالي فهو في حلّ من الوصايا والشرائع كلها، ومتى تأكد ذلك فقد تأكدت حرته بالفعل تلك هي الحرية المسيحية التي يولدها الإيمان»^(٢).

أحدث لوثر نقلة إصلاحية لا يستهان بها . فقد حدد معالم الحرية المسيحية باختصار:

لا كهنوت يمارس باسم المسيح .

(١) المصدر السابق (٥٠) .

(٢) نقلًا عن كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٩٨) .

- المساواة بين جميع المسيحيين والكهنوت العام.
- فالكنيسة الحقيقية هي جماعة المؤمنين المسيحيين.
- والرابطة روحية تضم المسيحيين، المتحدين بالمسيح عن طريق الإيمان.
- وهو بذلك يسير كما يرى على خطى «بولس» المؤسس الحقيقي لهذه المسيحية. عندما يقول: «لقد حررنا المسيح لكي نبقي أحرارًا فاثبتوا إذا ولا تدعوا أحدًا يعود بكم إلى نير العبودية»^(١).
- ولقد حدد بعضهم ما أحدثه لوثر من إصلاح في المسيحية في عدة أمور:
- تعزيز مكانة الضمير عملاً بالأنجيل ووسائل القديس بولس.
 - مبدأ الحرية من أجل الدخول في الإيمان.
 - مبدأ الحسم الإيماني للإيمان المطلق بالمحبة على حد قول بولس: «إن عملنا للحق بالمحبة نمونا وتقدمنا في جميع الوجوه»^(٢).
 - استقلال الكنيسة عن المجتمع السياسي.
 - لا يمكن لأحد فرض قوانين على المسيحيين إلا في حال موافقتهم عليها لأنهم أحرار في كل شيء.
 - الكتاب المقدس فقط هو قاعدة الإيمان الموضوعية، ولا يقيد الضمائر شيء إلا كلمة الله، وأن الكتاب المقدس واضح من تلقاء ذاته ويقيني يفسّر نفسه بنفسه»^(٣).

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، الرسالة إلى أهل غلاطية، الإصحاح: ٥ (١).

(٢) المصدر السابق، الرسالة إلى أهل أفسس، الإصحاح: ٤ (١٥).

(٣) انظر كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح؛ لجوزيف لوكليز (٣٧) و (١٩٩-٢٠٠)، وكتاب: عودة إلى التاريخ المقدس لنبيه بشير (٤٦-٤٧).

وقع تطور لافت في حياة لوثر الفكرية. فقد كان يسجل موقفًا متسامحًا مع الهراطقة والكفار ويدخل في هذا -اليهود والمسلمون- وكان يندد باستخدام العنف والإكراه لإدخال الناس في المسيحية.

يقول جوزيف لوكلير: «كذلك يرفض لوثر بالفعل الإقرار بسلامة طرق محاكم التفتيش كتب عام (١٥٢٠م) يقول: «ولا نتصر على الهراطقة بالنار؛ بل بالكتاب كما كان يفعل الآباء القدماء، ولو كانت البراعة تكمن في الانتصار على الهراطقة بالنار لكان الجلادون أعلم العلماء»^(١).

يقول لوثر: «الهرطقة شأن روحي، لذا كان يستحيل أن تضرب بالحديد، أو تحرق بالنار أو تغرق بالماء، وحدها كلمة الله تستطيع أن تجهز عليها؛ لأنه كما يقول القديس بولس: «ليس سلاح جهادنا بشريًا، ولكنه قادر في عين الله على هدم الحصون»^(٢)»^(٣).

يقول لوثر: «ليس للسلطة المدنية أن تمنع أحدًا من تعليم ما يشاء والإيمان بما يشاء سواء كان الإنجيل أم وهمًا كاذبًا»^(٤).

يسجل جوزيف لوكلير تعجبه فيقول: «مثل هذه التصريحات تبعث على العجب عندما نفكر بمدى اتساع السلطات الدينية التي ستعطى فيما بعد للأمراء في البلدان البروتستانتية»^(٥).

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٠١).

(٢) الكتاب المقدس: الرسالة الثانية إلى أهل قورنثس، الإصحاح: ١٠ (٤).

(٣) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٠٢).

(٤) المصدر السابق (٢٠٣).

(٥) المصدر السابق (٢٠٣).

والتطور اللافت في حياة لوثر الفكرية هو تباين موقفه من كل من اليهود والمسلمين من جهة أخرى.

أما موقفه من اليهود : كان لوثر يعادي اليهود باعتبارهم قتلة يسوع المسيح وصاليبه. ثم لما آمن بحرفية الكتاب المقدس. وجد أن العهد القديم طافح بالثناء على شعب الله المختار (إسرائيل) وأنهم أبناء الإله (يهوه) وأنهم أصحاب التعاليم والشرعة، فانقلب لوثر معظماً لليهود أشد التعظيم، وأن تعظيمهم يدخل في الجذر الإيماني للمسيحي المؤمن بالكتاب.

حتى قال كلمته الأخيرة التي سجل منها موقفه الأخير المعظم جداً لليهود، قال لوثر: «يجب أن نكون لليهود كالكلاب التي تأكل من الفتات المتساقط من موائد أسيادها»^(١).

قامت على رؤى لوثر الدول البروتستانتية في أوروبا إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية. و«إسرائيل» و«شعب الله المختار اليهود». في جذر الاعتقاد الإيماني للمسيحي اللوثيري البروتستانتي.

يقول «بيتر غروس» في كتابه (إسرائيل من منظور أمريكي): «إن الأمريكيين والإسرائيليين متحدون مترابطون معاً لا تشبههما في ذلك شعوب ذات سيادة، وبينما كان التراث اليهودي يجري في عقول المستوطنين الأمريكيين الأوائل، وساعدهم على تشكيل الجمهورية الأمريكية الجديدة، عملت إسرائيل على استعادة رؤى الحلم الأمريكي وحمله، لقد تلاحم التراث الأمريكي والإسرائيلي في كل واحد»^(٢).

(١) نقلاً عن: موقف لوثر من اليهود. عبد الله المعراوي؛ مجلة الإنسان عدد (٤٩١) نوفمبر ١٩٩٥م.

(٢) إسرائيل من منظور أمريكي (٩٧).

وتقول «كاثلين كريستن»: «يفترض في إطار المرجعية في انحيازه نحو إسرائيل وجود رابطة فريدة من نوعها بين الولايات المتحدة وإسرائيل تنبثق من تراث توراتي مشترك ومن اعتقاد في أنه يجب أن يحصل اليهود على وطن نتيجة المحرقة، ومن قرون طويلة من معاناة اليهود وبحثهم عن وطن، وكذلك من معرفة مميزة لدى الولايات المتحدة لما تسميه «الأسلوب الوطني» خاصة في بدايات الريادة، والتزامها بالديمقراطية الغربية، أما لدى البعض خاصة أولئك اليهود في أمريكا، والذين بث فيهم إسرائيل مشاعر اليهودية الإسرائيلية؛ فإن العلاقة معهم تكافلية تعايشية»^(١).

لقد كان للوثريّة تأثيرها البالغ في تعظيم إسرائيل في العقل المسيحي البروتستانتي خصوصًا الأمريكي.

ومن العمل الدؤوب للبروتستانت في الغرب لدعم اليهود في عملية سطو لشطب الحقائق، وإلغاء التاريخ وتوريث من لا يستحق ما لا يستحق. ودعم عملية اغتصاب. لا للأرض فقط؛ بل للإرث الحق والإنسان والزمان. استنادًا إلى اعتقاد ديني وتأصيل توراتي ودعم من الكتاب المقدس.

ومن آخر محاولات تثبيت هذا التجذير الديني لليهود وإسرائيل في الإيمان المسيحي البروتستانتي (اللّوثري): بيان نُشر في شهر سبتمبر من عام (٢٠٠٠م) وقع عليه أكثر من (١٥٠) حاخامًا يهوديًا يمثلون الطوائف اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية^(٢). مع المئات من القسس والرهبان ورجال الدين

(١) فلسطين في العقل السياسي الأمريكي (٢١).

(٢) الطوائف اليهودية بالولايات المتحدة هي: التركييون والإصلاحيون، والمحافظون، والنموسيون. راجع: الموسوعة اليهودية؛ للدكتور عبد الوهاب المسيري..

البروتستانت وعنوانه: «دبرو آمت»، أي: (قولوا الحق).

واستغرق الإعداد له بضع سنوات لكنه أعد بعناية فائقة.

وموضوعه الرئيس: العلاقة بين المسيحيين واليهود خصوصًا بشأن إسرائيل وأرض الميعاد وأحقية اليهود بها، وبشأن التبشير باقتراب بناء هيكل الرب بالقدس.

وسأسوق هنا بعض فقرات هذا البيان مع بعض التعليق عليها.

● الفقرة الأولى: «اليهود والمسيحيون؛ يعبدون الرب نفسه، وقبل المسيحية كان اليهود وحدهم الذين يعبدون رب إسرائيل. إلا أن المسيحيين أيضًا يعبدون رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب^(١)، خالق السماء والأرض. فإنه يتر علماء الإلهيات اليهود أن يكون الملايين من المسيحيين قد ارتبطوا بعلاقة مع رب إسرائيل».

هذه الفقرة تدل على علاقة تراتبية بين اليهودية السابقة الأصلية. التي لها حق التقدم باعتبار الأصل والسبق. وبين دين المسيحية اللاحقة الفرعية المنبثقة أصلًا من اليهودية ففيه تكريس الإشعار للمسيحي بالفوقية اليهودية والاستعلاء اليهودي.

● الفقرة الثانية: «اليهود والمسيحيون يستمدون الشرائع من الكتاب نفسه «الكتاب المقدس» الذي يسميه اليهود «التاناخ» ويسميه النصارى «العهد

(١) قال الله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ» [البقرة: ١٣٣]، وكما ترى في بيانهم تجاهلوا ذكر إسماعيل عليه السلام لأنه أبو العرب وجد النبي محمد ﷺ.

القديم». نحن جميعًا نلجأ إلى هذا الكتاب، ونجد فيه الدروس نفسها: الله هو خالق الكون، الله أقام عهدًا على شعب إسرائيل، الله في النهاية سوف يخلص إسرائيل.

هذه الفقرة تضع إسرائيل «الشعب اليهودي» في عمق وصلب الإيمان المسيحي، وهذا التعمق والتجذير هو تحضير تأسيسي للفقرة الآتية.

ولكن يلاحظ تجاهل البيان التام للعهد الجديد وأناجيل النصارى وعدم دعوة اليهود حتى لمجرد الاعتراف بها على أنها كتب مقدسة. ومع ذلك يتقبل المسيحيون هذا بصدر رحب ويحبون ويعظمون اليهود قتلة يسوع المخلص (ربهم) كما يزعمون. ومنكروا أناجيلهم المقدسة، ويصبون جام حقدهم وكرههم وحرهم للإسلام والقرآن الكريم الذي دافع أحسن الدفاع وأطيه عن المسيح ﷺ وأمه الصديقة مريم ﷺ. أليس هذا أمرًا عجيبيًا؟!

• الفقرة الثالثة: «يمكن للمسيحيين احترام مطالبة الشعب اليهودي بأرض إسرائيل فالحدث الأهم لليهود منذ المحرقة، كان إعادة إحياء الدولة اليهودية في أرض الميعاد والمسيحيون يفهمون أن أرض إسرائيل موعودة وموهوبة لليهود حيث أنها المركز الفعلي للعهد القائم بينهم وبين الرب، فالمسيحيون يؤيدون دولة إسرائيل لاعتبارات أعمق من مجرد السياسة، ونحن كيهود نرحب بهذا التأييد».

إذن: فأرض الميعاد (فلسطين) أرض إسرائيل هي الجوهر الأساسي في الصيغة الأكثر انتشارًا للمعتقد اليهودي والتي تكاد تستبدل جميع الإيمان بالغيبيات والأنبياء والشرائع واليوم الآخر بالتأييد التام لإسرائيل. فإسرائيل إذن هي جوهر الإيمان والدين والمعتقد. في الإيمان المسيحي البروتستانتي على وجه الخصوص.

وخطورة هذه الفقرة في هذا البيان تكمن في أنها ترسخ الترادف بين اليهودية كديانة، والصهيونية كحركة قومية سياسية، لأنها تنتزع تفسير الصهيونية من إطارها القومي أو السياسي لتجعلها في صميم الإيمان الديني.

يقول بول مركلي: «ما هو شديد الأهمية فيما يخص موضوعنا أن الأمر جعلهم يماهون أقدارهم الخاصة بمصائر اليهود التي تصوروا أنها منقوشة حرفيًا في الكتب المقدسة التي كانت شرعة حياتهم الخاصة كان من شأن الحماسة الأمريكية لإعادة اليهود إلى إسرائيل الإيمان بأن أمريكا نفسها صُبَّت في ذلك القالب منذ بداياتها الأولى وأن مصير إسرائيل يعانق مصيرها»^(١).

ويقول: «ولكن ما هو أقوى تعبيرًا من سائر الأشياء الأخرى: هو التلميح إلى «حفيف الأجنحة» في إشارة باللغة الواضحة إلى «النسر» الذي هو الشعار القومي للولايات المتحدة المنقوش على جميع شاراتها المميزة، والذي يُدَّكر: «وهذه ليست مصادفة» بدور «قورش» ملك فارس الذي يقول عنه أشعيا نفسه: «أنا الرب من المشرق أدعو الطير الكاسر، ومن البعيد من يحقق مقاصدي»^(٢)، ما لبث أن ظهر حقًا وقام حقيقة بإعادة اليهود إلى القدس المرة الأولى»^(٣).

● الفقرة الرابعة والأخيرة: «على اليهود والمسيحيين أن يعملوا معًا في سبيل

(١) الصهيونية المسيحية (٨٢).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر أشعيا، الإصحاح: ٤٦ (١٠-١١) كذا نقلها الكاتب ونصها (أدعو من المشرق كاسرًا، ومن الأرض البعيدة رجل تديري . . . وسأجعل في صهيون الخلاص، ولإسرائيل يكون فخري).

(٣) الصهيونية المسيحية (٨٤).

السلام والعدالة وعلى الرغم أن العدالة والسلام في النهاية من الرب؛ فإن جهودنا المشتركة مع المؤمنين من سائر الديانات سوف تساهم في تحقيق ملكوت الله الذي نسعى إليه، وتقودنا في جهودنا هذه الرؤيا التي التزمها أنبياء إسرائيل».

هذه دعوة إلى العمل الإنساني الشامل وعبر المنظمات الدولية لكنها تعيد تأطيرها في قالب توراثي إسرائيلي مستوحى من الكتاب المقدس لإقامة مملكة إسرائيل.

وتعميقاً لهذا التأطير التوراثي يُختم البيان بنقل هذا النص من الكتاب المقدس: «ويحدث في آخر الأيام أن جبل هيكل الرب يصبح أسمى من كل الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتوافد إليه جميع الأمم، وتقبل شعوب كثيرة وتقول: تعالوا لنذهب إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا طرقه ونسلك سبيله، لأن من صهيون تخرج الشريعة، ومن اورشليم تعلن كلمة الرب، فيقضي بين الأمم، ويحكم بين الشعوب فيطبعون سيوفهم محارث، ورماحهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً»^(١).

يضع هذا النص: الوعد بأن يحل الهيكل محل المسجد الأقصى في موضع مركزي في التاريخ.

تُرى هل من قبيل المصادفة أن العبارة الأخيرة في النص: «فيطبعون سيوفهم محارث ورماحهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً»، مكتوبة على لوحة وموضوعة في مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك!!

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر أشعيا، الإصحاح: ٢ (٢-٤).

ونتيجة لهذه الجهود قامت منظمات أمريكية عدة متحمسة لتحقيق هذه الأهداف، من أشهرها:

- التحالف الوطني المتحد لإسرائيل (NUCI) وهو يضم تحت لوائه أكثر من (٢٠٠) منظمة تمثل أكثر من (٤٠) مليون أمريكي.
- منظمة أصدقاء إسرائيل ويرأسها «إيلوود ماك كايد» وتدور أهدافها حول تدمير المسجد الأقصى ليعيدوا مكانه بناء الهيكل اليهودي المزعوم.
- المخلصون لأرض إسرائيل وجبل الهيكل. وهي منظمة ضخمة ونشطة يرأسها: «غريشام سولومون». وأما أهدافها فقد وضحتها «سولومون» نفسه في خطابه الذي ألقاه بتاريخ ٦/٩/٢٠٠٢م، في مركز المجتمع اليهودي في هيوستن قائلاً: (أستطيع أن أقول لكم إننا نقرب من الأيام الأخيرة.. هناك يقظة مذهلة في صفوف المسيحيين، ليس هناك يهود صهيانية؛ بل هناك مسيحيون صهيانية أيضًا، صوتي هو صوت الله، إن العيون والقلوب ترنوا إلى القدس، إن دولة وشعب إسرائيل يقومان بواجبهما الإلهي وهو إعادة بناء الهيكل الذي بدوره إعادة بناء لمستقبل جديد ليس فقط لإسرائيل، وإنما للإنسانية جمعاء هذا الجبل في القدس هو المكان الأهم في الأيام الأخيرة لأن الله يقيم على ذلك الجبل... سوف يأتي المسيح المخلص سوف يأتي إلى القدس، إلى بيت الرب الجديد الذي أعيد بناؤه لأجله... فهو سيعود ليكون ربًا إسرائيليًا، وستكلم العبرية فقط وعندما يجيء سيسمي المسيحيين الصهيانية، بأبناء يعقوب أو مواطني مملكة إسرائيل القديمة^(١).

(١) انظر كتاب: امبراطورية الشر الجديدة (٣٨٩-٣٩٠).

• أما موقف مارتن لوثر من الإسلام والقرآن والمسلمين . فهو المساهمة بقوة في صناعة «الفويا» الخوف من المسلمين، مهاجمة الإسلام، مهاجمة القرآن العظيم، خاتمة كتب الله المباركة وبكل طيش وضراوة وتصويره على أنه مصدر الشر في العالم.

أ- عمل لوثر بحماس شديد لإصدار أول طبعة لترجمة القرآن التي قام بها: «بطرس المبجل» و «روبرت الكيتوني» وصدرت في (١١) كانون الثاني عام (١٥٤٣م) بإشراف مباشر من لوثر.

كتب لوثر بازدهاء بعد صدور هذه الطبعة: «لأن المرء لا يستطيع أن يلحق بمحمد أو بالأتراك شيئاً أكثر إثارة للغضب، ولا أن ينالهم بضرر -وإيذاء- هما أشد من كل ما عداهما من الأسلحة - كالذي يلحق بهم حين يكشف عن قرآنهم لدى المسيحيين لكي يروا كم هو كتاب ملعون، شائن إلى أقصى الدرجات، وكم هو حافل بالأكاذيب والخرافات وكل الفظائع»^(١).

ب- وظّف لوثر كل هذا سياسياً في حشد موقف مسيحي أوروبي صليبي ضد المسلمين العثمانيين الذين كانوا إذ ذاك يسجلون انتصارات باهرة. من سقوط بلغراد في أيديهم عام (١٥٢١م) إلى ضم كامل المجر عام (١٥٤١م) ثم قبرص التي تعد آخر قاعدة بحرية مسيحية في الشرق.

يقول لود فيغ هاغمن: «يجب النظر إلى موقف مارتن لوثر من الإسلام على أساس الخلفية لهذا الموقف السياسي العسكري، لأن «الأتراك يقتربون منا ...» هكذا سوّغ رسالته: «عن الحرب ضد الأتراك» "Vom Kriege Widder"

(١) نقلاً من: مسيحية ضد الإسلام (٦٩).

"die Turken" العائدة لعام (١٥٢٩م) في تقديمها إلى الأمير «فيليب فون هيسن»، وعبر فيها في الوقت ذاته عن ذلك الخوف الذي استحوذ على أوروبا في كل مكان مما سمي: خطر الأتراك^(١).

ج- لقد شنّ لوثر هجومًا كبيرًا على الإسلام والقرآن والنبى ﷺ وقد كان يدبر جداله للإسلام على محورين أساسيين ظاهرين في كتاباته:

المحور الأول: أن الشيطان هو الذي حرّض محمدًا ﷺ وأن القرآن من وضع وتأليف الشيطان.

يقول لوثر: «ولما كان روح الكذب قد استحوذ على محمد، وكان الشيطان قتل الأرواح بقرآنه وأفسد عقيدة المسيحيين؛ فإنه لم يكن له بد أن يخرج ويمتشق سيفه، ويهاجم الأجساد ليقتلها، وعلى هذا فلا سبيل إلى العقيدة التركية بالمواعظ والأعمال العجائبية بل وصل الأمر إلى القتل بالسيف»^(٢).

المحور الثاني: أن الإسلام إنما انتشر نتيجة للأعمال العسكرية. وقد ظل أهل الجدل المذهبي المسيحيون المعادون للإسلام يمثلون هذه الأطروحة أيضًا المرة بعد المرة، ومارتن لوثر لا يشكل هنا استثناء، كما يقول لود فيغ هاغمن^(٣).

(٤) بابا الفاتيكان: «يوحنا بولس الثاني»:

منذ انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥م) أصبح الفاتيكان يلعب دورًا خطيرًا في تحريك الأحداث السياسية وتوجيهها.

(١) المصدر السابق (١٢٩).

(٢) نقلًا عن: مسيحية ضد الإسلام (١٣٥).

(٣) المصدر السابق.

يعبر «يوحنا بولس الثاني» بابا الفاتيكان السابق عن هذا بقوله: «إن الكرسي الرسولي يسعى للتدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية أو الانضمام إليهم بمحاورتهم، أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة»^(١).

في هذا المجمع تم تقرير أمرين انبني عليهما توجه وأعمال الفاتيكان. بعد ذلك:

الأمر الأول: تبرئة اليهود من دم المسيح.

ظل النصارى على مختلف طوائفهم يرددون في كل قداس ولمدة ألفي عام، التباكي على دم المسيح المصلوب لخلاص البشرية.

ثم يأتي الفاتيكان ليلغي ذلك بإعلان تبرئة اليهود من دم المسيح!!!
في إلغاء لجوهر الاعتقاد المسيحي. ويصمت نصارى العالم على ذلك!!!
أم هي مصالحة سياسية لتوحيد صفوف المسيحيين مع اليهود في مواجهة الإسلام؟!.

في الوقت الذي لم يغير يهودي واحد موقفه من المسيح وأمه والمسيحية وأناجيلها.

في إنجيل يوحنا: قال المسيح لليهود: «قد عرفت أنكم تطلبون قتلي، إن كلامي لا محل له فيكم»^(٢).

قال له اليهود: «الآن عرفنا أن بك مسأ من الشيطان»^(٣).

(١) الجغرافيا السياسية للفاتيكان (٢٧٠).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح: ٨ (٣٧).

(٣) المصدر السابق: الإصحاح ٨ (٥٢).

فأخذوا حجارة ليرموه بها، فتوارى يسوع وخرج من الهيكل»^(١).
 الأمر الثاني: الدعوة التي أعلنها البابا «يوحنا بولس الثاني» لإعادة تنصير
 العالم "La Ree Vangelisation du Monde".

وأعلن ذلك في «كمبوستيل» بشمال غرب أسبانيا سنة (١٩٨٢م).
 يمثل هذا الإعلان ومطالبة البابا بتنصير العالم، نقطة تحول جذرية، تعد
 بمثابة إعلان حرب صليبية جديدة، تماثل تلك التي أعلنها البابا «أوربان الثاني»
 عام (١٠٩٥م) فمما له مغزاه أن هذه المدينة: «كمبوستيل» «شانت يقب» هي
 آخر ما امتد إليه الفتح الإسلامي، وقد ازدادت أهميتها بعد القرن الحادي عشر،
 ومعركة الاسترداد لتصبح مزارًا يحج إليه مسيحيو الغرب^(٢).

تأججت نار العداوة للإسلام في ذلك المجمع الفاتيكاني، ورموزه.
 وأصبحت تطلق بعد ذلك الدعوات لصناعة «القويبا» من الإسلام. وحشد
 المسيحيين واليهود وأصحاب الديانات الأخرى لحربه وإيقافه.

ويمثل الفاتيكان و «يوحنا بولس الثاني» وخليفته من بعده «بيندكت» السادس
 عشر، الرأس في ذلك.

يقول «موريس بوكاي»: «إن المسيحية لا تأخذ في الاعتبار أية ديانة بعد
 المسيح ورسله وبذلك فهي تستبعد القرآن»^(٣).

ويقول «الأب كاسبار»: «إن هناك من بين رجال الدين الحاضرين من يعتبرون

(١) المصدر السابق: الإصحاح: ٨ (٥٩).

(٢) الفاتيكان والإسلام؛ للدكتور: زينب عبد العزيز (١٩).

(٣) نقلًا عن المصدر السابق (٢٠).

أن الإسلام خطأ مطلق لا بد من رفضه؛ لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته»^(١).

ولذلك يعتبر «لود فيغ هاغمن» أن مسيحي العصر الحاضر والفايكان قد فوتوا فرصة ذهبية لفهم الإسلام والتعايش مع المسلمين إذ سلكوا مسلك القدماء في صناعة الفوبيا وإرادة تنصير المسلمين.

يقول: «لم يتحقق مطلب الكنائس المسيحية في العصر الحديث التغلب على الإسلام عن طريق التبشير؛ بل على النقيض: إذ أجمع في سياق الاستعمار نار مزايا جديدة عند المسلمين، وفي هذا الوقت فوت المسيحيون فرصة مناقشة الإسلام بحكم كونه ديانة عالمية، بأسلوب موضوعي وبناء، من دون نوايا تتصل بالجدل المذهبي، والدفاع عن العقيدة مع التحرر من ادعاءات الحق المذهبية وألوان القسر العقدي»^(٢).

أطلق المجمع الفاتيكانى (١٩٦٢-١٩٦٥م) دعوة لاحترام المسلمين. واستبشر بها خيراً. في أنها تفتح لتوجه جديد في التعامل مع الإسلام. رغم أن المسلمين يعيشون المرارة مما أحدثته الحروب الصليبية والاستعمار. وطرد المسلمين من شرق أوروبا ومساهمة المسيحية باحتلال فلسطين ومنحها لليهود. نجد ضمن قرارات هذا المجمع التصريح في العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية: «تتظر الكنيسة باحترام كبير أيضاً للمسلمين، الذين يعبدون الله الواحد الأحد الحي، والكائن بذاته والرحيم والقادر على كل شيء، وخالق السماء والأرض، الذي تحدث إلى البشر. وهم يجتهدون في الامتثال لتوجيهاته

(١) نقلاً عن المصدر السابق (٢٠).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٥٩).

الخفية أيضًا، بكل قلوبهم، مثلما امثل إبراهيم لأمر الله، وهو الذي يسر العقيدة الإسلامية أن تستند إليه، أما يسوع الذي لا يعترفون به إلهاً فيمجدونه مع ذلك رسولاً . . . ولما كانت الأمور انتهت مع ذلك على مر القرون إلى بعض الخصومات، وأنماط العداوة بين المسيحيين والمسلمين؛ فإن مؤتمر الكنائس المقدس يذكّر الجميع بوجوب طرح الماضي جانباً، والسعي المخلص إلى التفاهم المتبادل، والوقوف معاً من أجل صيانة العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية، وأخيراً وليس آخراً من أجل صيانة السلام والحرية للبشر^(١).

هذا الكلام وهذه الدعوة للحوار مع المسلمين. لا تغني عن حقائق مهمة، بل هي كشفت عن وجهين للفاثيكان: وجه يظهر التسامح ويدعو للحوار.

وجه حقيقي يعمل بجهد لتنصير العالم وتوحيد الإسلام، وشرعنة حروب الإبادة للمسلمين

إن الكنيسة الغربية لا تعترف بالإسلام كدين سماوي ولا بمحمد كنبى ولا بالقرآن ككتاب مقدس.

يذكر «الأب ميشيل لولنج» هذه الحقيقة فيقول: «إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالة، لذلك فهي لا تعترف بنبي الإسلام الذي أدانه المسيحيون بصورة سلبية تهجمية عدوانية، والمؤلفات العديدة بكل أسف تشهد على ذلك».

كتب لولنج هذا سنة (١٩٨٢م) بعد زيارته للبنان وهو عضو بارز في جمعية الحوار الإسلامي المسيحي.

«لم يعد مفهوم الحوار مثلما جرى العرف، على أن يتبادل طرفان المناقشة

(١) المصدر السابق (٦٥-١٦٦).

الموضوعية والتي تحسم لصالح الأرجح منطقيًا، وإنما أصبح الحوار يعني في نظر الكرسي الرسولي: فرض الارتداد والإجبار على الدخول في سر المسيح، مع مراعاة الاحترام، والود ومظاهر التقدير وعدم الدخول في مناقشات عقائدية يصعب على المبشرين الإفلات منها أو التغلب عليها لذلك يوصي المخططون بالبحث عن نقاط مشتركة سواء في العبادات أو في المظاهر اليومية واستغلالها كمنافذ للتسلل من خلالها للنيل من الإسلام»^(١).

يسعى الفاتيكان و«يوحنا بولس الثاني» خصوصًا على العمل الدؤوب على نشر رسالة الإنجيل في العالم كله، والمسلمين على وجه الخصوص ومن خلال ما يلي:

(أ) عقد المؤتمرات التنصيرية باستمرار للعمل على إحداث اختراق ذي قيمة للعالم الإسلامي والمسلمين.

• مؤتمر «الوزان» (١٩٧٤م).

• مؤتمر «كولو رادو» الشهير (١٩٨٧م) والذي حضره أكثر من (١٥٠) عالمًا مسيحيًا متخصصًا في شؤون التنصير. وتمت فيه دراسة أربعين بحثًا تناول كل بحث منها منفذًا ومدخلًا للعمل لتنصير المسلمين في العالم الإسلامي كله^(٢).

• مؤتمر مسيحي الشرق المنعقد في باريس عام (١٩٨٥م).

• وآخر ذلك المؤتمر المسيحي الكبير المنعقد بالفاتيكان في خريف عام

(١) الفاتيكان والإسلام؛ د. زينب عبد العزيز (٩-١٠).

(٢) انظر هذه البحوث والأعمال والتوصيات لمؤتمر كولورادو في كتاب: التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي. وهو ترجمة لما نشرته دار (MARC) بعنوان: The Gospel and Islam، ونشر سنة ١٩٧٨م.

(٢٠١١م). وحضره ممثلون من جميع نصارى وكنائس العالم خصوصًا المشرقية منها من مصر والشام والعراق وغيرها. ولا تزال قراراته طي الكتمان.

(ب) إنشاء عدد كبير من المنظمات والمؤسسات التي تعمل للتصير وبثها وزرعها في مختلف بلدان العالم. والعالم الإسلامي على وجه الخصوص منها على سبيل المثال:

- منظمة إيمانويل.

- منظمة أسد يهوذا.

- الصحوة الكاريزماتية الكاثوليكية.

- القربان والتحرر.

- البؤر الصغيرة.

- عمل الرب ... وغيرها

(ج) أطلق الفاتيكان قمرًا صناعيًا خاصًا به وهو مشروع «لومن ٢٠٠٠» الذي يمطر العالم كله برسالة الإنجيل.

(د) العمل الفاتيكاني برعاية «يوحنا بولس الثاني» على تكوين الكنيسة العالمية الواحدة لتوحيد العقيدة المسيحية تحت لواء الكاثوليكية وفرضها على الصعيد العالمي.

(هـ) في ما يتعلق بفرض التنصير على العالم الإسلامي فقد أصدر الفاتيكان برعاية «يوحنا بولس الثاني» كتاب «التفسير الديني الجديد للكنيسة الكاثوليكية العالمية» وقد صدر في نوفمبر من عام (١٩٩٢م) وقد صدر بمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثون عامًا على ذكرى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني.

ففي البند التاسع من فصل: «عقيدة الإيمان بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة». نجد النص: «أما فيما يتعلق بالذين لم يقبلوا الإنجيل بعد، بأشكال مختلفة فهم أيضًا مأمورون بأن يصبحوا شعب الله»^(١).

ثم في نص آخر يقول الكتاب: «إن هدف الخلاص يتضمن أيضًا من يعترفون بالخالق:

أولاً: المسلمون الذين يؤمنون بإبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحيم حاكم الناس في اليوم الآخر»^(٢).

يعلق الأب «كاسبار» فيقول: «لقد أعيدت صياغة النص، حتى لا يتخذ تمهيدًا لحل المسائل الصعبة، التي ظل النقاش حولها أمثال: النسب التاريخي للعرب ابتداء من إسماعيل، وخاصة صلة الإسلام بالرسالة الإنجيلية، حتى لا يفهم منها أن الله تحدث إلى محمد، فالنص النهائي لا يكشف عن أن إبراهيم جد نَسبي للعرب المسلمين ولكن كنمط للإيمان الإسلامي بخضوعه لإرادة الله؛ لأن ذلك يفصل جذريًا ما بين العقائد التوحيدية الناجمة عن المجهود البشري، سواء أكانت عقلانية أم لا، وبين الديانات التي هي ثمرة كلمة الله شخصيًا، كتتنزيل بحث».

ثم يقرر الكتاب: «أن من واجب الكنيسة المقدس تبشير كل الذين ما زالوا يجهلون الإنجيل»^(٣).

(و) أصدر البابا «يوحنا بولس الثاني» كتابًا في شهر أكتوبر سنة (١٩٩٤م)

(١) Cate Chismede I. Eglise Catholique Ma ma Polon , Paris, 1992. (94).

(٢) المصدر السابق (١٨٥).

(٣) المصدر السابق (١٨٦-١٨٧).

بعنوان (ادخلوا في الرجاء)، وهو عبارة عن أجوبة لأسئلة طرحها عليه الصحفي الإيطالي «فيتور يوميسوري» ومن ضمنها سؤال خاص بالإسلام والمسلمين هذا نصه:

ما الفرق بين الله عند المسلمين وإله المسيحيين؟

أجاب يوحنا بولس بجواب طويل نلخصه فيما يلي:

• يقول البابا: «نعم بالطبع فالأمر مختلف كلية فيما يتعلق بهذه الديانات التوحيدية الكبرى بدءًا بالإسلام».

• ثم استشهد البابا بفقرة من بيان المجمع الفاتيكاني الثاني السابق ذكره المتعلق باحترام المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي الدائم القدير».

• يقول البابا: «إن أي شخص يقرأ القرآن وهو على دراية مسبقة بالعهد القديم والجديد سيلحظ بوضوح، سياق الاختزال الذي تعرض له التنزيل الإلهي المسيحي، ومن المحال ألا يصدم المرء من عدم الفهم الذي يظهر في القرآن بوضوح، لما قاله الله عن نفسه، أولاً: عن طريق الأنبياء في العهد القديم. ثم لما قاله بصورة نهائية في العهد الجديد عن طريق ابنه.

وبالفعل إن كل هذا الثراء الخاص بكشف الله عن ذاته والذي يمثل تراث العهد القديم والجديد قد تُرك جانبًا في الإسلام».

• يقول البابا: «إن الله القرآني تطلق عليه أجمل الأسماء المعروفة في اللغة الإنسانية، لكنه في نهاية المطاف مجرد إله يظل غريبًا عن العالم: إنه عبارة عن إله جلالة فحسب وليس أبدًا «عما نويل» أي: «الله معنا»، إن الإسلام ليس دين فداء وهو لا يعطي أية مساحة للصليب ولا للبعث، ولقد ورد ذكر يسوع، وإنما

تم ذكره كنبى فقط، عليه أن يمهد الطريق لمجئ «ما أومية»^(١) آخر كل الأنبياء، ومريم أيضًا الأم العذراء قد ورد ذكرها، إلا أن مأساة العذراء غائبة كلية، لذلك فإن علم اللاهوت؛ بل وكذلك علم الإناسة في الإسلام شديد البعد عنها في المسيحية»^(٢).

واضح الاجتزاء في قراءة القرآن والاختزال الشديد والمصادرة الكبيرة لمواضيع عظيمة حررها القرآن الكريم. والدفاع العظيم عن المسيح ﷺ وأمه الصديقة، ضد اتهامات يهود، والدعوة الصريحة من القرآن ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِذْ هُمْ لَا يُشْعِلُونَ﴾^(٣) وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

(ز) في شهر نوفمبر سنة (١٩٩٤م) أعلن «يوحنا بولس الثاني» خطابًا مطولاً بمناسبة اقتراب الألفية الثالثة. وكان الموضوع الرئيس هو: «يسوع المسيح، محور العالم وسيد تاريخه».

يحدد «جوزيف فاندريس» مراسل صحيفة «لوفيجارد»^(٣) في الفاتيكان الهدف بوضوح فيقول: «إن عام ٢٠٠٠م سيصبح إذن عام الخلاص، عام استقبال الإنجيل الذي عرضه يسوع في المعبد اليهودي بمدينة الناصرة، كرسالة تحرير لكافة شعوب العالم».

يعلق «هنري تانك» على هذا الخطاب البابوي ليوحنا بولس الثاني في صحيفة

(١) يعني محمدًا ﷺ.

(٢) المصدر: كتاب الفاتيكان والإسلام (٤٠-٤٢).

(٣) في العدد الصادر في (١١/١١/١٩٩٤م)، المصدر: كتاب الفاتيكان والإسلام.

«لوموند»^(١) الفرنسية يقول: «إن إعدادات البابا لا تفتقر إلى الجرأة أو إلى التنسيق، إذ يبدأ خطابه بتأمل طويل حول مغزى قيمة الزمان ليؤكد على سيادة المسيحية على كافة الديانات ثم يتناول سر التجسد وهو السر الذي يمثل مولد المسيح بالنسبة للمسيحيين . . . وقرأ المرء بحرج شديد أحياناً تلك الصفحات التي يقول فيها البابا: إن دخول الله في التاريخ البشري بمثابة تطلع نجده في كل الديانات إذ أن يسوع بالنسبة للمسيحيين هو الله وهو إنسان في آن واحد . . . وأن المسيح هو تحقيق تطلع كافة ديانات العالم، ومن هنا فهو نهاية مطافها الوحيد والنهائي».

تلخص الباحثة الدكتورة زينب عبد العزيز أهداف هذا الخطاب البابوي في:

١- غاية الاحتفال: تمجيد الثالوث المسيحي (الكاثوليكي) وفرضه على العالم.

٢- الدعوة إلى إسقاط ديون العالم الثالث كضمن لقبوله رسالة الإنجيل.

٣- المواجهة مع العلمانية. تحييدها لمصلحة رسالة الإنجيل.

٤- الحوار مع الديانات الأخرى وخاصة الإسلام. بهدف وجود منافذ لنقل رسالة الإنجيل إلى العالم الإسلامي^(٢).

يقول لود فيغ هاغن: «إن جولة في تاريخ المسيحية الغربية حَرِيَّة بأن تظهر أبعاد نظرة استيعادية متعصبة، سواءً بالحوار والجدل أم بالتبشير أم بالحرب، وكان يجب فرض الحقيقة التي يدعيها كل طرف، واحتكار السلطة بكل

(١) في عددها بتاريخ (١٥/١١/١٩٩٤م).

(٢) الفاتيكان والإسلام (٩٧).

الوسائل، ولم يكن هناك بد من فرض احتكار الحقيقة والسلطة بكل الوسائل»^(١).

ويقول: «لا يزال يلاحظ هناك شعار معين ضد القرآن، تعبير الأب «قنوتي الدمينيكاني» وهو رائد لا يعتره الكلل من رواد المصالحة المسيحية الإسلامية صاغ هذا التعبير في عام (١٩٨٦م) في المؤتمر الخامس للدراسات الدينية اللاهوتية في «سان غابريل» في مودلينغ، في ضواحي فيينا، ويأتي فوق ذلك «الخوف السياسي من الإسلام الذي عاد إلى النمو خلال العقود الماضية في أوروبا»^(٢).

ويقول: «المسيحية في مواجهة الإسلام، هذا التاريخ لعلاقات بين المسيحيين والمسلمين انتهت إلى الإحباط، وباتت تنتمي إلى الماضي، وهذا الماضي يجب ألا يتكرر، ولكن يجب عدم نسيانه أيضًا؛ بل يجب إصلاحه وتجديده.

وتهدف هذه الدراسة إلى أن تكون إسهامًا في ذلك، فهي بحكم البديهية دراسة تذكيرية ودراسة تأيينية رثائية في الوقت ذاته، فبالتذكير بالعبء التاريخي الذي يجثم على الديانتين المسيحية والإسلام يختلط الحزن الذي لا عزاء له، والذي تبعه المأساة التي سلخت من التاريخ مئات السنين، كما تبدو على غير توقع في تاريخ العلاقات الخائبة بين المسيحيين والمسلمين، وما عاد توجيه الاتهامات المتبادلة يجدي فتيلاً إزاء الماضي المثقل بالازدراء على أن وجهة النظر القائلة: «كلهم كانوا مخطئين» (رومية: ٣: ٢٣) هي وحدها التي توجد

(١) مسيحية ضد الإسلام (٢٣).

(٢) المصدر السابق (٢٤).

نقطة تحول جذري في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، على أن ما تلقاه المبادرات الكثيرة التي أدت منذ منتصف الستينات من قرننا الماضي من الجانب المسيحي إلى توجه جديد من آذان صاغية من العالم الإسلامي، وما تجده العلامات الدالة على النية الحسنة هناك من صدى صريح، إنما يمثل الأمل الوحيد للمستقبل لكي يستطيع أولئك وهؤلاء أن يتعايشوا في هذا العالم، ويحافظوا على بقائهم في احترام متبادل.

و فقط حين يوفقون إلى ذلك، سوف يثبت خطأ نظرية عالم السياسة الأمريكي «صموئيل هنتنغتون» "Samuel Huntington"، التي يتعذر دحضها لأنها مبدئية، والتي كثر النقاش فيها أي نظرية تمايز الحضارات واصطدامها الوشيك، من حيث كونها أنموذجاً في تفسير الوضع العالمي الراهن^(١).

(١) المصدر السابق (٢٤-٢٥).

المرحلة الأولى: مذابح الأرمن إلى الحروب الصليبية في القرون الوسطى:

أولاً: مذابح الأرمن سنة ٣٥١ هـ (٩٥١ م) وما بعدها .

يقول الحافظ ابن كثير رحمته الله مصورًا المجازر الهائلة التي ارتكبتها الأرمن بقيادة ملكهم «الدمستق»^(١): «ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِخْدَى وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ فِيهَا كَانَ دُخُولُ الرُّومِ إِلَى حَلَبِ صَحْبَةِ الدَّمَسْتَقِ مَلِكِ الرُّومِ فِي مِائَتِي أَلْفٍ مُقَاتِلٍ، فَغَلَبَتْ الرُّومُ عَلَى السُّورِ فَعَلَوْهُ وَدَخَلُوا الْبَلَدَ يَقْتُلُونَ مَنْ لَقَوْهُ، فَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلْقًا كَثِيرًا وَانْتَهَبُوا الْأَمْوَالَ وَأَخَذُوا الْأَوْلَادَ وَالنِّسَاءَ، ... وَأَسْرَوْا نَحْوًا مِنْ بَضْعَةِ عَشَرَ أَلْفًا مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَصَبِيَّةٍ، وَمِنْ النِّسَاءِ شَيْئًا كَثِيرًا، ... وَخَرَّبُوا الْمَسَاجِدَ وَأَحْرَقُوهَا، وَصَبُّوا فِي جِبَابِ الزَّيْتِ الْمَاءَ حَتَّى فَاضَ الزَّيْتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَاهْلَكُوا كُلَّ شَيْءٍ قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَكُلَّ شَيْءٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حَمْلِهِ أَحْرَقُوهُ، وَأَقَامُوا فِي الْبَلَدِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ يَفْعَلُونَ فِيهَا الْأَفَاعِيلُ الْفَاسِدَةَ الْعَظِيمَةَ»^(٢).

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا: «وَكَانَ هَذَا الْمَلْعُونُ -الدَّمَسْتَقُ- مِنْ أَعْلَظِ الْمُلُوكِ قَلْبًا، وَأَشَدِّهِمْ كُفْرًا، ... وَأَكْثَرِهِمْ قَتْلًا وَقِتَالًا لِلْمُسْلِمِينَ ... وَذَلِكَ لِتَقْصِيرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَظُهُورِ الْبِدْعِ الشَّنِيعَةِ فِيهِمْ وَكَثْرَةِ الْعَصْيَانِ مِنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ مِنْهُمْ، وَفَشَا الْبِدْعِ فِيهِمْ، وَكَثْرَةِ الرِّفْضِ وَالتَّشْيِيعِ مِنْهُمْ، وَقَهْرِ أَهْلِ السَّنَةِ بَيْنَهُمْ، فَلِهَذَا أُدِيلَ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، ... كَانَ لَعْنَةُ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ فِي بَلَدٍ

(١) هو الذي عناه المتنبّي بقوله في قصيدته الشهيرة التي يمدح بها سيف الدولة ابن حمدان:

لذلك سَمَى ابن الدَّمَسْتَقِ يَوْمَهُ مِمَاتًا وَسَمَاءَ الدَّمَسْتَقِ مَوْلَدًا

فولّى وأعطاك ابنه وجنودَهُ جميعًا ولم يعط الجميع ليحمدا

والدَّمَسْتَقِ لِقَبِهِ واسمع نَقْفُورِ.

(٢) البداية والنهاية (٢٣٩/١١ - ٢٤٠) باختصار.

إِلَّا قَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ وَبَيَّعَ الرَّجَالَ، وَسَبَى النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، وَجَعَلَ جَامِعَهَا إِصْطَبْلًا لِحُيُولِهِ، وَكَسَرَ مِثْبَرَهَا، وَاسْتَنَكَتْ مَازْنَتَهَا بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَطَبُولِهِ^(١).

وكان هذا الدمستق قد أرسل قصيدة إلى الخليفة العباسي «المطيع لله» نظمها له بعض كتابه . . . وفيها من الغل على الإسلام والحق على المسلمين والرغبة في إبادتهم وقتلهم في جميع أقطارهم ورغبة أن يرى الأرض وقد خلت من كل مسلم. -خاب وخسر- وسأذكر نماذج منها لطلولها:

مِنْ الْمَلِكِ الظُّهْرِ الْمَسِيحِيِّ مَالِكِ	إِلَى خَلْفِ الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
أَمَا سَمِعْتَ أَذْنَاكَ مَا أَنَا صَانِعُ	وَلَكِنْ دِهَاقِ الْوَهْنِ عَنْ فِعْلِ حَازِمٍ
فَإِنْ تَكُ عَمَّا قَدْ تَقَلَّدْتَ نَائِمًا	فَإِنِّي عَمَّا هَمَمَنِي غَيْرُ نَائِمٍ
تُغَوِّدُكُمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا لِيَوْهِنُكُمْ	وَضَعُفُكُمْ إِلَّا رُسُومُ الْمَعَالِمِ
وَكَمْ قَدْ ذَلَّلْنَا مِنْ أَعِزَّةِ أَهْلِهَا	فَصَارُوا لَنَا مِنْ بَيْنِ عَبْدٍ وَخَادِمٍ
فَحَزْنُهُمْ أَسْرَى وَبَيِّقَتْ نِسَائُهُمْ	ذَوَاتُ الشُّعُورِ الْمُتَسِيلَاتِ النُّوَاصِمِ
إِلَى حَلَبٍ حَتَّى اسْتَبَخْنَا حَرِيمَهَا	وَهَدَمَ مِنْهَا سُورَهَا كُلُّ هَادِمٍ
أَخَذْنَا النِّسَاءَ ثُمَّ الْبَنَاتِ نُسُوقَهُمْ	وَصَبِيَانَهُمْ مِثْلَ الْمَمَالِيكِ خَادِمِ
وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ قَدْ تَرَكْنَا مَجْدَلًا	يَصُبُ دَمًا بَيْنَ اللَّهِ وَاللَّهَازِمِ
وَمَسْكَنُ آبَائِي دِمَشْقُ فَإِنِّي	سَازِجُ فِيهَا مُلْكَنَا نَحْتُ خَاتِمِي
وَمِضْرُ سَافَتْخَهَا بِسِفِي عَنُودِ	وَأَخَذَ أَمْوَالًا بِهَا وَبِهَائِمِي
سَافَتْحِ سَامِرَا وَكُونَا وَغُكْبَرَا	وَتَكَرَّبَتْهَا مَعَ مَارِدِينَ الْعَوَاصِمِ
وَأَقْتُلْ أَهْلِيهَا الرِّجَالَ بِأَسْرَهَا	وَاعْنَمْ أَمْوَالًا بِهَا وَحَرَائِمِ
أَلَا سَمُّوْا يَا أَهْلَ بَغْدَادَ وَنِلْكُمْ	فَكُلُّكُمْ مُسْتَضْعَفٌ غَيْرُ رَائِمِ

(١) المصدر السابق (١١/٢٤٣-٢٤٤) باختصار.

رضيتم بحكم الديلمي ورفضه
سألقي جيوشًا نحو بغداد سائرًا
وأخرق أغلامًا وأهدم سورها
وأخربز أموالًا بها وأيسرة
أسير بجندي نحو بضرنها التي
إلى واسط وسط العراق وكوفة
وأخرج منها نحو مكة مسرعًا
وأغزو يمانًا كلها وزبيدها
فاتركها أيضًا خرابًا بلاقمعًا
أعود إلى القدس التي شرفت بنا
هنالك تخلوا الأرض من كل مسلم
نصرنا عليكم حين جارت ولانكم
فصانكم باعوا القضاء بدينهم
سأفتح أرض الله شرقًا ومغربًا
فصرتم عبيدًا للعبيد الديالم^(١)
إلى باب طاق حيث دار القمام
وأنسي ذاريها على رغم راعم
وأقتل من فيها سيف النقام
لها بحر عجاج رائح متلازم
كما كان يومًا جندنا ذو العزائم
أجر جيوشًا كالمليالي السواجم
وصنعاء ها مع صعدة والتهاجم
خلاء من الأهليين أهل النعائم
يعز مكيين ثابت الأضل قائم
لكل نقي الدين أغلف زاعم^(٢)
وأعلنتموا بالمنكرات العظام
كبيح ابن يعقوب بخس الدراهم
وأنشر دينًا للصليب بصارمي^(٣)

وقد انتخى للرد على هذه القصيدة الأرمنية الصليبية الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي رحمته الله فأجاد وأفاد، وهذه بعض مقاطع هذه القصيدة الإسلامية

(١) عرف هذا الصليبي الحاقدا أن ظهور الرفض وتمكن الرافضة من العراق، بلدان المسلمين هو سبب الهزائم والمذابح التي تقع على المسلمين. وهو الذي يفتح الطريق لهؤلاء النصارى لغزو بلدان المسلمين وقتلهم.

(٢) هذه هي أمنية كل صليبي حاقدا أن يرى الأرض خالية من كل مسلم.

(٣) انظر القصيدة بطولها في البداية والنهاية لابن كثير (٢٤٤/١١-٢٤٧)

في الرد على تلك القصيدة الصليبية :

مِنَ الْمُخْتَمِي بِاللّهِ رَبِّ الْعَوَالِمِ
مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى اللَّهِ بِالتَّقَى
عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ مُرَدِّدًا
إِلَى قَائِلٍ بِإِلْفِكَ جَهْلًا وَضِلَّةً
دَعَوْتَ إِمَامًا لَيْسَ مِنْ أَمْرَانِهِ
وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَالٍ مَاضِي جُدُودِهِ
وَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْأُمُورَ تَخَاذُلًا
وَقَدْ شَعَلَتْ فِيْنَا الْخِلَافُ فِتْنَةً
يَكْفُرُ أَبَايَدِهِمْ وَجَعِدَ حُقُوقِهِمْ
وَتُبْتُمْ عَلَى أَطْرَافِنَا عِنْدَ ذَاكُمُ
بَابِنَاءِ حَمْدَانٍ وَكَافُورَ ضَلُّكُمُ
دَعِي وَحَجَّامَ سَطَوْتُمْ عَلَيْهِمَا
تَرِيدُونَ بَغْدَادَ سَوْقًا جَدِيدَةً
مَحَلَّةُ أَهْلِ الرُّهْدِ وَالْعِلْمِ وَالتَّقَى
دَعُوا الرَّمْلَةَ الصَّهْبَاءَ عَنْكُمُ فِدْوَنَهَا
وَدُونَ دِمَشْقٍ جَمْعُ جَيْشٍ كَأَنَّهُ
وَصَرَبٌ يُلْقِي الْكُفْرَ كُلَّ مَذَلَّةٍ
وَمِنْ دُونَ أَكْنَافِ الْحِجَازِ جِحَافِلٍ
بِهَا مِنْ بَنِي عَدْنَانَ كُلُّ سَمِيدَعٍ
وَيَدِينُ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَبِالرُّشْدِ وَالْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَائِمٍ
إِلَى أَنْ يُؤَافِي الْحِشْرَ كُلُّ الْعَوَالِمِ
عَنِ التَّقْفُورِ الْمُفْتَرِي فِي الْأَعَاجِمِ
بِكُفَيْهِ إِلَّا كَالرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ
لَجَرَّعْتُمْ مِنْهُ سُومَ الْأَرَاكِمِ
وَدَانَتْ لِأَهْلِ الْجَهْلِ دَوْلَةُ ظَالِمٍ
لِعِبْدَانِهِمْ مَعَ تُرْكِهِمْ وَالدَّلَائِمِ
بِمَنْ رَفَعُوهُ مِنْ حَضِيضِ الْبَهَائِمِ
وَنُوبَ لَصُوصٍ عِنْدَ غَفْلَةِ نَائِمٍ
أَرَادَلِ أَنْجَاسٍ قِصَارِ الْمَعَاصِمِ
وَمَا قَدَّرَ مَصَاصٍ دِمَاءَ الْمَحَاجِمِ
مَسِيرَةَ شَهْرِ لِلْفَنَيْنِ الْقَوَاصِمِ
وَمَنْزِلَةَ يَخْتَارُهَا كُلُّ عَالِمٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْغَرَّ كُلُّ مُقَاوِمٍ
سَحَابٍ طِيرٍ يَنْتَحِي بِالْقَوَادِمِ
كَمَا صَرَبَ السَّكِّي بِبُضِّ الدَّرَاهِمِ
كَفَطَرِ الْغَيُومِ الْهَائِلَاتِ السَّوَاحِمِ
وَمِنْ حِي قَحْطَانِ كِرَامِ الْعِمَائِمِ

إذا أصبحوكم ذكروكم بما خلا
 زَمَانَ يَقُودُونَ الصَّوَافِينَ نَحْوَكُمْ
 سَيَأْتِيَكُمْ مِنْهُمْ قَرِيبًا عَصَائِبُ
 وَمِنْ دُونِ بَيْتِ اللَّهِ فِي مَكَّةَ الَّتِي
 مَحَلُّ جَمِيعِ الْأَرْضِ مِنْهَا تَبَيَّنَّا
 دِفَاعَ مِنَ الرَّحْمَنِ عَنْهَا بِحَقِّهَا
 بِهَا وَقَعَ الْأَجْبُوشُ هَلَكَى وَفِيْلَهُمْ
 وَجَمَعَ كَجَمْعِ الْبَحْرِ مَاضٍ عَرَمَرَمَ
 وَمِنْ دُونِ قَبْرِ الْمُضْطَفَى وَسَطِ طَبِيبَةٍ
 يَقُودُهُمْ جَيْشُ الْمَلَائِكَةِ الْعَلَى
 فَلَوْ قَدْ لَقِينَاكُمْ لَعَدْتُمْ رَمَائِمًا
 وَيَا لَيْمَنَ الْمَمْنُوعِ فِتْيَانُ غَارَةٍ
 فَأَهْلًا وَسَهْلًا ثُمَّ تُعْمَى وَمَرْحَبًا
 هُمْ نَصَرُوا الْإِسْلَامَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا
 رُوْنِدًا فَوَعْدُ اللَّهِ بِالصَّدَقِ وَارِدٌ
 سَنَفْتَحُ قُسْطَنْطِينَيةً وَذَوَانَهَا
 وَنَفْتَحُ أَرْضَ الصِّينِ وَالْهِنْدَ عَنُوةً
 مَوَاعِيدَ لِلرَّحْمَنِ فِينَا صَحِيحَةٌ
 أَتَقْرَنُ يَا مَخْذُولَ دِينًا مِثْلَنَا
 تَلِيْنُ لِمَخْلُوقٍ يَدِينُ لغيرِهِ
 أَنَا جَيْلُكُمْ مَصْنُوعَةٌ قَدْ تَشَابَهَتْ

لهم معكم من صادق مُتَلَا حِمِ
 فَجِئْتُمْ صَمَانًا أَنْكُمْ فِي الْغَنَائِمِ
 تُنْسِيْكُمْ تَذْكَارَ أَخَذِ الْعَوَاصِمِ
 حِبَاهَا بِمَجْدٍ لِلْبَرَايَا مَرَا حِمِ
 مَحَلَّةُ سُفْلِ الْخُفِّ مِنْ قَصِّ خَاتِمِ
 فَمَا هُوَ عَنْهَا رَدُّ طَرَفِ بَرَائِمِ
 بِحَصْبَاءِ طَيْرٍ فِي ذَرَى الْجَوْ حَائِمِ
 حَمَى بَنِيهِ الْبُظْخَاءِ ذَاتِ الْمَحَارِمِ
 جُمُوعُ كُمُسُودٍ مِنَ اللَّيْلِ فَاجِمِ
 دِفَاعًا وَدَفْعًا عَنْ مُصَلِّ وَصَائِمِ
 كَمَا فَرَقَ الْإِعْصَارُ عَظَمَ الْبَهَائِمِ
 إِذَا مَا لَقَوْكُمْ كُنْتُمْ كَالْمَطَاعِمِ
 بِهِمْ مِنْ خِيَارِ سَالِفِينَ أَقَادِمِ
 وَهُمْ فَتَحُوا الْبُلْدَانَ فَتَحَ الْمُرَاجِمِ
 يَتَجَرَّعُ أَهْلُ الْكُفْرِ طَعْمَ الْعَلَاقِمِ
 وَنَجْعَلُكُمْ فَوْقَ النَّسُورِ الْقِعَاشِمِ
 بِجَيْشِ الْأَرْضِ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ حَاطِمِ
 وَلَيْسَتْ كَأَمَالِ الْعُقُولِ السَّوَاقِمِ
 بَعِيدًا عَنِ الْمَعْقُولِ بِأَيْدِي الْمَائِمِ
 فَيَا لَكَ سَحْقًا لَيْسَ يَخْفَى لِعَالَمِ
 كَلَامِ الْأُولَى فِيهَا أَنْوَا بِالْعَظَائِمِ

وَعُودُ صَلِيبٍ مَا تَرَالُونَ سُجَّدًا
تَدِينُونَ تَضَلُّالًا بِصَلْبِ إِلْهَكُم
إِلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ تَوْجِيدِ رَبِّنَا
وَصِدْقِ رِسَالَتِ الَّذِي جَاءَ بِالْهُدَى
وَأَذَعَنَتِ الْأُمَلَاكُ طَوْعًا لِإِدِينِهِ
وَحَابَاهُ بِالنَّصْرِ الْمَكِينِ إِلَهُهُ
فَقِيرٌ وَحِيدٌ لَمْ تُعْنِهِ عَشِيرَةٌ
وَلَا عِنْدَهُ مَالٌ عَتِيدٌ لِنَاصِرٍ
وَلَا وَعْدَ الْأَنْصَارِ مَالًا يَخْضَعُهُمْ
وَلَمْ تَنْهَنْهُ قَطُّ قُوَّةُ آسِرٍ
كَمَا يَفْتَرِي إِفْكًا وَزُورًا وَضِلَّةً
عَلَى أَنْكُمْ قَدْ قَلْتُمُوا هُوَ رَبُّكُمْ
أَبَى لِلَّهِ أَنْ يُدْعَى لَهُ ابْنٌ وَصَاحِبٌ
وَلَكِنَّهُ عَبْدُ نَبِيِّ رَسُولٍ مُكْرَمٍ
أَيْلَطُمُ وَجْهَ الرَّبِّ؟ تَبًّا لِدِينِكُمْ
وَكَمْ آيَةٍ أَبْدَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ
تَسَاوَى جَمِيعُ النَّاسِ فِي نَصْرِ حَقِّهِ
فَعَرَبٌ وَأَخْبُوشٌ وَفَرَسٌ وَبَرْبَرٌ
وَقَبِطٌ وَأَنْبَاطٌ وَخَزَرٌ وَدَيْلَمٌ
أَبُو كُفْرٍ أَسْلَافٌ لَهُمْ فَتَمْنَعُوا
بِهِ دَخَلُوا فِي مِلَّةِ الْحَقِّ كُلُّهُمْ

لَهُ يَا عُقُولَ الْهَامِلَاتِ السَّوَائِمِ
بِأَيْدِي يَهُودٍ أَذْلِينَ لِأَنَّهُمْ
فَمَا وَبُنُ ذِي دِينٍ لَهَا بِمُقَاوِمِ
مُحَمَّدٍ الْآتِي بَرَفَعِ الْمَطَالِمِ
بِزُهَانٍ صِدْقٍ طَاهِرٍ فِي الْمَوَاسِمِ
وَصَيَّرَ مِنْ عَادَاهُ تَحْتَ الْمَنَاسِمِ
وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ شَتِيمَةً شَاتِمِ
وَلَا دَفَعِ مَرْهُوبٍ وَلَا لِمُسَالِمِ
بَلَى كَانَ مَعْصُومًا لِأَقْدَرِ عَاصِمِ
وَلَا مُكْنَتٌ مِنْ جِسْمِهِ يَدُ ظَالِمِ
عَلَى وَجْهِ عَيْسَى مِنْكُمْ كُلِّ لَاطِمِ
فِيَا لَضَلَالٍ فِي الْقِيَامَةِ عَائِمِ
سَتَلْقَى دُعَاةَ الْكُفْرِ حَالَةَ نَادِمِ
مِنْ النَّاسِ مَخْلُوقٌ وَلَا قَوْلَ رَاحِمِ
لَقَدْ فَتَقْتُمْ فِي قَوْلِكُمْ كُلَّ ظَالِمِ
وَكَمْ عِلْمٍ أَبْدَاهُ لِلْمَشْرِكِ حَاطِمِ
بَلْ لِكُلِّ فِي إِعْطَائِهِ حَالُ خَادِمِ
وَكُرْدِيَّهُمْ قَدْ قَارَ قِدْحُ الْمَرَا حِمِ
وَرُومٌ رَمَوْكُمُ دُونَهُ بِالْقَوَاصِمِ
فَأَبَوْا بِحُظِّ فِي السَّعَادَةِ لَازِمِ
وَدَانُوا لِأَحْكَامِ الْإِلَهِ اللَّوَا حِمِ

بِهِ صَحَّ تَفْسِيرُ الْمَنَامِ الَّذِي أَتَى به دانيال قبله حتم حاتم
 وَهَنْدَ وَسَنَدَ أَسْلَمُوا وَتَدِينُوا بدين الهدى رفض لدين الأعاجم
 وَشَقَّ لَهُ بَذَرَ السَّمَوَاتِ آبَةً وَأَشْبَعَ مِنْ صَاعٍ لَهُ كُلُّ طَاعِمٍ
 وَسَالَتْ عُيُونُ الْمَاءِ فِي وَسْطِ كَفِهِ فَأَرَوَى بِهِ جَيْشًا كَثِيرًا هَمَامٍ
 وَجَاءَ بِمَا تَقْضِي الْعُقُولُ بِصَدَقِهِ وَلَا كَدْعَاءَ غَيْرِ ذَاتِ قَوَائِمٍ
 عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقُ نَعَقِبَهُ ظُلْمَاءُ أَشْحَمَ قَاتِمٍ
 بَرَاهِينُهُ كَالشَّمْسِ لَا مِثْلُ قَوْلِكُمْ وَتَخْلِيْطُكُمْ فِي جَوْهَرٍ وَأَقَانِمٍ
 لَنَا كُلُّ عِلْمٍ مِنْ قَدِيمٍ وَمُخَدِّثٍ وَأَنْتُمْ حَمِيرٌ دَامِيَاثُ الْمَحَازِمِ
 أَتَيْتُمْ بِشُغْرِ بَارِدٍ مُتَخَاذِلٍ ضَعِيفٌ مَعَانِي النِّظْمِ جَمِ الْبَلَاعِمِ
 قَدُونَكُهَا كَالْعِقْدِ فِيهِ زُمُرْدٌ وَدُرٌّ وَيَأْفُوتُ بِإِحْكَامٍ حَاكِمٍ^(١)

(١) انظر القصيدة بتمامها في البداية والنهاية لابن كثير (١١/٢٤٧-٢٥٢).

ثانيًا: الحملات الصليبية لنشر المسيحية وإبادة الأمة الإسلامية في التاريخ الوسيط (القرون الوسطى)

بعد دخول القدس تحت حكم المسلمين السلاجقة السّنة في القرن الثاني عشر الميلادي. أطلق الإمبراطور «ألكسيوس الأول كُمنشُس» (Alexia's I komnenos) نداء استغاثة إلى البابا «أوربان الثاني» وعلى إثره انعقد المجمع الكنسي في كلر مونت (CLer mont) في (٢٧/١١/١٠٩٥م). وكان هدف انعقاد هذا المجمع: تحرير القدس من أيدي الكفار (أي المسلمين).

يقول ديتر تسمر لنغ: «دعا «أوربان الثاني» إلى عقد مجمع لرؤساء الكنائس في كليرمون... كما أبدى رغبته في التحدث علنًا إلى الشعب، الذي يعرف لغته؛ لأنه من أصل فرنسي نبيل فجمع الناس يوم ٢٧ تشرين الثاني عام (١٠٩٥م) في ساحة كبيرة وشارك في الحشد عدد ضخم من رجال الدين بينهم رهبان، وحضر الفرسان وصغار النبلاء (التجار والحرفيون) إلى جانب المتسولين، انتظر هؤلاء البابا بتلهف وتوتر، ظهر «أوربان الثاني» في أردية احتفالية بابويه، يرافقه أساقفة في ملابسهم الكهنوتية حين تقدم البابا إلى الأمام، وصمت الحشد فقال: «يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب، أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الرب المحبوب والمختار... إن شعب إمبراطورية فارس الغريب والكافر، مهزوز الطباع... احتل أراضي المسيحيين وأفرغها من أهلها بالموت، والنهب والحرق، وساق قسمًا من الأسرى إلى بلاده، وقتل القسم الآخر أشنع قتلًا، ودمر كنائس الرب تدميرًا منظمًا... إنهم يدينسون الهياكل بفظاعتهم ويهدمونها ويختنون المسيحيين ويسكبون دم الختان على المذابح أو في أجران العماد... لمن غيركم تترك الثأر لهذا الهوان،

ولمن غيركم نكل تحرير هذه الديار، لقد منحكم الرب سمعة قتالية ممتازة وأعطاكم الشجاعة والقوة التي تحنون بها هامات أعدائكم لا بد أن تضعوا حدًا للكرامية فيما بينكم . . . انطلقوا إلى القبر المقدس وانتزعوا تلك الأراضي من الشعب الكافر وأخضعوه. يقول الإنجيل: إن العسل واللبن يسيلان هناك، إن القدس مركز الأرض كأنها فردوس ثاني. باركها المخلص بقدرته. وزينها بتبدلات حياته وقدها بآلامه، وخلصها بموته، وميزها بقبره . . . سيروا إذا تكفيرًا عن خطاياكم، لتنالوا مجدًا لا يزول في الملكوت السماوي»^(١).

يعلق ديتير تسمر لنغ: «ربط البابا أوربان الثاني بطريقة لا تجارى روح العصر بالمشاعر اللحظية فهيج الشعب في ساحة «كلير مونت» وحمله على جناح الكلمات إلى محط جميع الأشواق إلى بلاد الأحلام، والفردوس إلى مركز الكون، عندما تقدم الأسقف «أديمارفون بوي» نحو البابا وأعلن بصوت جهوري رغبته في أن يكون أول محارب ضد الوثنيين، بدا وكأن في الأمر لعبة متفقا عليها. الحقيقة أن «أوربان الثاني» كان قد عينه خلال محادثات تمهيدية قاصداً رسولياً ومرافقاً دينياً لرحلة الحج المقررة، غير أن الجمهور كان يجهل هذا بطبيعة الحال.

حذا آخرون حذو الأسقف. لا يكون الذهاب إلى الحج في «ستياغو» مسلحًا؛ لأن فرسان الأخوية يحمونه، أما من يذهب إلى الحج في الديار المقدسة، فيجب أن يحمل هو نفسه السلاح. . . لاقت الكنيسة مصاعب في تبرير استخدامها السلاح رغم أن «أغسطين» كان قد وضعه في يدها من خلال مذهبه

(١) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٢٦-١٢٨) وانظر كتاب: الخلفية الأيدلوجية للحروب

الصلبية: د: قاسم عبده قاسم (١١٥-١٢٦).

حول «الحرب العادلة» تكون الحرب مبررة ويسمح بخوضها إن كانت للدفاع عن أمر استرداد ممتلكات منهوبة أو شنت ضد هراطقة ومرتدين ثم من جانبه وسّع البابا «غريغوروس الكبير» «دائرة الحرب العادلة» لتشمل إخضاع الوثنيين واعتبرها حربًا مقدسة، فحدد البابا «أوربان الثاني» شهر آب من عام (١٠٩٥م) موعدًا لانطلاقها^(١).

- أعلن البابا «أوربان الثاني» عن بدء الحملة الصليبية الأولى.
- ودعا الجنود المسلحين بالصليب إلى أن يخوضوا الحرب من أجل المسيح، وضمن لهم الصفح والغفران عن كل خطاياهم.
- وتشكلت المؤسسات التي تحمل الطابع الديني والعسكري ومن أشهرها:
- رهبان الحرب (Cister Ciars).
- فرسان الهيكل (Templars) ..
- الأخويات (Orders).
- ميلشيا القديس بطرس (militia Sancti Peters).
- وقد وضع لهم القديس «برنار كلرفو» تشريعًا خاصًا يقضي بأن: القتل من أجل المسيح هو القضاء على الظلم، فقتل وثني^(٢) يعني حقًا أن تكسب المجد، لأن ذلك مجد المسيح.

ويُعطي الفرسان وجبتين يتم تناولهما بصمت مع قراءة مؤثرة من الكتاب المقدس مع تركيز خاص على سفري «يشوع» و «المُكابين»، ليجد الجميع

(١) المصدر السابق (١٢٩-١٣٠).

(٢) أي مسلم.

الإلهام في مآثر «يهوذا المكابي» من أجل استعادة الأرض المقدسة من أيدي الكفار المتوحشين .

ويخطب البابا «أوربان الثاني» في الحشود المحاربة التي حملت الصليب القماشي الضخم وهم يصرخون: «هذه إرادة الرب / Deus Lo Vult»، ويقول: إن تحرير «أورشليم» من «الأجناس النجسة»^(١) التي دَسَّت الأماكن المقدسة وعاملتها بطريقة غير محترمة تَسُوغ عدوان المسلحين بالعهدين القديم والجديد، وقد حملوهما في يَدٍ، والسيف في اليد الأخرى، والصليب على جباههم وعلى صدورهم استجابة لما يحض عليه الإنجيل «ومن لا يحمل صليبه، ويلحق بي فهو غير جدير بي»^(٢).

• تخرج الحملة الصليبية الأولى في سنة (١٠٩٧م) إلى القسطنطينية، وفي سنة (١٠٩٨م) يتم الاستيلاء على أنطاكية، وفي شهر تموز عام (١٠٩٩م) يتم غزو القدس. وتقام المجازر.

ويعترف أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغمن» فيقول: «إن حمام الدم الذي أقامه الصليبيون هناك يدع كل الدوافع الدينية المسيحية تتحول إلى كلام فارغ، وجرى تحقيق الهدف العسكري لهذه الحملة: وهو توطيد السيادة المسيحية في الشرق الأدنى، ونشأت أربع دول صليبية «مملكة القدس» و «إمارة أنطاكية» و «دوقية أنطاكية وطرابلس» ومن أجل الدفاع عن المناطق المغزوة تأسست نظم رهبنة تجمع بين نظام الأديرة والنظام العسكري معاً ومن أهمها

(١) كانت القدس في ذلك الوقت تحت حكم المسلمين السلاجقة.

(٢) إنجيل متى (٣٨/١٠) وانظر لما تقدم كتاب: مسيحية ضد الإسلام. تأليف لودفيغ هاغمن (٥٣-٥٤)، وكتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني؛ للأب مايكل بربر (٥٧-٥٨).

فرسان القديس يوحنا وفرسان المعبد ونظام الرهبنة الألماني^(١).

يقول الأستاذ «ديتر تسمر لنغ»: «اقتحم حملة الصليب القدس عام (١٠٩٩م) وأعلنوها في العام التالي عاصمة مملكة جديدة. ثم تبعت حملة الصليب الأولى حملات أخرى قصدت الديار المقدسة وبلداناً أخرى؛ لكن المسيحيين خسروا فلسطين في النهاية»^(٢).

يقول «ولتر نيج» "Walter Nigg": «سيبقى من الصعب دوماً أن نبرر من منظور الأناجيل، قيام هؤلاء الناس بالقضاء على كل شيء أثناء اقتحامهم القدس باسم يسوع المسيح لقد خاضوا في دماء بلغت ركبهم، وقدموا والدموع تنهمر من مآقيهم شكرهم للمخلص على الانتصار الذي حققوه؛ المخلص نفسه الذي كان قد طوّب الودعاء وأمرهم برد السيف إلى غمده»^(٣).

ويتهج الجميع وهم يرددون نشيد المديح للسيد المخلص:
«تسيل أنهار كثيرة من الدم، الذي سفحنه بسعادة، من شعب الخطيئة.
فابتهجي يا قدس.

تغطت أحجار بلاط الهيكل بسيقان الموتى جميعاً.
فابتهجي يا قدس.

ألقوا بهم إلى النار وتهللوا فرحاً، أيها الطيِّبون، فالأشرار يتزفون.
وابتهجي يا قدس».

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٥٤).

(٢) كتاب النهايات (ص ١٣٠).

(٣) Das Cwiger Cich (195).

يعلق ديتير تسمر لنغ: «إنه ببساطة غناء رؤيوي وقيامي تبرز لحظة نهاية الزمن في حملات الصليب لدى من يسمون الفقراء أكثر مما تبرز لدى جيوش الفرسان لما تردد نداء «أوروبا الثاني» في فرنسا وعبر حدود البلدان المجاورة لها، سمعه أناس لم يكن البابا يفكر فيهم أول الأمر ... فجاء الفقراء والمحرومون والمظلومون وعديمو الملكية يطالبون بحصتهم في المشروع الكبير...»^(١).

• وفي عامي (١١٤٧-١١٤٩م) يعلن «البابا أوجين الثالث» الحملة الصليبية الثانية.

وحوصرت دمشق وانتهت هذه الحملة بالإخفاق.

• وكان استعادة «صلاح الدين الأيوبي» ﷺ للقدس من أيدي الصليبيين سنة (١١٨٧م) السبب في قيام الحملة الصليبية الثالثة بين عامي (١١٨٩-١١٩٢م) وأخفقت وبقيت القدس في أيدي المسلمين.

• وبين عامي (١٢٠٢ - ١٢٠٤م) قامت الحملة الصليبية الرابعة والتي دعى لها «البابا إنوسنت الثالث» ومنيت بالإخفاق.

يقول أستاذ اللاهوت الألماني «لود فيغ هاغن»: «ومن الفصول بالغة المأساوية في تاريخ الحروب الصليبية حملة الأطفال الصليبية في عام (١٢١٢م) إذ انتهت في «مرسيليا»، ومن ثم في «برند يزي» حيث مات قسم كبير من الأطفال أو ييعوا أرقاء»^(٢).

ويقول «ديتر تسمر لنغ»: «شهدت نهاية عصر الحملات الصليبية أمرًا أصاب الناس في أوروبا بالدهشة، فقد تجمعت في شهري آذار وأيار من عام (١٢١٢م)

(١) كتاب: النهايات (١٣١) باختصار.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٥٦).

غُصِبَ كبير من الأطفال ونصف اليافعين، وأعلنت رغبتها في الحج إلى الديار المقدسة ... كان هؤلاء إذا ما سألهم أحد عن وجهتهم: قالوا: ادع إلى الرب، وأنهم يريدون تحقيق ما عجز عنه آباؤهم: أعني استرداد قبر المسيح، بدؤوا مسيرتهم فقصدوا الراين الأعلى ثم جبال الألب حتى وصلوا إلى «جَنَوَا» وعددهم سبعة آلاف كما يقال ... اختفت آثار الأطفال ... شُجِنُوا على ظهر سبعة سفن غرقت اثنتان قرب «سردينيا»، ووصلت الأخرى إلى مرفئ في الجزائر، ومصر، حيث أسروا وبيعوا كعبيد»^(١).

يلق ديتير تسمر لنغ فيقول: «لماذا تُرك صبية صغار يبطون خاوية، وأرجل حافية، وأجسام عارية يذهبون إلى هلاكهم، ويتم تشجيعهم على تحقيق مشروعاتهم ... على المرء أن يضع عواطفه جانباً إذا أراد فهم ظاهرة: «الأطفال في حملة الصليب»^(٢).

• وفي أواسط القرن الثالث عشر الميلادي وعند قيام الحملة الصليبية الخامسة سنة (١٢٢١م) وكانت هذه الحملة تحاصر مدينة «دمياط المصرية» عند مصب الذراع الأيمن لنهر النيل، حدث لهذه الحملة عاملان خطيران وحدثان مهمان:

الأول: إنها الحملة الصليبية التي شاركت فيها البابوية الكنسية بفعالية ومشاركة مباشرة.

يقول «ريتشارد سوزرن»: «قد كانت الحملة الوحيدة التي شاركت فيها البابوية مشاركة فعالة؛ بل إنها هي التي قادتها من خلال وكيل بابوي وجهها

(١) كتاب: النهايات (١٣٥) باختصار.

(٢) المصدر السابق (١٣٦-١٣٧) باختصار.

بتصميم وبدون رحمة إلى نهايتها المحتومة. وقد كادت تشكل نقطة تحول في التاريخ الأوروبي ثم تحولت فجأة إلى هزيمة كبرى، قليلاً ما عرفت لها أوروبا مثيلاً^(١).

والثاني: يقول الأستاذ «رضوان السيد»: «وفي لحظة تاريخية حاسمة نحو أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، انقض حَادثٌ هائلٌ غيرٌ مجاري الاهتمام أو أنه حولها لعقود قادمة، كان فرسان الحملة الصليبية الخامسة يحاصرون دمياط، ويرجون أن تسقط مصر كلياً في قبضتهم عندما نُمي إليهم أن ملكاً مسيحياً مشرقياً يقود جحافل ضخمة انطلاقاً من جورجيا، وقد اجتاح بلاد فارس، وهو يتقدم لاجتياح بغداد وإنهاء الإسلام فيما وراء الفرات. وإذا تحقق الأمل خلال شهور فإن معنى ذلك أن يلتقي المنتصرون في مصر والشام من المسيحيين الغربيين بأولئك المسيحيين المشرقيين، فيزول الإسلام من الأرض»^(٢).
لقد نمت عند الصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة أسطورة: أن ملكاً مسيحياً مشرقياً قادم بقوة هائلة لاجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق اسمه: «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

ولم يكن في الحقيقة هذا الأب يوحنا سوى «جنكيز خان» المغولي قائد التتر المغول الذي اجتاح المشرق الإسلامي كله ثم خلفه حفيده «هولاكو» الذي وصل واجتاح بغداد بعد ذلك سنة (٦٥٦هـ) (١٢٥٦م).
وتقدم الكتابات المسيحية المختلفة ثلاث روايات عن «جنكيز خان» أو «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

(١) كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٨).

(٢) مقدمة كتاب: مسيحية ضد الإسلام (١٦).

الرواية الأولى:

أنه الملك داود الابن الأصغر للملك إسرائيل بن الملك سرجيوس بن الأب يوحنا، بن الملك بولغا بوجا المسيحي^(١).

والرواية الثانية:

قدمها الرحالة الشهير «ماركو بولو» "Marco polo"، في كتابه الشهير «وصف العالم»، أن جنكيز خان تزوج ابنة الأب يوحنا وأخذ مكانه^(٢).

والرواية الثالثة:

قدمها المؤرخ الجورجي «بروسيت» "Broscet"، وهي أن الأمير المغولي «جنكيز خان» تسلق جبلاً عاليًا وشهد تجلي سيد العالم يسوع المسيح الذي علمه العدل والدين القويم، والطهارة والأمانة ورهبة الكذب، والسرقة وسائر الرذائل، وقال له: إذا اتبعت هذه المبادئ فسأعطيك وقومك الأرض كلها، اذهب لإخضاع كل ما تستطيعه من البلاد، وبعد أن فتح جنكيز خان «قايين» ذهب إلى «خاتاي» شمال الصين، حيث أراد أن يرى داخل إحدى الكنائس، وما إن رأى صورة مخلصنا يسوع المسيح حتى خر ساجدًا على الفور وهو يصلي قائلاً: «هذا هو الإنسان الذي رأيته على جبل «التشين» وهذه كانت ملامحه، وهو نفسه الذي علمني كل ما هو صحيح فعله»^(٣).

هذا وقد أشار «شيخ الإسلام ابن تيمية» إلى نوع من التشابه بين اعتقاد المغول في «جنكيز خان» واعتقاد النصارى في «المسيح».

(١) كتاب: الأب يوحنا والمغول، تأليف: ديفيد مورغان (ص ٢١٣).

(٢) كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين، تأليف: فرنس رود (ص ١٥).

(٣) Histoire dela Georgie (490)، وقارن مع البداية والنهاية، لابن كثير (١١٨/١٣).

فقال ﷺ: «وذلك أن اعتقاد هؤلاء التتر كان في جنكسخان عظيمًا؛ فإنهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقد النصارى في المسيح ويقولون إن الشمس حَبَلَتْ أمه، وأنها كانت في خيمة فنزلت الشمس من كوة الخيمة فدخلت فيها حتى حبلت، ومعلوم عند كل ذي دين أن هذا كذب وهذا دليل على أنه ولد زنا، وأن أمه زنت فكتمت زناها. وادعت هذا حتى تدفع عنها معرفة الزنا، وهم مع هذا يجعلونه أعظم رسول عند الله في تعظيم ما سنَّه لهم وشرعه بظنه وهواه حتى يقولوا لما عندهم من المال. هذا رزق جنكسخان ويشكرونه على أكلهم وشربهم وهم يستحلون قتل من عادى ما سنَّه لهم هذا الكافر الملعون المعادي لله ولأنبيائه ورسوله وعباده المؤمنين»^(١).

وأيا كان فقد شاعت هذه الأسطورة عند النصارى في أوروبا وكانت هي سبب بعثة المبشرين إلى وسط آسيا لاستحثاث نصره هذا الملك المسيحي لهم في حربهم للمسلمين إبان الحملات الصليبية المتكررة ومن أشهر هؤلاء المبشرين «ماركو بولّو» ووالده «مافيو بولّو» وعمه «نيكولا بولّو».

تقول الدكتورة فرنسس وود "FRANCE WOOD": «ومثل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً منتشرين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى أقصاها، وعلى الرغم من أن «وصف العالم» لماركو بولو هو الوصف القروسطي»^(٢) الأكثر شهرة لمنغوليا والصين؛ فإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقًا، فهناك رسائل بالفارسية والمنغولية من

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٢١-٥٢٢).

(٢) أي القرون الوسطى.

خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومركز الوثائق الوطني الفرنسي ... وكانت الأسباب الأشد إلحاحًا التي دفعت حكام أوروبا المسيحيين إلى الاتصال بالمغول في الطرف الآخر من العالم متناقضة، فالحملات الصليبية المختلفة التي جُردت بين عامي (١٠٩٦-١٢٠٧م) بدأت بمبادرات عسكرية لحماية طرق الحجاج إلى مدينة القدس، ثم ما لبثت أن تحولت إلى عمليات عسكرية مباشرة أكثر صراحة، هادفة إلى استعادة أجزاء من الأراضي المقدسة، التي كان حكام مسلمون مختلفون قد وطموا احتلالهم إياها، وفي مواجهة قوة السيطرة الإسلامية، فكر القادة المسيحيون بتحالفات ممكنة مع الحكام المغول الذين كان موطنهم يقع خلف المواقع الإسلامية الحصينة ... وفي عملية إرسال المبشرين إلى المغول، كان الباباوات مثلهم مثل الحكام المسيحيين واقعين تحت تأثير الإشاعات الدائرة حول وجود حاكم «مسيحي» في الطرف الآخر من العالم، يدعى «الأب يوحنا» وقد ساد شعور بأن هذا الحاكم المسيحي ربما كان مستعدًا لمد يد العون لأولئك الذين يدافعون عن المسيحية في مواجهة الإسلام»^(١).

ويقول الأستاذ ريتشارد سودزن: «فالمغول الذين ظهروا على المسرح التاريخي رغم نزعتهم التخريبية المدمرة لم يكونوا من المسلمين. فإنهم لم يكونوا يشكلون خطرًا على المسيحية الأوروبية من الناحيتين: الفكرية والعسكرية، ثم نشأ موقف معقد نوعًا ما، فالمغول القساة كانوا بحكم الضرورات الجغرافية أعداء للإسلام وليس للمسيحية الأوروبية، وقد أمل لاهوتيون كثيرون إمكان استخدام المغول أداة لضرب الإسلام عن طريق اتباع

(١) كتاب: ماركو بولو، هل وصل إلى الصين (٣٥-٣٦) باختصار يسير.

سياسة ذكية في التعامل معهم وفهم أهدافهم القريبة^(١).

وكان الوكيل البابوي المصاحب للحملة الصليبية الخامسة المحاصرة لدمياط بمصر قد كتب إلى البابا «غريغوريوس التاسع» عن الآمال الضخمة بالانتصار القريب بمساعدة «الملك داود» القادم من الشرق، وهذا نص الرسالة:

«إن العليّ الأعلى يقف إلى جانبنا، ويريد أن ينصر دينه فقد عانى شعبه الكثير ولا يزال يعاني، وقد سمع سبحانه دعاء الضعفاء واستغاثاتهم فكما أخبرنا أخونا المحترم «بلاغوس» "Palagius" أسقف «ألبانو» "ALbano" ووكيل الكرسي الرسولي، فقد أسرع «الملك داود» المعروف «بالكاهن يوحنا» وهو -كاثوليكي يخشى الله- على رأس جيش ضخم إلى بلاد فارس، فهزم سلطانها في معركة حامية، ثم استمر في زحفه بقلب البلاد عشرين يوماً فاستولى عليها كلها، وقد سقطت في قبضته مدن كثيرة وقلاع وهو الآن على مبعدة عشرة أيام من بغداد مدينة السلام، ودار الخليفة الذي يعتبره «السرازانيون»^(٢) أسقفهم الأعلى. هذا كله أثار فرح سلطان حلب شقيق سلطاني دمشق والقاهرة، الذي كان يخطط لمساعدة أعداء المسيحية الذين يقفون في مواجهة جيوشنا عند دمياط، فوجه أسلحته ضد «الملك داود» عندها كتب وكيلنا إلى الجيورجيين -وهم كاثوليك شجعان شاكو السلاح- مستغيثاً بهم ضد السرازانيين، لذا نأمل أن تتمكن جيوشنا عند دمياط عندما تتلقى المساعدة المنتظرة من احتلال أرض مصر كلها في فصل الصيف، إذ في هذا الوقت ستكون جحافل الأمراء السرازانيين التي اجتمعت من كل أفق لردّ الهجمة

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٦).

(٢) يعنون بهذا المصطلح «المسلمين».

على مصر مضطرة للتفرق والعودة إلى بلادها للدفاع عن حدودها»^(١).

يلقى الأستاذ «ريتشارد سودرن» على هذه الرسالة فيقول: «يُظهر هذا النص بوضوح الآثار الأولى التي تركتها هجمات المغول على النفسية الأوروبية فقد أيقظ الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية كاثوليكية خارج العالم الإغريقي الروماني، آمالاً ضخمة في أعماق اللاهوتيين ورجال السياسة ... وبكلمة واحدة كان الغرب يقف للمرة الأولى على عتبة إنهاء المسألة الإسلامية بواسطة جحافل مسيحية ضخمة زاحفة من الشرق الأقصى، لقد حلّ الوقت الذي ستمكن فيه المسيحتان الشرقية والغربية من الالتقاء لحصار عدوهما المشترك وسحقه ... ولكنها فشلت»^(٢).

كان لهذا التزامن بين الهجمات المغولية الشرسة على المسلمين من الشرق والحملات الصليبية الحاقدة على المسلمين من أوروبا المسيحية ولهذا الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية قادمة من الشرق نتائج مهمة على النصارى في صراعهم وحربهم على الإسلام والمسلمين. وأهم هذه النتائج:

١- استمر بابوات أوروبا يبعث المبشرين إلى الشرق لبعث التقارير عن المغول وأحوالهم والوجود المسيحي ونحو ذلك، وكلهم كانوا يبعثون بوجود الأمل بالجحافل المسيحية القادمة من الشرق.

فمن «باكون» الإنجليزي إلى «فلهم روبرك» الفلمنكي، إلى «وليم الطرابلسي»

(١) المصدر كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. تأليف: ريتشارد سودرن (٨٨-٨٩).

(٢) المصدر السابق (٩٠).

الفرنسي، إلى «يوركاردوس دي مونت» الصهيوني الألماني^(١) وغيرهم. تقول الدكتورة فرنسس وود: «وصل إلى «قره قُرم» أوائل المبشرين المسيحيين المسلحين بالرسائل البابوية والمكلفين العثور على أناس تحولوا إلى المسيحية، وعلى حلفاء محتملين بين صفوف المغول قبل قيام الأخوين بولو برحلتهم الأولى إلى الشرق»^(٢).

٢- قامت علاقات وزيارات بين المغول وأوروبا المسيحية توجت بقيام بعثة مغولية بزيارة لأوروبا عام (١٢٨٥م) يرافقها مسيحيون من الطائفة النسطورية أرسلهم «طغرل بك» أو «طووريل خان» ملك القيرانيين - وهم شعب منغولي وطنه في منغوليا الوسطى وهم كانوا نصارى نسطوريين يعود تاريخ اعتناقهم للمسيحية إلى القرن الحادي عشر.

وجرى تحالف بين «طغرل بك» ملك القيرانيين والزعيم المغولي «يسوغي». ويذكر التاريخ السري للمغول أنه بعد وفاة الزعيم المغولي «يسوغي» ظهر رجل اسمه «تيموشين» أو «تمرجين»^(٣) ادعى أنه ابن الملك «يسوغي» وتسمى باسم «جنكيز خان» ونشأ تحالف جديد بين القيرانيين والمغول أدى إلى صعود جنكيز خان إلى موقع السلطة والنفوذ في منغوليا»^(٤).

هذا وقد حضرت هذه البعثة المغولية عام (١٢٨٧م) قُدَّاسًا برئاسة البابا في

(١) انظر كتاب: صورة الإسلام في القرون الوسطى لريتشارد سودرن (ص ١٠٨)، وفصل: المبشرون في كل مكان من كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين (ص ٣٥-٤١).

(٢) ماركو بولو هل وصل إلى الصين (ص ٣٦-٣٧).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٣/٢٢).

(٤) انظر: الأب يوحنا والمغول، ديفيد مورغان (ص ٢١٨-٢١٩).

كنيسة القديس بطرس بروما^(١).

يعلق الأستاذ ريتشارد سوزن فيقول: «يا لهذه الأعوام الرائعة، فالإمبراطورية المغولية الممتدة حتى الصين تتحول قريباً إلى المسيحية، ولم يبق للإسلام إلا أن ينسحق أو يهتدي أتباعه للمسيحية عن طريق الفلسفة التي ملكتها المسيحية عن الإغريق من خلال المفكرين المسلمين . . . هذا كله كان حلمًا عظيمًا رائعًا»^(٢).

٣- وكان من أهم نتائج هذه الدعايات بوجود «الأب يوحنا» في شرق العالم: أن قامت الحملة الصليبية الخامسة برفض عرض السلام الذي تقدم به إليهم الملك الأيوبي، الملك الكامل «محمد بن الملك العادل أيوب».

قال الحافظ الذهبي: «وَبَدَّلَ لَهُمُ الْكَامِلُ قَبْلَ مَجِيئِ النَّجْدَةِ الْقُدْسَ وَطَبْرَةَ وَعَسْقَلَانَ وَجَبْلَةَ وَاللَّاذِقِيَّةَ وَأَشْيَاءَ عَلَى أَنْ يَرُدُّوا لَهُ دِمْيَاطَ قَائِبُوا، وَطَلَبُوا مَعَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ لِيَعْمُرُوا بِهَا أَسْوَارَ الْقُدْسِ، وَطَلَبُوا الْكَرَّكَ، فَاتَّفَقَ أَنْ جَمَاعَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَرُوا مِنَ النَّيْلِ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ عَلَى نَزْلِ الْعُدُوِّ، فَاحْطَطَ بِهِمُ النَّيْلَ فِي هِجَانِهِ، وَلَا خَبْرَةَ لَهُمْ بِالنَّيْلِ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِمْيَاطَ، وَانْقَطَعَتِ الْمِيزَةُ عَنْهُمْ، وَجَاعُوا وَذَلُّوا، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِ الْأَمَانِ عَلَى تَسْلِيمِ دِمْيَاطَ، وَعَقَدَ هَدَنَةً، فَأُجِيبُوا، فَسَلِمُوا دِمْيَاطَ بَعْدَ اسْتَقْرَارِهِمْ بِهَا ثَلَاثَ سِنِينَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ»^(٣).

وفي ذلك يقول الشاعر البهاء زهير:

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٠٨-١٠٩).

(٢) المصدر السابق (١٠٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢٩/٢٢-١٣٠).

وأقسم إن ذاق بنو الأصفر الكرى لما حملت إلا بأعلامك الصفر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرًا تجاهد فيه لا بزيد ولا عمرو
يقول ديفيد مورغان: «إذا كانت الأنباء الدائرة حول تقدم «جنكيز خان» أو
«الملك داود» ساعدت على جعل الصليبيين في دمياط يتخذون قرارًا يقضي
برفض عرض السلام السخي الذي جاءهم من السلطان الأيوبي الكامل؛ فإن
الملك داود أثبت أنه عديم الجدوى، مثله مثل سلفه المفترض «الأب يوحنا»،
ومهما يكن فإن جنكيز خان انسحب في عام (١٢٢٣م) من الشرق الأوسط ليعود
إلى منغوليا، وتوفي هناك في عام (١٢٢٧م)، وبعد ذلك لم يعاود المغول
المساس بالوعي الغربي بقوة حتى بدأت أخبار غزو «باتو» لروسيا وأوروبا
الشرقية في أعوام (١٢٣٧-١٢٤١م) تتوارد، وقد مضى بعض الوقت حتى تمكن
العالم المسيحي الغربي من فهم الهجوم الكبير إن فكرة «الأب يوحنا»
كانت قد باتت راسخة حتى أصبحت غير قابلة للدحض بوصفها وهمًا مضللاً
ببساطة وتعين على الناس أن يبحثوا عن العاهل اللغز في مكان آخر غير شخصية
جنكيز خان وأسرته المباشرة، ولكن المغول كانوا قد أصبحوا قوة مهيمنة في
آسيا بما يحتم ظهورهم في ثنايا القصة هنا أو هناك»^(١).

(١) الأب يوحنا والمغول (ص ٢١٧).

المرحلة الثانية: من سقوط غرناطة الإسلامية إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية:

أولاً: في ٢ يناير سنة (١٤٩٢م) تم تسليم مدينة غرناطة الإسلامية للأسبان، بعد صور مروعة من صور الجهاد قام بها المسلمون في غرناطة في مقاومة السقوط، والوقوف أمام القوى العاتية من النصارى الأسبان القشتاليين وفرسان الصليب الذين تجمعوا من كل أنحاء أسبانيا مدعومين بفرق مقاتلة من كل بلدان أوروبا الصليبية للإصرار على إبادة المسلمين وإنهاء الوجود الإسلامي في أوروبا حسب وصايا البابا وتعاليمه.

لقد ارتُكبت أكبر حادثة إبادة لم يسبق لها مثيل.

إذ تم إبادة وطرد شعب كامل يفوق عددهم الثلاثة ملايين مسلم حسب بعض التقديرات، وبعد سقوط غرناطة ارتكبت أبشع المجازر وأفظع صور الإبادة الجماعية للمسلمين الذين عمروا أرض الأندلس لمئات السنين وصار المسلمون على حالات ثلاث:

الحالة الأولى: القتل الذي طال عبر مراكز التفتيش الشهيرة الآلاف بل مئات الآلاف من المسلمين.

الحالة الثانية: الهروب والفرار إلى بلاد المغرب مع هول الطريق وسقوط أعداد هائلة غرقى في البحر.

الحالة الثالثة: تغيير الدين بالقوة وترك الإسلام واتباع النصرانية.

وقد كان للحملات الصليبية على المشرق الإسلامي انعكاسها الخطير على حروب المسيحيين ضد المسلمين لاستعادة أسبانيا وإخلاء أوروبا من الوجود الإسلامي.

فمنذ أن وضع «شارل ما رتل» الفرنسي "karl Martell" نهاية للتقدم الإسلامي بالانتصار الذي أحرزه في معركة «بواتيه» في إقليم تور "TORS" وبواتيه "POITIRS" سنة (٧٣٢م) وهي المعركة التي يسميها المسلمون «بلاط الشهداء» لكثرة من قتل فيها من المسلمين وعلى رأسهم قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وكانت في ٢١ من شهر أكتوبر سنة (٧٣٢م) الموافق شهر رمضان سنة (١١٤هـ). فمنذ هذه المعركة وحروب الاستعادة من قبل الأوروبيين لا تزال مستمرة.

يقول الأستاذ لود فيغ هاغن: «ولكن الوضع تغير فقد أخرج النورمانديون المسلمين من فرنسا وإيطاليا وصقلية. أما في أسبانيا فقد كانت للمسلمين قدم بلغ من رسوخها أن استعادة إسبانيا بالغزو أو ما سمي الاستعادة "Reconquisto" استغرق حتى نهاية القرون الوسطى»^(١).

ويقول أيضًا: «كانت فكرة الحرب الصليبية قد اشتعلت في أوروبا إلى درجة بلغ معها أنه سرعان ما أعلن عن حملات أخرى على أنها حروب صليبية. وقد جرى إدراك حرب الاستعادة من أيام البابا «أوربان الثاني»، وهي استعادة الأقاليم التي حكمها المسلمون من إسبانيا بالغزو على أنها حرب صليبية. وأضفى على ألوان القتال ألوان الغفران والامتيازات ذاتها كما فعل تجاه الصليبيين في الشرق»^(٢).

ورغم أن المسيحيين الأسبان وكذلك اليهود عاشوا حياة هادئة وادعة تحت حكم المسلمين في الأندلس. ولم يبادوا أو يرغموا على اعتناق الإسلام. إلا أن الحقد الصليبي والكره المسيحي لكل ما هو مسلم ظل مسيطرًا على الأسبان

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٥).

(٢) المصدر السابق (٥٧-٥٨).

لا تزيده الأيام إلا سُعارًا شديدًا.

يقول ريتشارد سودرن: «تقضي تعاليم القرآن بحماية المسيحيين» أهل الكتاب الذميين» وعدم التعرض لعقائدهم أو لحياتهم على أن يؤدوا الجزية للمسلمين، ويمقتضى ذلك احتفظوا بمطارتهم وكهنتهم وربهانهم ودياراتهم. ثم إن فئة منهم تولّت مناصب معتبرة في ديوان صاحب قرطبة. ويبدو هذا كله أمرًا طيبًا . . .

في هذه الحقبة من الزمان كانت الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي تنمو وتزدهر وتحقق إنجازات عبقرية في الأندلس في المجالات كلها، وكانت كثرة الإسبان المسيحيين تشارك في الاستمتاع بميزات هذه الحضارة ومنجزاتها. ولم يكن منتظرًا والحالة هذه أن تنشأ موجات من عدم الرضا بين الإسبان بمواجهة العرب المسلمين ولم ينفرد المسيحيون الإسبان بموقف التسليم والمشاركة هذا بل انتشر هذا الإحساس بين المجموعات غير المسلمة في كل الأقطار التي ضرب فيها الإسلام بجذوره»^(١).

وبعد تسجيل «ريتشارد سودرن» هذا الاعتراف بتسامح المسلمين وحمائتهم للمسيحيين وكذا اليهود في الأندلس.

يسجل ما يلي: «وقد رأى اللاهوتيون الغربيون فيما بعد أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربه عسكريًا والاستيلاء على أرضه أو إقناع معتقيه باتخاذ المسيحية دينًا»^(٢).

ويقول البروفيسور «نيلز لمكة»: «من الخطأ إذا القول إن العرب الذين فتحوا فلسطين قللوا من الوجود اليهودي في البلاد، كما أنهم لم يطلبوا من السكان

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٥٦-٥٨) باختصار.

(٢) المصدر السابق (٥٩).

السابقين الدخول في الإسلام، لقد كان يجري التسامح مع اليهود والمسيحيين لكونهم أهل الكتاب»^(١).

ويسجل «لود فيغ هاغن» هذه الشهادة أيضًا: «حين وضع شارل مارتل في عام (٧٣٢م) نهاية للمسيرة المظفرة للقوات الإسلامية. كان مقدراً لهذا أن يكون إيذاناً بحدوث انعطاف في الأبعاد التاريخية، إذ بات الإسلام منذ الآن مضطراً إلى التقهقر شيئاً فشيئاً عن أوروبا الغربية، إلى أن توارى في النهاية عام (١٤٩٢م) ولكن هناك بين هذين التاريخين قرونًا من الزمان»^(٢)، فكيف أمكن أن تنتهي الأمور إلى هذا التطور، أولم يكن اليهود والنصارى والمسلمون خلال عصر الحكام الأمويين بين عامي (٧٥٦م و١٠٣١م) يعيشون معاً على الإجمال حياة وادعة على شبه جزيرة «إيبيريا» التي دخلت بأكملها تحت السيادة الإسلامية خلال القرون الوسطى؟

لا ريب في ذلك . . . تشكلت منذ القرن العاشر جبهة هجومية بطيئة لكنها صلبة من الملوك النصارى على الحدود كانت تصب في خانة حركة الاستعادة بدأت بسقوط طليطلة عام (١٠٨٥م) وانتهت بسقوط غرناطة عام (١٤٩٢م) الذي نجمت عنه معاناة لا مثيل لها وقمع وطرده للسكان من اليهود والمسلمين»^(٣).

(١) كتاب: استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض. مطبوع ضمن كتاب: الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (ص ١٢٧).

(٢) دخل الإسلام أوروبا على يد القائد المسلم طارق بن زياد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ونزل جيش طارق في الجبل الذي يحمل اسمه إلى اليوم يوم ٥ رجب سنة ٩٢هـ الموافق ٢٧ إبريل سنة ٧١١م، وانهزم القوط بقيادة رودريك في معركة وادي «لكه» في رمضان سنة ٩٢هـ يوليو سنة ٧١١م فيكون بين دخول الإسلام أوروبا سنة ٧١١م وغرويه بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م: ٧٨١ سنة.

(٣) مسيحية ضد الإسلام (ص ٥٨).

يقول الأستاذ أحمد رائف: «لم يكن يتظر المسلمون بعد السقوط غير الإبادة طعنة غادرة بليل، أو تحريق بالنيران في ميدان عام، بعد المرور على ديوان التحقيق إلى محكمة شحنت بالأخبار والرهبان. أو التنصير. التنصير الحقيقي... وكان موكب «الأوتودافى» "Auuto-da-Fe" يمر بشوارع المدينة... فهو موكب الإحراق فهم يقودون المحكوم عليهم بالموت حرقاً عبر الطرقات حتى الساحة... ثم يتم حرقهم وسط ضجة المتفرجين وهياهم... وكانوا يأتون بأهل المحكوم عليهم ليشاهدوا ما يحدث... ولا يمكنهم أن يمتنعوا ويعلوا صراخ البنين والبنات والزوجات والأمهات.... هكذا كانوا يفعلون بالمسلمين»^(١).

ويسجل المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير «نعوم تشومسكي» "Noam Chomsky" شهادته فيقول تحت عنوان: «جور الأوروبيين الوحشي»: «كان للفتوحات الإسبانية البرتغالية نظير محلي، ففي عام (١٤٩٢م)^(٢) تم تهجير اليهود الإسبان، أو إرغامهم على التحول للمسيحية. وعانى ملايين المور^(٣) من المصير ذاته. لقد سمح سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م والذي ختم ثمانية قرون من سيادة المور، لمحاكم التفتيش الإسبانية بتوسيع سيطرتها البربرية، وأتلف الغزاة كتباً ومخطوطات لا تقدر بثمن بما حملته من سجل غني للتعاليم الكلاسيكية، ودمروا الحضارة التي ازدهرت في

(١) كتاب: وتذكروا من الأندلس الإبادة (ص ٢٥١-٢٥٢) باختصار وانظر بقية الكتاب فإنه مهم.

(٢) هي السنة التي سقطت فيها غرناطة الإسلامية.

(٣) المور "Moors" هي التسمية التي أطلقها الإسبان على المسلمين والعرب في الأندلس. انظر مقدمة الدكتور حسين مؤنس لكتاب: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر؛ لأحمد بن يحيى الوئشيسى (ص ١٣-١٧).

ظل حكم المور المتسامح المثقف، وهكذا أعدت إسبانيا المسرح لانحدارها، وكذلك الوحشية وعنصرية غزو العالم إنها «لعنة كولومبوس» حسب كلمات المؤرخ الإفريقي بازيل دافيد سون^(١).

ثانياً: الغزو الأسباني لأمريكا اللاتينية، وقيام الولايات المتحدة الأمريكية:
١- الغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية:

في نفس العام (١٤٩٢م) الموافق (٨٩٢هـ) الذي سقطت فيه «غرناطة» آخر الإمارات الإسلامية بالأندلس. وانتهى الوجود الإسلامي بالأندلس بعد أن عمرها أكثر من (٧٨٠) سنة.

انطلق «كُرسْتَفَر كُلمْبِس» ومعه تسعون بحاراً على ثلاث سفن لاكتشاف العالم الجديد.

كان «كلمبس» مسلحاً بهدف صليبي واضح يتمثل في عنصرين:

● العنصر الأول:

السبق إلى اكتشاف العالم الجديد غرب أوروبا قبل أن يسبقهم إليه المسلمون؛ فإن إنهاء الوجود الإسلامي في أوروبا بإخراج المسلمين من الأندلس أو قتلهم، لا يتم إلا بسبقهم إلى العالم الجديد. لقطع الطريق على وصول الإسلام والمسلمين إلى تلك الأقطار.

● العنصر الثاني:

نشر العقيدة المسيحية بالقوة بين الشعوب الأصلية بأمريكا اللاتينية، ظهر هذا واضحاً فيما كتبه كلمبس عن رحلته الأولى والتي كانت بتاريخ (٣ آب ١٤٩٢م)

(١) كتاب: سنة ٥٠١ لغزو مستمر (ص ١٣-١٤).

استهل كلمبس مفكرته بهذه العبارة: «باسم إلها يسوع المسيح». ثم قال: «إن سموكم كاثولكيين ومسيحيين وأمراء أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع، وكأعداء لملة محمد "Mahomet" وكل الوثنيين والهرطقة، والذين ارتأوا أن من المناسب أن يرسلوني أنا «كرستفر كلمبس» إلى الأجزاء المسماة «بالإنديز» للنظر في الطريقة الممكنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة»^(١).

فهمة «كلمبس» تبدو حقًا مكملة لرحلة «ماركو بولو» لمنغوليا والصين وشرق الأرض، لإيصال رسالة الإنجيل وكسب أنصار جدد للحملات الصليبية التي كانت تحارب المسلمين. وتحاول أن تنهي المسألة الإسلامية^(٢).

تقول «فرنسيس وود» "Frances Wood": «مع أن «وصف العالم» يبين أن الأخوين «بولو» جاء إلى «قره قُرم» تاجرين، فإنهما لم يغادراها إلا سفيرين مسيحيين حاملين رسالة موجهة إلى البابا، وواعدين بالعودة مصطحبين رموزًا دينية مختلفة، إن عملية انقلابهما الظاهري من تاجرين إلى رسولين تبشيريين، تشي بأهمية الاتصال الديني بين الشرق والغرب وبالرغبة السائدة في معرفة المزيد عن الأوضاع الروحية فيما وراء أوروبا العصر الوسيط.

ومثل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً متشربين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى أقصاها، وإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقًا، فهناك رسائل بالفارسية والمغولية من خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومراكز الوثائق الوطني الفرنسي^(٣).

(١) المصدر كتاب.: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني؛ للاب: مايكل برّير (٨١).

(٢) سبق الحديث عن هذا فيما مضى.

(٣) كتاب: ماركو بولو وصل إلى الصين، فصل: المبشرون في كل مكان (٣٥).

كان «كلمبس» على علم برحلة «ماركو بولو» ومتبع لخطاه كذلك .
تقول «فرنسس وود»: «قد صدر كتاب ماركو بولو «وصف العالم» في وقت
كان فيه الرحالة الأوروبيون قد بدؤوا يصلون إلى زوايا العالم البعيدة،
«فكريستوفر كولمبس» ومعه نسخة من كتاب ماركو بولو إضافة إلى كتب رحلات
أخرى، كان وصل إلى أمريكا عام (١٤٩٢م)^(١).

تضيف وود: «فكريستوفر كولمبس» اصطحب نسخة من كتاب «ماركو بولو»
«وصف العالم» في رحلته البحرية الملحمية، مع أن حقيقة انتهاء رحلته عند
الطرف الآخر من العالم لم تكن ناجمة عن صعوبة اتباع خطوات «ماركو بولو»
فيزيائياً «مادياً» فقط ففي غفلة من وجود كتلة القارة الأمريكية على الطريق ...
ونسخة «كريستوفر كولمبس» لكتاب «ماركو بولو»، وعليها ملاحظات هامشية ما
زالت محفوظة في مكتبة «كاييتيولار كولمبس» بمدينة إشبيلية^(٢).

وباكتشاف القارتين الأمريكيتين تبدأ حقبة جديدة ارتكبت فيها أبشع المجازر
لدرجة الإبادة الكاملة للشعوب الأصلية ومن بقي حمل حملاً على المسيحية.
حقبة سماها بعضهم: (رايخ ال ٥٠٠ عام)^(٣).

يكتب «آدم سميث»^(٤) (Adam smith): «إن اكتشاف أمريكا، واكتشاف
طريق الهند الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح هما أعظم وأهم حدثين في تاريخ
البشرية ... إن اكتشاف أمريكا قدم مساعدة جوهرية لوضع أوروبا ...

(١) المصدر السابق (٦٩-٧٠).

(٢) المصدر السابق (١٩٣-١٩٤).

(٣) الهولوكوست الأمريكي، لستانادر (٢١).

(٤) الاقتصادي الاسكتلندي الشهير صاحب كتاب: بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم،
ويعتبر كاهن الرأسمالية الأكبر، توفي سنة (١٧٩٠م).

فاتحًا سوقًا جديدة لا تستنفد ... لقد حوّل جور الأوروبيين الوحشي ذلك الحدث الذي كان يجب أن يفيد الجميع إلى حدث مدمر وهدام لكثير من تلك القارات المنكودة الحظ ... بالنسبة للسكان الأصليين غرقت كل المنافع التي كان ممكنًا جنيتها، وضاعت في المصائب التي خلقتها بفضل أفضلية القوة التي حازها الأوروبيون كان بمقدورهم ارتكاب كل أنواع المظالم في تلك البلاد النائية دونما خوف من عقاب»^(١).

يعلق «نعوم تشوسكي» فيقول: «أطلق غزو العالم الجديد اثنتين من الكوارث السكانية التي لا مثيل لها في التاريخ:

١- إهلاك السكان الأصليين في نصف الكرة الغربي.

٢- وخراب أفريقيا حيث توسعت تجارة الرقيق سريعًا لخدمة حاجات الغزو وأخضعت القارة كلها.

عانى معظم آسيا أيضًا من المحنة الرهيبة، ومع تغير الأشكال، تحافظ الموضوعات الأساسية للغزو على حيويتها ومرونتها، وستظل كذلك إلى أن يتم تناول حقيقة وأسباب الجور الوحشي بأمانة»^(٢).

يضيف تشوسكي: «كان الأوروبيون يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم، فقد دهش السكان الأصليون في المستعمرات الأمريكية من وحشية الأسبان والبريطانيين، وبالمثل أربع غضب آلة الحرب الأوروبية المدمر شعوب أندونيسيا في الطرف الآخر من العالم، كما يضيف باركر»^(٣).

(١) نقلًا عن كتاب: سنة ٥٠١ الغزو مستمر، لنعوم تشوسكي (١١).

(٢) المصدر السابق (١٣).

(٣) المصدر السابق (١٨).

كتب المؤرخ والقس الإسباني «لاس كاساس»^(١) (Las Csas) في وصيته :
 «أظن أن الله سيصيب غضبه ومقته على أسبانيا بسبب هذه الأعمال الشائنة ،
 الإجرامية غير الورعة التي ارتكبت بظلم وبربرية وطغيان ، لأن معظم الأسبان
 اشتركوا في الثروة المغموسة بالدم والتي اغتصبتها على تلك السواحل وسط
 المذابح والخراب»^(٢).

والأخطر من ذلك أن تلك الأعمال الوحشية الرهيبة يفعلها أولئك
 المسيحيون مزودون بدعم عقائدي يقنعهم بأنهم ينفذون أمر السماء وإرادة الرب
 وتوجيه الكتاب المقدس .

يعلق تشومسكي : «والأهم من ذلك أن الغزاة أرادوا الخير مقتنعين بإخلاص
 أنهم كانوا يقدمون لضحاياهم نظامًا تقره السماء بينما كانوا يعذبونهم
 ويستعبدونهم»^(٣).

لقد أيدت بكل وحشية شعوب كاملة هم سكان البلاد الأصليين في
 الأمريكتين بسبب الغزو الإسباني والبريطاني والأوروبي ، ومن بقي حُمل بالقوة
 على اعتناق المسيحية .

يكتب المؤرخ «كارل هاينز دِشْنر»^(٤) (Karl Heinz Deschner) في

(١) قس ومؤرخ أسباني من أشهر أعماله : العلاقة الخفية في خراب الهند الغربية ، توفي سنة (١٥٦٦).

(٢) المصدر السابق .

(٣) سنة ٥٠١ ، الغزو مستمر (٥٨) .

(٤) مؤرخ ودارس للفلسفة اللاهوتية ، ولد سنة (١٩٢٤) ، وأشهر أعماله تاريخه الضخم :
 «التاريخ الإجرامي للمسيحيين» ، نشر منه ثمانية مجلدات .

كتابه الشهير: المولوخ^(١): إله الشر، تاريخ الولايات المتحدة: (هل كان نابليون الذي قال في عام (١٨١٣م) متبجحاً: «إن إنساناً مثلي لا يحفل بحياة مليون إنسان»، أقل استحقاقاً للازدراء ممن ينادي بعد (١٥٠) سنة بأن على الإنسانية أن تضع للحرب نهاية، أو تضع الحرب للإنسانية نهاية، وكان في تلك الأيام يتحفز لضربة نووية؟

إن لدينا سياسة من دون أخلاق، والسياسة من دون أخلاق سياسة إجرامية إنها سياسة العنف، وممارسة العنف، وثمة أناس يخوضون الحرب من أجل الحرب، يخوضون مائة حرب صغيرة وكبيرة، في قرن من الزمان وبذلك يسخرون من كرامة الإنسان بأفواههم، وثمة أناس تعاونوا على اغتصاب البلاد التي ينتمون إليها كلها بالخداع وبجرائم العنف وبعمل شائن فظيع ضد الآخر، وقاموا بما هو في حكم التطهير من السكان الأصليين بقتل الشعوب والإبادة الجماعية، ونقلوا إلى المالكين الشرعيين الأوبئة واستأصلوهم، وأدنى تقدير لهم سبعة ملايين، وأعلى تقدير لهم ثلاثون مليوناً من الضحايا^(٢).

كان الغزاة الأوروبيون للقارتين الأمريكيتين مدفوعين باعتقاد مسيحي يتبلور في أمرين:

الأول: أن يسوع المسيح بعثهم لتطهير هذه الأرض وإقامة مستعمرات مسيحية مكانها.

(١) المولوخ كما عرفه المؤلف: «المولوخ، كما تفيد التوراة، إله الأشرار أو الخبثاء، إله الكنعانيين والعمونيين، والوثن الذي يُذبح على مذبحه الشر، والمولوخ كما تعرفه قواميسنا هو: القوة التي تطلب القرايين في نهم لا يرتوي، قرايين جددًا دائماً والتي تعمل على التهام كل شيء» (٣٣) وهو يعني بالتحديد الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) المولوخ: إله الشر، تاريخ الولايات المتحدة (١٧).

الثاني: أن السكان الأصليين من الهنود الحمر وغيرهم. مخلوقات متوحشة تسكن فيهم أرواح شريرة شيطانية. وهم عبدة للشيطان يستحقون الموت والإبادة. يقول كارل هاينتزدشنر: «كان اليسوعيون سرعان ما لا حظوا أوجه الشبه بين الروح الأكبر أو المانيتو عند الهنادة والشيطان بحيث بات القوم يهتمون السكان الأصليين بعبادة الشيطان الأمر الذي لم يكن من الممكن إلا أن يزيد في إضفاء الطابع الشيطاني الخاص عليهم.... وأن يكافح بالطبع على أنه شيطان، وأن يباد قدر الإمكان»^(١).

ثم تتم عملية النهب وتأسيس ما يسمى العالم الجديد. وتباد شعوب بأكملها. «في عام (١٤٩٢م) ينزل «كرستفر كلمبس» على جزيرة من مجموعة جزر الباهاما إلى الجنوب الشرقي من فلّردا، وفي مطلع القرن السادس عشر يستقر الأسباب المدفعون بالرغبة في الذهب، والرغبة في تبشير «المتوحشين» في الجنوب الغربي، وفي عام (١٤٩٧م) يبلغ «جون كبوت» «جيوفاني كبوتو» "Giovani Caboto" وهو جَنَوِي في خدمة الإنجليز، ساحل «نيوفاوند لاند» "Newfoundland". وفي عام (١٤٩٨م) يشق طريقه في رحلة ثانية حتى كروлина الجنوبية الحالية. ومنذ ذلك الوقت تدّعي إنجلترا لنفسها الحق في أمريكا الشمالية.

وبتكليف من ملك فرنسا «فرانسوا الأول» يأتي في عام (١٥٢٤م) الفلورنسي «جيوفاني دي فيرّازانو» "Giovanni de Verra ZZano"، ويتجول أمام شاطئ كروлина الشمالية إلى أن يصعد نحو «نيوفاوند لاند». ومنذ ذلك الحين

(١) المصدر السابق (٥٥).

تَدَّعي فرنسا لنفسها الحق في أمريكا الشمالية، ويستوطن الفرنسيون في كندا كما يستوطنون منطقة دخول المسيحي من البحيرات الكبرى حتى المصب، وكانوا فرنسيين كاثوليك.

وفي أوائل القرن السابع عشر يؤسس الهولنديون على مصب نهر الهدسن، «نيو أمستردام» التي تغدو بعد أربعين عامًا أي في عام (١٦٤٦م) بريطانية وتنتقل إلى ملكية «دوق يورك» ثم يصبح اسمها «نيويورك»، ويستقر بعض الهولنديين في «منهاتن» وهو اسم يرجع إلى بضع مئات من الهنادة... وأقر البابا «ألكسندر السادس» للأسبان والبرتغاليين بتاريخ (٢٤ مايو عام ١٤٩٤م) بملكية العالم الجديد الذي لم يكن يعود إليه إلا بمقدار ما يعود إليه القمر^(١).

يضيف «دشتر» موضحًا العمق الديني المسيحي المبرر للنهب والقتل: «لقد كان اللصوص يتصرفون كأن الرب أعطاهم أرض الآباء ملكًا شرعيًا، أجل لقد كان يبدو أنهم يعتقدون ذلك. شعب الرب. هذا ما كانوا يوحون به مع صاحب المقام العالي «جون وايت» "John White"، الذي كان في الوطن الأم الإنجليزي يدعو إلى استعمار المسيحيين للعالم الجديد، وكان يقول: «إن شعب الرب يتمتع من الحقوق بمثل ما كان يتمتع به إبراهيم الذي أسكن قومه بين ظهراي السدوميين، كما كانت العناية الإلهية الطيبة نفسها قد أبادت «المتوحشين» بطاعون فعل الأعاجيب، وبهذه الطريقة مهدت الطريق لأصحاب العقيدة الصحيحة»^(٢).

(١) المولوخ: إله الشر (٥٨-٥٩).

(٢) المصدر السابق (٧٧).

«بإيجاز كان هذا كتابة للتاريخ بأسلوب هوليوود الرخيص المبذل أو كتابته بأسلوب ذلك المسيحي من مستشستن، الذي اعترف بعد ذبح (٥٠٠) من الهنادة قائلاً: «لقد حظينا من أجل ما فعلنا بالتنوير الصادر عن كلمة الرب الحية»^(١).

«وكان من الواضح أن الرب باركهم، وأصبحت الولايات المتحدة أرض «الأحرار المتساوين» بينما كان السكان الأصليون، والمالكون الشرعيون الذين كان الدخلاء يسمونهم «أجانب» في نهاية القرن الثامن عشر، يتعرضون للقمع الوحشي الدموي والطرده والقتل، على حين كان السود الذين كان يطلق عليهم اسم «الأشخاص الآخرون» كما كان يقال في تلك الأيام، يُضرب عليهم الرق. تم استيراد أوائل الزنوج منذ عام (١٦١٩م) أما بؤس النقل في هذه الرحلة البحرية المسيحية فلا يمكن للمرء أن يتصوره مجرد تصور... وفي أواخر القرن الثامن عشر كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من البيض في الولايات المتحدة، وسبعمئة ألف من السود إضافة إلى ملايين الهنادة المذبوحين بعد ذلك خمسون إلى ستين مليوناً من السود على نطاق أمريكا وقعوا فريسة لتجارة الرقيق»^(٢).

يعلق «دشنر» فيقول: «على هاتين الفعلتين المجيدتين، كليهما، أي على الإبادة الكاملة للهنادة وعلى استغلال السود الذي جرى من فوق جثث ملايين من السود تقوم هذه الدولة المزهوة بنفسها على حملة نهب قائمة على جرائم القتل ودم وجثث وملك أجنبي فقط»^(٣).

(١) المصدر السابق (٧٨).

(٢) المصدر السابق (٧٨).

(٣) المصدر السابق (٧٩).

يعقد «دشسر» بوضوح مقارنة بين قيام الولايات المتحدة المفعمة بالعمق المسيحي المستند إلى الكتاب المقدس. المبيح للقتل والنهب. وبين قيام إسرائيل المماثل على أرض فلسطين وما صحبه من قتل وتهجير للسكان الأصليين. فلا عجب إذن أن تكون الولايات المتحدة أعظم حاضن وداعم لإسرائيل: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

يقول دشسر: «وكان هذا الاستيلاء على الأرض مثل الاستيلاء الإسرائيلي الوارد في الكتاب المقدس، والوارد في القرن العشرين الذي يشانه القوم لأجل هذا فقط بقدر كبير من التعاطف والتفهم، إلا أن ذلك الاستيلاء^(١) كان هائلاً بدرجة أكبر إلى حد لا يقبل المقارنة، على أنه مماثل لهذا في حسنة بالضبط ومماثل له في كونه موافقاً لمشينة الرب، وكان كما يقول مؤرخ الولايات المتحدة «دفيد برين دافيس» "David Brian Davis"، اغتصاباً وحيداً على مبدأ «كل شيء مباح» وكان فيما يقول مؤرخ الولايات المتحدة: دولند ورستر "Donald Worster": كارثة ذات حجم عالمي^(٢).

وكانت الحصيلة: كان عدد الهنود الحمر وهم السكان الأصليون عند بداية عملية الغزو الأوروبي لأمريكا نحو ثمانية ملايين من البشر (٨٠٠٠,٠٠٠) وبعد انتهاء عملية الاستيلاء على الأرض من قبل هؤلاء المسيحيين في حدود عام (١٩٠٠م) لم يكن قد بقي منهم سوى (٢٧٠,٠٠٠) فقط.

يصرح الرئيس الثاني للولايات المتحدة «جون آدمز» عام (١٨١٢م) فيقول: «نكاد لا نرى بعد هندوياً واحداً في العام، وما هو إلا انتصار آخر وسوف نسكت صوتهم إلى الأبد».

(١) أي الأوروبي لأمريكا.

(٢) المصدر السابق (٧٩).

ويصرح الرئيس الثالث للولايات المتحدة «توماس جفرسن»: «سوف نكون مضطرين إلى أن نخرجهم كالحوانات المتوحشة من الغابات إلى الجبال الصخرية وما من شيء سوف يمزق هؤلاء التعساء كالحرب التي تُنقل إلى بلادهم». وفي عام (١٨٢٥م) يصرح وزير الخارجية الأمريكي «كله Clay»: «إن محوهم من الوجود أمر لا مندوحة عنه وليس بالخسارة الكبيرة».

يعلق «كارل دشنر» ساخراً: «هذه البلاد تريد أن تأتي العالم بالحرية والديمقراطية! تريد أن تعلمه الأخلاق والحق! وتريد «أن تحطم الأغلال» وأن تجعل العالم أكثر سعادة!! وأن تنقذه!! إلى أن يكون البشر جميعاً قد تحرروا من الجوع، وتمت حمايتهم من المرض، أجل وأي شيء لم يلفقه رؤساؤها علينا، وكان تاريخها الطويل منذ البداية حتى اليوم لا يدع مجاًلاً لأدنى شك في أنها سوف تبذل كل شعب يقف في طريقها وقفة جدية»^(١).

وتنتهي آخر الحروب ضد الهنادة وشعب «السيوكس» "Sioux" وغيرهم من السكان الأصليين. بأسر رئيس الأبانشي «جر نيمو» في أيلول سبتمبر عام (١٨٨٦م) وفي الشهر التالي يدشن رئيس الولايات المتحدة «كليفلاند» "Cleveland" في الخليج الأعلى إلى الجنوب الغربي أمام قمة «منهاتن»، تمثال الحرية.

يعلق الكاتب الساخر «جورج برنارد شو» متهمكاً: «إنني معروف بسخريتي، ولكنه ما كنت لأقع على فكرة إقامة تمثال للحرية في ميناء نيويورك»^(٢).

يعلق الكاتب النفسي الشهير «سيجموند فرويد»: «أمريكا مخلوق شائه، وأنا

(١) المصدر السابق (٨١).

(٢) المصدر السابق (١١٦).

لا أكرهها وإنما آسف لأن كلبس اكتشفها».

يعلق وزير خارجية فرنسا الشهير «جورج كليمنصو»: «أمريكا؟ هي التطور من البربرية إلى الانحلال من دون ملامسة الحضارة».

يكتب الكاتب الشهير «جورج سانتيانا»: «مع أن أمريكا كانت دومًا على يقين من أنها بلد الحرية بامتياز فالناس ينطوون على كراهية قاتلة للبشر الذين لا يكبح جماحهم، وللنفوس النقية الطاهرة»^(١).

● تحت عنوان: (النوع المهم من الحرية): يكتب «نعم تشومسكي» فيقول: «من بين المخططين العالميين، قلة هم الذين التقطوا جوهر السياسة بوضوح فاق وضوح «جورج كينان» "Gorge Kennan"، عندما أشار عام (١٩٤٨م): بأننا إن أردنا الحفاظ على التفاوت بين تراثنا وفقر الآخرين، فعلينا أن نضع «الشعارات المثالية» جانبًا، وأن نلتزم مفاهيم القوة المباشرة».

نادرًا ما يحدث انحراف عن هذا الخط الرئيس، إن مُثِّلًا من قبيل الديمقراطية، والسوق، مُثِّل جيدة طالما أن ميل الملعب يضمن فوز الناس الذين يجب أن يفوزوا، أما إن حاولت جموع الرعاع رفع رؤوسها، فيجب أن يضربوا إلى أن يخضعوا بشكل أو بآخر، وفي العالم الثالث غالبًا ما يفي العنف المباشر بالغرض، أما إذا أثرت قوى السوق على امتيازاتنا المحلية فسرعان ما نقذف بالتجارة الحرة في النار»^(٢).

هكذا تأسس الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا هو النوع من الحرية الذي تدعيه وتقوم عليه.

(١) انظر المصدر السابق (١٥).

(٢) سنة (٥٠١) الغزو مستمر (١٧١).

المرحلة الثالثة: سقوط الدولة العثمانية (المسألة الشرقية):

يكتب القسيس «استيفان نيل» "Stephen Neill" في كتابه: (تاريخ الإرساليات المسيحية): «والأتراك بدلاً من أن يصبحوا حلفاء الغرب المسيحي أصبحوا رأس الرمح للمد الإسلامي الجديد والأشد تهديداً».

ويقول: «إن الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا قد حددت نهاية الحلم الإسلامي بالسيادة على العالم، ولم يسقط عالم الإسلام إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة من قبل»^(١).

لقد كان حرب الأتراك العثمانيين وإخراجهم من أوروبا وإسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق أوصالها، هدفاً أوروبياً صليبيًا بامتياز.

ففي الوقت الذي أنهى الأسبان النصارى الوجود الإسلامي في الأندلس. وإيادة المسلمين في عملية إبادة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، اكتشف «كرستوفر كلمبس» القارة الأمريكية ليفتح الباب للغزو الأوروبي لها وتباد أيضاً الشعوب الأصلية لتلك البلاد.

كان الأتراك العثمانيون يسيطرون على شرق أوروبا فالتفت الغرب المسيحي لذلك بما عُرف «بالمسألة الشرقية» لتصفية الوجود الإسلامي من كامل أوروبا. ثم إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية، رغم التسامح الكبير الذي أبداه الأتراك العثمانيون للشعوب المسيحية في البلدان التي فتحوها.

نسجل هذه الاعترافات:

يقول «مورو بيرجر» أحد رواد الجامعة الأمريكية ببيروت: «وقد اتخذ حكم

(١) نقلاً عن كتاب: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩-١٩٢٣م) (٦٩).

الأقليات الدينية تحت سلطان الإمبراطورية العثمانية شكل الملل تختص كل منها بشؤونها الاجتماعية، وتنظم الأوضاع الفردية لكل أعضائها وكم كان شعور المسلمين بالتساهل شاملاً إلى درجة أن العثمانيين منحوا حتى الأوروبيين الحقوق الشخصية والتجارية والدينية وقدراً من الحكم الذاتي على الأرض العثمانية^(١).

ويقول الزعيم الهندي الشهير: «جواهر لال نهرو»: «ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جداً مع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية حتى أن السلطان «محمد الثاني» نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعياً للكنيسة الإغريقية»^(٢).

ويقول «المؤرخ فازلييف»: «لا زال الناس يرددون تلك المقولة المأثورة التي صدرت عن رئيس ديني بيزنطي يدعى «لوكاس فاتوراس» في ذلك الحين وهي: «إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى تاج البابوية»^(٣).

وذلك في تفضيل واضح من الأوروبيين الشرقيين الأرثوذكس لحكم الأتراك المسلمين نظراً لما وجده من تسامح على حكم إخوانهم من المسيحيين الكاثوليك الغربيين.

ونختم هذه الشهادات عن السماحة التي أبدتها العثمانيون الأتراك تجاه المسيحيين في أوروبا الشرقية. بما كتبه الأستاذ الكبير «عبد الرحمن عزام» رحمه الله -أول أمين عام للجامعة العربية- في كتابه «الرسالة الخالدة» فيقول: «فازت

(١) كتاب: العالم العربي اليوم (٢٢٣).

(٢) كتاب: لمحات من تاريخ العالم، الطبعة العربية (٦٠).

(٣) كتاب: بيزنطة والإسلام، الطبعة العربية (٣٩٢).

جيوش الهمج من الأوروبيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزًا ساحقًا في القرن الخامس عشر فقصوا على العرفان والحضارة، وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش، وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رسل الحضارة في الغرب، وتخلي أوطانًا بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه «غرناطة» ويمحي أثر مائتي ألف مسلم بها، وجلهم من أهل أسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحًا وطردًا وتشريدًا، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوروبية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير، وحرمة الأديان.

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين، ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمان قرون فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طرد الناس من أوطانهم، وحوسبوا على نياتهم وضمانهم...».

يتابع عزام: «ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين «فرنتز» و«فنلي» و«بتزيوس» و«دهسون» كما لخصه «أرنولد»: «وكانت أولى الخطوات التي اتخذها «محمد الثاني» بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعًا باتًا اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السنية بأن للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريق «جناديوس» من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة ذهب وحصان مطهَّم بعدة فاخرة ليركبه في موكبهِ إلى المدينة، ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور

المسيحي فحسب؛ بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين، فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين، وكانت حكومة السلطات تنفذ ما يقضي به مجلس البطريرقية، فكان للبطريرق السلطة المطلقة في الشؤون الروحية، ولم تتدخل قط في هذه الشؤون السلطات المدنية الإسلامية، ولما كان البطريرق معتبراً من كبار رجال الدولة في نظر السلطان ومعترفاً به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطات، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق في العاصمة، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها.

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق، وقد سقطت غرناطة للأسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة، فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة؟!^(١).

ولكن كان إنهاء «المسألة الشرقية» هدفاً كبيراً للأوروبيين المسيحيين وتقاطع معهم في هذا الهدف اليهود؛ لأن إسقاط الخلافة العثمانية وإنهاء المسألة الشرقية هو طريقهم لاحتلال فلسطين وإقامة دولتهم فيها.

وعاد الأمل قوياً لدى حركة التبشير «التنصير» بالمسيحية وراح المبشرون يعملون بقوة داخل العالم الإسلامي، بل والعربي. مستغلين ضعف وسقوط الدولة العثمانية وتمزق أوصالها.

ولا أدل على هذا من انعقاد «المؤتمر التبشيري الدولي» في شهر يونيو سنة

(١) الرسالة الخالدة (٢٢٥-٢٢٧).

(١٩١٠م) بالقاهرة وقدمت فيه خططًا خطيرة مدروسة لإحياء عملية التنصير .
 وكان شعار «الحرية» مدخلًا كبيرًا لهم ، وذلك استغلالًا للحرية الفكرية ،
 ودعوى التسامح الديني مدخلًا لنشر رسالة الإنجيل بين أبناء المسلمين .
 ومن إحدى أوراق العمل التي قدمت في ذلك المؤتمر تظهر هذه المعالم
 واضحة وهي ورقة قدمها المبشر «و. ه. ت جايردner» "W.H.T.Gairdner".
 وعنوانها: «تغيرات في المسألة التبشيرية في الأراضي المحمدية» .
 يقول فيها: «لو بدأنا بالإمبراطورية العثمانية، نجد حركة يمكن وصفها بأنها
 تهدف إلى تحقيق الحرية السياسية أولاً ثم الفكرية، وبالنتيجة فإن حركة مزدوجة
 كهذه لا بد أن تؤثر على الدين ببطء، ولكن بتأثير أكيد، إن الموقف الخفي
 للشباب التركي أنفسهم من مسألة التسامح الديني هو في الغالب موقف متقدم
 جدًا والحقيقة أن النصرانية والنصارى هم في أعماق حركتهم إلى حد كبير . . .
 ينبغي أن يثمر ذلك نتائج هامة ويعيده المدى الآن في أجزاء كثيرة من
 الإمبراطورية التركية خصوصًا في سوريا تحرز حرية النشر تقدمًا هائلًا؛ بل إن
 بعض قادة الفكر الإسلامي أصبحوا يميلون إلى مراجعة كيان الفكر الإسلامي
 من أساسه، ومراجعة الصورة المعهودة عن هذا الدين بحقائقها وتفصيلاتها
 التاريخية، وأليست هذه الحقائق حافزًا للجمعيات العاملة في الإمبراطورية
 العثمانية، لتأهب وتدعم نشاطها حتى تستفيد من الفرصة التي تتيحها هذه
 التطورات المتعاطمة؛ ألم يحن اليوم الذي نحصد فيه ثمرة المعاناة الرائعة
 للشهداء الأرمن؟ يجب أن يأتي اليوم على وجه اليقين، وبفسس اليقين أن هناك
 إلهاً عادل في السماء»^(١).

(١) مؤتمر التبشير الدولي: الإرساليات والحكومات (١٩٠٤-٢٠٠٥) نقلًا عن كتاب: دراسة
 وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩م-١٩٢٣م). (١٧٧-١٧٩).



فالحرية والتسامح هي الشعارات المرفوعة، والتنصير والاحتلال هي الأهداف الموضوعة. والتي يراد تحقيقها.

يقول الجنرال التركي «جواد رفعت أتلخان»: «منذ سبعين سنة، والكوارث تتوالى على بلادنا لإزالة الخلافة العثمانية، واحتلال فلسطين، وإقامة دولة يهودية مركزها القدس، وقد دبرت الأيدي الخبيثة تقديم «خمسة ملايين من الجنيئات الذهبية» إلى السلطان عبد الحميد الثاني مقابل سماحه لاستيطان اليهود في فلسطين، إلا أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك بشدة، وأدى هذا الرفض إلى إثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية، متخذة من الأكاذيب والافتراءات سلاحاً لها، وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها الجارف.. وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات: «لا حرية في الدولة العثمانية»، «الاستبداد يخيم عليها»، «السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم في البحر»، إن أوروبا قد تأمرت فيما بينها لتقسيم الدولة العثمانية»^(١).

بدأت أوصال الدولة العثمانية تتمزق وأجزاؤها تنهار، والوجود الإسلامي في شرق أوروبا ينحسر، وانقض الغرب المسيحي بحملة إبادة لا نظير لها في التاريخ لمسلمي شرق أوروبا والقرم والقوقاز وشمال أفريقيا وغيرها.

يسجل آخر سلاطين آل عثمان؛ بل آخر خليفة إسلامي «السلطان عبد الحميد الثاني» في مذكراته بتاريخ (٨) نيسان سنة (١٩١٧م) هذه الحسرات على الإنهيار: «الجهات تنهار، وبدأت الأخبار السيئة ترد، زالت الأسر القديمة والأصلية الموجودة في استانبول، وظهر أغنياء الحرب بسطوتهم، المرافقون

(١) كتاب: أسرار الماسونية (١٧٩).

لي يحملون لي في كل يوم من تلك الأيام. إما خبر هزيمة جديدة، أو خبر فضيحة جديدة، خررت ساجداً للرحمن وهو الشيء الوحيد الذي أستطيع عمله في هذا اليأس، الذي نتج عن شعوري بأن الدولة التي أقامها أجدادي تعيش حتى اليوم - مثلي تماماً - أيامها الأخيرة . . . كانت جنودنا على كل الحدود ممزقة مبعثرة بين انسحاب وهزيمة لا يستطيع خلاصنا إلا الله . . . وإذا لم ننقذ فلا تريني اللهم أياماً أسوأ من هذا الموت . . . هذا آخر توسلاتي^(١).

في توثيق نادر ونفيس لحجم الكارثة والإبادة التي أصابت المسلمين في أوروبا الشرقية والقوقاز والقرم والبلقان وشرقي الأناضول وغيرها خلال (١٠٠) سنة من عام ١٨٢١م - ١٩٢٢م، يقدم المؤرخ الشهير «جستن مكارثي» "Justin McCarthy"، كتابه الفريد الموثق: «موتٌ ونفي، مصير المسلمين العثمانيين»^(٢).

(DEATH AND EXILE)

The Ethnic Cleansing

Of Ottoman Muslims

1821-1922

في مقدمة كتابه يقول «جستن مكارثي»: «توصلت إلى هذه الدراسة لوفيات

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد (١٢٩-١٣٠).

(٢) صدرت الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية عام (١٩٩٦م) وصدرت الطبعة العربية الأولى عام (٢٠٠٥م) عن دار قدمس للنشر والتوزيع بدمشق ترجمة: فريد الغزي، وذكر المؤلف مكارثي أنه أعد الكتاب بدعم وتمويل من: وقف الولايات المتحدة القومي للدراسات الثقافية، للبحث في الحرب العالمية الأولى وآثارها، ومن مؤسسة الدراسات التركية للبحث في وفيات وهجرات الأتراك.

وهجرة المسلمين من البحث في عدد سكان الإمبراطورية العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، كان اهتمامي آنذاك يكمن في التحقق من عدد المسلمين الذين عاشوا في الأناضول، وكيف تغير عددهم في القرنين التاسع عشر والعشرين، أدهشني نتائج الدراسة، إذ لم يكن في قراءاتي السابقة عن التاريخ العثماني ما يهينني لتلك الوفيات الكبيرة في تلك الفترة، ذكرت الإحصائيات أن ربع السكان المسلمين فقدوا لم أستطع أن أصدق أن فقداناً كهذا جرى تمويهه في التاريخ، إلا أن مراجعة البيانات مرة تلو الأخرى خلّفت الاستنتاج نفسه، ليس خلال الحرب العالمية الأولى فحسب؛ بل طوال القرن التاسع عشر أيضاً، تجشمت الشعوب المسلمة في الأناضول، والقرم، والبلقان، والقفقاس، خسائر هائلة في الأرواح، كانت خسائر جديرة ببحث إضافي^(١).

• تحت عنوان: «الأرض المقبلة على الضياع».

يسجل مكارثي هذه الفاجعة: «في عام (١٨٠٠م) كانت هناك أرض إسلامية فسيحة في الأناضول، والبلقان، وجنوبي روسيا. أرض شكل المسلمون فيها الغالبية، شملت هذه الأرض القرم ومناطقها النائية، وأكثر منطقة القفقاس، وشرقي الأناضول وغربيها، وجنوبي شرقي أوروبا من ألبانيا والبوسنة حتى البحر الأسود، وارتبطت بها جغرافياً مناطق في رومانيا، وجنوبي روسيا حيث كان المسلمون أكثرية ضمن الشعوب المختلفة، بحلول عام (١٩٢٣م) لم يتبق من الأرض الإسلامية إلا الأناضول وشرقي ثراقيا "Thrace" وقسم من جنوب شرق القفقاس، اختفى مسلمو البلقان على نطاق واسع موتى أو مجبرين على النزوح... قهر المصير ذاته مسلمي القرم وشمال القفقاس وأرمينية

(١) الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين (١٩).

الروسية بسهولة، اختفى هؤلاء، مات ملايين المسلمين، أكثرهم من الأتراك، وفزت ملايين أخرى إلى ما يعرف اليوم بتركيا. بين عامي (١٨٢١م) و(١٩٢٢م) أجبر أكثر من خمسة ملايين مسلم على مغادرة أراضيهم، مات خمسة ملايين ونصف المليون مسلم، قتل بعضهم في الحرب، وهلك بعضهم الآخر لاجئين من المجاعة والمرض^(١).

يضيف مكارثي: «وعلى نحو مشابه جلب الاستعمار الروسي، الذي لا يزال كثيرًا ما يصوّر على أنه مسيرة تمدن للثقافة الأوروبية معه مقتل ملايين الجركس، والأبخاز، واللّاز "Laz"، والأتراك تبدو القومية والاستعمار في مظهر أسوأ كثيرًا حين تظهر ضحاياهما على المسرح»^(٢).

ثم يذكر مكارثي الازدواجية الفكرية والتاريخية الأوروبية عندما تذكر أوروبا وبشكل مستمر ما حصل للمسيحيين الأرمن والبلغار واليونان أثناء الحروب مع العثمانيين. ولكنها تطوي في تأمر فكري وتاريخي ذكر هذه المأساة الضخمة لما حصل للمسلمين من الإبادة والتطهير العرقي والتهجير.

يقول مكارثي: «مع الأهمية التاريخية لخسائر المسلمين؛ فإنها غير موجودة في الكتب المدرسية إن الكتب المدرسية والتاريخية التي وصفت مذابح البلغار والأرمن واليونانيين لم تذكر المذابح المماثلة للأتراك، إن عدد القتلى والمنفيين من المسلمين غير معروف، وهذا يخالف الممارسة الحديثة في مجالات أخرى من التاريخ، لقد أصبح بحق غير وارد اليوم الكتابة عن التوسع الأمريكي من دون مراعاة الوحشية التي مورست على السكان الأمريكيين الأصليين، إن حرب

(١) المصدر السابق (٢١-٢٢).

(٢) المصدر السابق (٢٢).

الثلاثين عامًا يجب أن تكون جزءًا من أي تاريخ للتغير الديني في أوروبا، لا يستطيع المؤرخون أن يكتبوا عن الاستعمار من دون ذكر قتل الأفريقيين في الكونغو أو الصينيين في حروب الأفيون، ومع ذلك لم تجر في الغرب كتابة أو فهم تاريخ معاناة مسلمي البلقان، أو القفقاس، أو الأناضول قط. جرت كتابة تاريخ البلقان، والقفقاس، والأناضول من دون ذكر أبطاله -ضحاياه- الرئيسيين «السكان المسلمين»^(١).

● تحت عنوان: «حرب الاستقلال اليونانية».

يكتب مكارثي: «بدأت الثورة اليونانية ضد الإمبراطورية العثمانية في آذار عام (١٨٢١م) ... قتل القرويون ورجال العصابات اليونانيون ببساطة كل تركي عشروا عليه ... في غضون ذلك هاجم السكان المسيحيون، وقتلوا السكان المسلمين في كل بقعة من شبه الجزيرة ... منذ يوم (٢٦) آذار وحتى يوم أحد عيد الفصح الذي صادف حلوله في عام (١٨٢١م) يوم (٢٢) نيسان، يفترض هلاك (١٥٠٠٠) نفس مسلمة، وتدمير قرابة (٣٠٠٠) بيت ومنزل تركي. كانت الصيحة الوطنية للثورة التي أعلنها كبير الأساقفة اليوناني «جيرمانوس» "Germanes" هي: «السلام للمسيحيين، الاحترام للقناصل، الموت للأتراك»^(٢).

يضيف مكارثي: «جرى قتل كل المسلمين الأتراك الذي أسرتهم العصابات اليونانية بما في ذلك النساء والأطفال، باستثناء عدد صغير من النساء والأطفال الذين جرى أسرهم للاستعباد ... كان القتل كثيرًا ما كان محسوبًا وبدم بارد ... في «تريبولتزا» "Trpolitza" على سبيل المثال:

(١) المصدر السابق (٢٣).

(٢) المصدر السابق (٣٣).

مدة ثلاثة أيام خضع السكان المسلمون الأتراك البؤساء لشبق عصابة من الهمجيين ووحشيتهم، لم يستثن الجنس ولا السن، جرى تعذيب النساء والأطفال قبل قتلهم، كانت المذبحة ضخمة إلى درجة أن قائد العصابة: «كولوكوترونس» "Kolokotrones" نفسه قال: «إنه عندما دخل القرية عبر بوابة الحصن، لم تطلأ حوافر حصانه الأرض قط، كان درب انتصاره مفروشا بالجثث»، بعد انقضاء يومين جرى جمع البقية البائسة من المسلمين على نحو متعمد إلى عدد يقارب الألفي نفس من كل سن وجنس، إنما في المقام الأول نساء وأطفال، واقتيدوا إلى الجبال المجاورة حيث جرى ذبحهم كالماشية^(١). يسجل «مكارثي» هذا الاعتراف في دهشة واستغراب كيف فُعل هذا الهول الفاجع بالمسلمين الأتراك مع أنهم كانوا متسامحين مع المسيحيين طوال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية:

«كانت معاناة تلك المجتمعات من سخرية القدر»^(٢) . . . إذ لو كان الأتراك في أيام قوتهم قوميين من النوع اليوناني لكان المسيحيون هم الذين طردوا تاركين وراءهم أراضي كانت تركية مسلمة بكل معنى الكلمة بدلاً من ذلك، عانى العثمانيون، وبقي المسيحيون، كثيراً ما كانوا يعاملون المسيحيين معاملة حسنة . . . لكنهم سمحوا لهم بأن يستمروا بالبقاء، وأن يحافظوا على لغاتهم وتقاليدهم ودياناتهم كانوا على حق حين فعلوا ذلك، لكن لو أن أتراك القرن الخامس عشر لم يكونوا متسامحين، لبقي أتراك القرن التاسع عشر على قيد الحياة في بيوتهم»^(٣).

(١) المصدر السابق (٣٥).

(٢) هذا تعبير المؤلف نسجه كما قاله مع اعتراضنا عليه.

(٣) المصدر السابق (٣٩-٣٧).

ثم جاء دور الروس الأرثوذكس.

● فتحت عنوان: «التوسع الروسي».

يسجل «جستن مكارثي» هذه المآسي التي حلت بالمسلمين من قبل الروس: «شرع القياصرة -الروس- بإخضاع مماثل لشعوب أجنبية . . . كانت الطريقة التي تبناها الروس . . . فقالة ولو أنها قاسية: جردوا المناطق التي أخضعوها من المسلمين، واستبدلوا المسيحيين بهم، لم تكن تلك السياسة استثنائية للروس، ففي الوقت الذي كان الروس يقومون فيه بأفعالهم ضد المسلمين على سبيل المثال، كان المستوطنون الأوروبيون في أميركا الشمالية يفرضون سياسة مشابهة على الأميركيين الأصليين.

كان إخضاع الروس للمسلمين سياسة جرى تطبيقها على نحو ثابت وفعال مدة (١٥٠) عامًا^(١).

يضيف: «إضافة إلى طرد المسلمين بسبب الحروب، حارب الروس المسلمين القفقاس وطردهم من ديارهم في ستينيات القرن التاسع عشر . . . في كل الحروب من حروب القرنين التاسع عشر والعشرين قُتل مسلمون، وطرده مسلمون، مات ملايين المسلمين، وأبعد ملايين آخرين، كانت كل حرب مختلفة، لكن تأثير الحروب في المسلمين كان متساوياً، قتلوا أو طردوا من ديارهم بأعداد كبيرة»^(٢).

هذه روسيا تقلد أوروبا في الوحشية والقسوة ضد المسلمين، بمخالب دب مفترس وأخلاق فرد قذر، وصدق فيهم وصف الفيلسوف والمؤرخ الشهير:

(١) المصدر السابق (٣٨).

(٢) المصدر السابق (٤٣-٤٤).

«إيفان غولوفين» "Ivan Golovin": «إن روسيا نصف قرد ونصف دبّ، إنها تقلد أوروبية في الممالك الأجنبية، ولكن في الوطن يُشعر بكف الدبّ في كل مكان»^(١).

وأخيرًا يسجل المحقق البريطاني «كلين» "Cullen" في مؤتمر برلين هذه النتيجة: «لا أستطيع أن أصل إلى أي استنتاج آخر إلا أن الروس يتفقدون سياسة ثابتة لإبادة العنصر المسلم»^(٢).

• في بلغاريا المأساة كبيرة يقول عنها مكارثي: «حين جرى حساب أولئك المسلمين الذين بقوا في بلغاريا وأولئك اللاجئين الذين نجوا كانت البقية هم الذين لقوا حتفهم . . . ولكن رقم المفقودين كبير إلى درجة أن أي حسابات لأعداد أقل لن تؤثر كثيرًا في الاستنتاج المستخلص هنا، نحو (٢٦٠,٠٠٠) مسلمًا بلغاريًا قتلوا أو ماتوا بسبب المرض أو الجوع أو البرد»^(٣).

يسجل القنصل البريطاني في بلغاريا: «إدمند كلبرت»^(٤) حجم المأساة للمسلمين في بلغاريا، كما يسجل كشاهد عيان الفارق الكبير بين تسامح المسلمين الأتراك مع مسيحي تلك الديار وكرم ضيافتهم وحسن تعاملهم. وكيف قابل الروس والبلغار المسيحيون ذلك كله بغدر ووحشية وقذارة لا نظير لها.

(١) نقلًا عن المصدر السابق (٤٥).

(٢) المصدر السابق (٧٩).

(٣) المصدر السابق (١٢٢).

(٤) يعتبره جستن مكارثي شاهد عيان وكاتب تقارير دقيقًا ومترفًا في اهتمامه بالمأساة البشرية عن التحيز الديني والعنصرية لذا فإن شهادته تعتبر بحق اتهامًا محكمًا لمضطهدي المسلمين في بلغاريا: الطرد والإبادة (١٢٢).



يقول «كلفت» في خطابه الذي كتبه للسيد «هنري ليرد، جي، سي، بي» بتاريخ (١٦) أيلول عام (١٨٧٨م): «تسمح الحكومة الروسية للمسيحيين بأن يأخذوا حقهم بالقوة، وأن يزوروا الأحياء التركية حاليًا كيفما اتفق مع إراقة دماء وسلب ونهب من دون تمييز، إن النتيجة هي أمام العالم الآن...»^(١).

إن الأعمال الوحشية التي مورست على المقيمين المسلمين في منطقة «قزنلق» نفسها ليس لأنهم لم يقوموا بأي استفزاز فحسب؛ بل وقفوا إلى جانب البلغار، وحموهم من التحرش خلال المشكلات الأولى...

إن التجاوزات التي ارتكبتها المسلمون في مناطق البلقان بحسب علمي... اقتصرت على مضايقة القرى المسيحية، أما المسيحيون في ظل الحكم الروسي البلغاري من ناحية أخرى فقد صبوا جام غضبهم من دون تمييز على كل السكان المسلمين، ويهدف معلن هو طردهم من البلاد.

أستطيع أن أقول إنه في حين حدثت حالات سرقة واغتيال المسيحيين على نحو إفرادي في ظل الحكم التركي؛ فإن قرى مسلمة كاملة هي الآن عرضة لتلك المعاملة، وفي حين كانت للسلطات التركية على الأقل فضيلة التصريح بالرغبة في تقديم تعويض؛ فإن الحكم الروسي في تركيا لا يقدم حتى هذا التنازل للرأي العام...

(١) تمامًا كما أن المجازر الرهيبة التي ارتكبتها المسيحيون الصرب والكروات ضد مسلمي البوسنة والهرسك عام (١٩٩٤م) وما بعده هي أمام العالم الآن، والمجازر التي ارتكبتها الصرب ضد مسلمي كوسوفا كذلك، والمجازر التي ارتكبتها المسيحيون في أندونيسيا ضد المسلمين في جزر أمبون وجزر الملوك هي كذلك أمام العالم الآن. وما ارتكبته أمريكا في العراق، وإسرائيل في لبنان كذلك. في الوقت الذي ترفع فيه شعارات الحرية وحقوق الإنسان، إننا أمام وهم كبير.

إن حالات اعتداءات الأتراك على الإناث المسيحيات في الأوقات العادية، أقل حدودًا بكثير مما يُظن عمومًا في الوطن، أما منذ الاحتلال الروسي، ليس من المبالغة القول إن البلغار في المناطق الريفية يعتدون ساعة يشاؤون على النساء والفتيات التركيات جملة ...

أصبح رفاه الفلاحين البلغار المادي في ظل الحكم التركي حقيقة مسلمًا بها، وروح حسن الضيافة لدى التركي على نطاق شعبي أو فردي يضرب بها المثل. أما الآن وبعد أن هيمن البلغار فإن هدفهم، ويشاركهم بأسف قسم ليس بصغير من اليونانيين هو تدمير التركي المسلم بكل ما في الكلمة من معنى، وإخراجه من وطنه في أوروبية ...

أما فيما يتعلق بأمور ذات صلة بالدين، أستطيع أن أجزم بخبرة سنوات عديدة: أن حالات من هذا النوع كانت نادرة الحدوث في ظل النظام التركي المسلم، عُومل كَهَنَةُ الدين المسيحي باحترام دائم، حتى إشارة ازدراء تافهة كإطلاق كلمة على الكنيسة فارغة تشعل جمهور الإقليم بكامله، وتصبح شأنًا رسميًا، أما في ظل الحكم المسيحي الحالي، لم يفلت مسجد واحد من التدمير. فيما يتعلق بالدوائر الحكومية بإجماع دولي فإن الفساد والارتشاء التركيين في أسوأ حالاتهما هو النقاء بعينه مقارنة بنظيرهما الروسيين المحليين ...^(١).

• قام المسيحيون الأرمن بثورة ضد الوجود المسلم استمرت من عام (١٨٧٨م-١٩١٤م) محاكين تمامًا ما صنعه البلغار من مجازر وتطهير عرقي ضد المسلمين وبمساعدة الروس.

(١) نقلًا عن المصدر السابق (١٢٣-١٢٥).

يلخص «مكارثي» الكارثة فيقول: «بحلول عام (١٨٧٩م) من الواضح أن المشاعر القومية الأرمنية بدأت تتنامى أيد بطريك القسطنطينية الأرمني «نارسس» "Nurses"، نفسه علناً انفصال «أرمنية» عن الإمبراطورية العثمانية، وجه رسالة بذلك إلى الزعيم الأرمني «بسمارك»^(١) وأخبر السفير البريطاني «ليرد» بمخططه فلما أخبره السفير بأن في أرمنية أكثرية سكانية ساحقة من المسلمين» ردّ عليه البطريك بسخرية: «إن المسلمين سيكونون سعداء إذا حكمهم الأرمن». . . .

كان المخطط العام لخطتهم هو محاكاة الانتفاضة البلغارية الناجحة، تحريض أرمن محلّيين على مهاجمة مسلمين، محرضين بذلك على قتل أرمن، ما سيؤدي إلى تدخل أوروبي لمصلحة قيام دولة أرمنية.

أخبر أحد الثوريين الأرمن الدكتور «هاملن» "Hamlin" وهو مؤسس الجامعة الأمريكية في تركيا بأن عصابات الأرمن سوف تنتظر الفرصة لقتل الأتراك والأكراد، وتشعل النار في قراهم، سوف يثور المسلمون الغاضبون بعدها، ويهاجمون الأرمن العزل إلى درجة أن روسيا سوف تتدخل باسم «الإنسانية والحضارة المسيحية»، حيث شجب المبشر المذعور المخطط لأنه شنيع وشيطاني أكثر من أي شيء عرفه.

تلقى هذا الرد: «هكذا يبدو الأمر لك من غير ريب، لكننا قرّرنا نحن الأرمن أن نصبح أحراراً أصغت أوروبا إلى ما ارتكبه البلغار من أهوال، وجعلت البلغار أحراراً، وسوف تصغي أوروبا أيضاً إلى صيحتنا حين تدخل في صيحات ودماء ملايين النساء والأطفال . . . سوف نفعلها»^(٢).

(١) زعيم ثوري أرمني عُرف بارتكاب المجازر الشنيعة وجرائم الحرب.

(٢) المصدر السابق (١٣٨-١٣٩).

وفعلوها، وارتكبت المجازر الرهيبة ضد المسلمين بما في ذلك النساء والأطفال وبمساعدة روسيا ومباركة البطريركية الأرمنية المسيحية الأرثوذكسية، وتحت سمع ونظر أوروبا والهدف «الحرية» على أشلاء ملايين البشر هكذا الحرية في العقلية المسيحية الأوروبية.

وعلى نمط ما قام به المسيحيون الأسبان بتنصير من بقي من المسلمين بالاندلس بالقوة والإكراه، قام المسيحيون الأرثوذكس في بلغاريا وعموم البلقان بذلك بشكل أشد قسوة وإكراهًا.

● تحت عنوان: «الردة القسرية إلى المسيحية»:

يقول «مكارثي»: «نفذ البلغار وغيرهم في أثناء حروب البلقان سياسة انتقائية بتحويل أولئك الذين قهروهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية قهراً... كانت عملية الردة القسرية عند المسلمين أكثر صعوبة بكثير، تبرا المسلم المرتد قسراً من أسلافه، ومن عاداته، ومن هويته العرقية، ومن أسرته، ومن دينه أيضاً، كان القبول بالمعمودية بالنسبة إلى المسلم المؤمن يعني القبول باللعنة الأبدية، لذلك كانت مسألة ردة المسلمين مسألة إكراه، كما فعل المسلمون في أسبانيا في القرن الخامس عشر، ذهب مسلموا البلقان إلى أبعد الحدود لتجنب إمكانية الردة القسرية، كان رد فعلهم الأولي هو الهروب، لكن المسلمين الذين علقوا خلف الخطوط البلغارية قد يجبرون على أن يختاروا الردة أو الموت»^(١).

ويقدم لنا «مكارثي» مشهداً رهيباً: كيف تتم عملية التنصير للمسلمين قسراً، وتحويلهم إلى المسيحية:

يقول «مكارثي»: «فيما يلي مثال عن أساليب التحويل:

(١) المصدر السابق (١٧٣-١٧٤).

شُكلت لجنة خاصة في «برة شوة» و «ملاطية» برئاسة الحاكم البلغاري المساعد «تشاتوف» وعضوية «جون إنغليسوف» مدير المدارس البلغارية، والقسّ «تشاتوف» شقيق الحاكم المساعد، ضمن أعضاء آخرين، جرى تأسيس هذه اللجنة لتحويل جميع أتراك ملاطية إلى المسيحية، وبأوامر من اللجنة جرى تسليح (٤٠٠) قروي من المنطقة بالبنادق والعصي: هاجم هؤلاء مسلمي القرى المجاورة، وقادوهم عنوة إلى الكنيسة في «وَرَوَة» حيث جرى تعميدهم جميعًا.

مثال آخر:

جرى صف المسلمين في مجموعات، أطلق على كل مجموعة اسم معمودي، ينتقل بعد ذلك قسّيس من مجموعة إلى أخرى فينما كان ينثر الماء المقدس على جبهته بيد، كان يجبره بالثانية على أن يقضم نقائق من لحم الخنزير، كان الماء المقدس بمنزلة التعميد والنقائيق بمنزلة التخلي عن العقيدة الإسلامية؛ لأن القرآن يحرم لحم الخنزير، كان يتم التحويل بإصدار شهادة مزخرفة بصورة تعميدهم المسيح... على المتنصرين أن يتخلوا عن طرايشهم، وعلى المتنصرات أن يمشين في الشوارع من دون غطاء وجهه^(١).

هكذا قامت أوروبا الحديثة. قتل وإبادة وتطهير عرقي ووحشية وإكراه على التحول إلى المسيحية، ثم يقولون إنهم دعاة الحرية. وحقوق الإنسان. ويتهم أزمهم وأبواقهم من المستغربين الإسلام العظيم، بأنه انتشر بالسيف وأكره الناس على اعتناقه بالقوة.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ولأنها مسيحية زائفة ودين باطل. يعترف «مكارثي» بأنه: «لم يكن نجاح هذه

(١) المصدر السابق (١٧٤-١٧٥).

التنصيرات القسرية على المدى الطويل كبيرًا ، لا تزال ذرية المسلمين الذين نجوا من أهوال عامي (١٩١٢م - ١٩١٣م) تشكل أقلية مسلمة في وطنها حتى اليوم^(١). يقول «مكارثي»: «إن الأدلة على التنصير القسري للمسلمين الذي مارسته أوروبا الحديثة موثقة جدًا ثم يحيل إلى مواضعها في الأرشيف البريطاني:

F.O 242 and F.O 424-113-5970

F.O 424-248-7327 F.O 424-6405-2508

F.O 421-351-8124 F.O 424-248-7327⁽²⁾

وفي الأرشيف الأمريكي:^(٢)

U.S. 867,001490, Rockill to secretary of

State, Constantinople 21 Febroary 1913.

● تحت عنوان: «نهاية أرض المسلمين»:

يقول «مكارثي»: «بعد أن وضعت الحروب أوزارها، كانت مجتمعات مسلمة في منطقة بحجم أوروبا الغربية كاملة قد قُلِّصت وأيدت، تقلصت مجتمعات البلقان التركية العظيمة إلى جزء من أعدادها السابقة، في القفقاس طُرد الجركس واللاز الأبخاز والأتراك وآخرون من جماعات مسلمة صغيرة. تغيرت الأناضول، المنطقة الوحيدة التي انتصر فيها الأتراك تغيرًا كليًا فغربي الأناضول وشرقيها أقرب إلى الخراب، أنجزت إحدى أكبر مآسي التاريخ»^(٣). يضيف: «كانت مسألة الشرق جزءًا من التاريخ الدبلوماسي الأوروبي

(١) المصدر السابق (١٧٥).

(٢) المصدر السابق (٣٨٦).

(٣) المصدر السابق (٣٢٧).

أجبالاً، فَصَلَّتْ مجلدات عديدة بطريقة رزينة وواقعية علمياً: الحروب والمكائد الدبلوماسية التي أدت إلى تدمير الإمبراطورية العثمانية، مرفقة بمصورات تظهر فقدان المتدرج للأراضي العثمانية، لم تذكر الخسائر في الأرواح التي صاحبت حل مسألة الشرق... ولكن بشأن الأتراك والمسلمين كانت تمثل خسارة فادحة في الأرواح البشرية نظرًا إلى عدد الوفيات واللاجئين مقارنة بإجمالي عدد السكان^(١).

وهذه هي أرقام الإبادة البشرية لملايين المسلمين.

يقول «مكارثي» في ألم بسبب هول الفاجعة: «ليست الإحصاءات مؤشرات على الخسارة المروعة لكنها تستطيع أن ترسم فداحة المعاناة البشرية، تخدّر أعداد القتلى المسرودة بالملايين مشاعر المرء. من الغريب أن التفكير في تفاصيل موت شخص واحد يؤثر فينا عاطفياً أكثر من معرفة أن ملايين لقوا حتفهم، لا بد من الاطلاع على الإحصائيات لتقدير مدى خسائر المسلمين.

إن الأعداد في الجدول (٣٠) هي تقديرات دنيا لوفيات المسلمين، لم يجر تسجيل أو حتى تقدير كثيرين من القتلى المسلمين. كان الاختيار دومًا على الأرقام الدنيا، ولو وقع الاختيار على التقديرات العليا لارتفعت الأرقام النهائية للوفيات إلى ملايين كثيرة. على سبيل المثال: كانت الخسائر في السكان المسلمين في الأناضول بين عامي (١٩١٤-١٩٢٢م) نحو ثلاثة ملايين في الحقيقة، ذكر منهم في الجدول (٢٤) مليون فقط، وإذا ما أدخلت التقديرات عن المجهولين في الحسابات وكانت النتيجة (٥٥) مليون قتيل مسلم تقريبًا، وطرد أكثر من خمسة ملايين لاجئ من بيوتهم، وكثير من هؤلاء أدرج بعد في عداد الأموات في النهاية^(٢).

(١) المصدر السابق (٣٢٨).

(٢) المصدر السابق (٣٣٣-٣٣٤).

○ الجدول (٣٠) ○

وفيات وهجرة المسلمين

اللاجئون	الوفيات	
عدد الذين بدؤوا الرحلة (١٠,٠٠٠)	(٢٥,٠٠٠)	الثورة اليونانية
(٢٦,٠٠٠)	غير معروفة	حروب القفقاس (١٨٢٧-١٨٢٩م)
عدد الذين بدؤوا الرحلة (٣٠٠,٠٠٠)	(٧٥,٠٠٠)	الترحيل القرمي
عدد الذين بدؤوا الرحلة (١,٢٠٠,٠٠٠)	(٤٠٠,٠٠٠)	الترحيل القفقاسي
عدد الذين بدؤوا الرحلة (٥١٥,٠٠٠)	(٢٦٠,٠٠٠)	بلغاريا (١٨٧٧-١٨٧٨)
(٧٠,٠٠٠)	غير معروفة	الحروب الشرقية (١٨٧٧-١٨٧٨م)
عدد الذين بدؤوا الرحلة (٤١٠,٠٠٠)	(١,٤٥٠,٠٠٠)	حروب البلقان
(٩٠٠,٠٠٠) لاجئوا الداخل	(١,١٩٠,٠٠٠)	شرقي الأناضول (١٩١٤-١٩٢١م)
عدد الذين بدؤوا الرحلة (٢٧٠,٠٠٠)	(٤١٠,٠٠٠)	القفقاس (١٩١٤-١٩٢١م)
عدد الذين بدؤوا الرحلة (٤٨٠,٠٠٠)	(١,٢٥٠,٠٠٠) (١,٢٠٠,٠٠٠)	غربي الأناضول (١٩١٤-١٩٢٣م)
(٥,٣٨١,٠٠٠)	(٥,٠٦٠,٠٠٠)	المجموع

ملاحظة: لم يدرج في هذا الجدول وفيات العسكريين وبعض المدنيين^(١).

(١) المصدر السابق (٣٣٤-٣٣٥).

يسجل «مكارثي»: «حين تنجز التحليلات، وتدون أعداد القتلى واللاجئين، وتوزع الملامة لا يبقى إلا الأسى على جميع أولئك الذين ماتوا، ممثلين مكرهين في مسرحية مأساوية، يجب على المرء أن يحاول أن يفهم موت أكثر من خمسة ملايين كائن بشري، وتدمير الحياة العادية لملايين الأفراد الآخرين، ملايين الروايات عن أهوال فردية. المهمة مستحيلة... لم يفهم المصير الحقيقي لهؤلاء المسلمين إلا أولئك المعاصرون الذين شاهدوا الميت، والذي يموت، كموظفي السكة الحديدية في بلغاريا العثمانية عام (١٨٧٨م) الذين عثروا على طفلة تركية حية وسط الأجساد المجمدة لأربعمئة لاجئ، لا بد أن بعضها كان لأسرتها، كان مصير هؤلاء المسلمين مصير أسرة الطفلة، طردوا من ديارهم ليموتوا، كان أيضًا مصير الطفلة الصغيرة التي أنقذها غرباء، تشكل ذرية هذه الطفلة، وذريات جميع الآخرين الذين نجوا أكثر مواطني الجمهورية التركية الحديثة»^(١).

يسجل المبشر بالنصرانية القسيس «استيفان نيل» "Stephen Neill" في كتابه الذي أصدره عام (١٩٧١م) بلندن هذه الشهادة على الأخلاق المسيحية. لكل ما حدث وما ربما سيحدث.

يقول: «حيث إنه قد قدرت الجحيم بخصوص هؤلاء «الكفار»^(٢) فإن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم أمر ضروري وخلق أيضًا، وأما من يُسمح له بالحياة منهم، فإلى عبودية دائمة، بمعنى ما يقومون به من خدمات للمؤمنين»^(٣).

(١) المصدر السابق (٣٣٥-٣٣٦).

(٢) يقصد المسلمين.

(٣) يعني المسيحيين.

وحيث أن المسلمين ببساطة كفار، فليس لهم الحق في الوجود، فلا عهد معهم، وينبغي أن يذبخوا بلا رحمة أو شفقة تمجيدًا لإله المسيحية^(١).
والغزو لا يزال مستمرًا بنفس أهدافه وطرائقه ووحشيته.

إن النظام العالمي الجديد رفعت فيه شعارات فقط «للحرية» وحقوق الإنسان بينما بقيت السمات الرئيسة للنظام العالمي الاستعماري القديم هي هي حتى الآن. يقرر «نعوم تشومسكي» ذلك فيقول: «يطرح عام (١٩٩٢م) تحديًا أخلاقيًا وثقافيًا خطيرًا على القطاعات صاحبة الامتياز في المجتمعات المسيطرة على العالم ... بحلول الحادي عشر من تشرين الأول عام (١٩٩٢م) ينتهي العام (٥٠٠) من عمر النظام العالمي القديم، والذي يدعى أحيانًا «الحقبة الكولومبية»^(٢) من تاريخ العالم أو حقبة «فاسكو دي غاما» تبعًا لأي من المغامرين النهابين الذين بدأوها، أو «رايخ الـ ٥٠٠ عام» إذا ما أردنا استعارة عنوان الكتاب التذكاري الذي قارن طرائق النازية وأيديولوجيتها بمشكلاتها عند الغزاة الأوروبيين الذين أخضعوا أكثر العالم»^(٣).



(١) كتاب: تاريخ الإرساليات المسيحية (١١٣).

(٢) نسبة إلى كرسوفر كولمبس.

(٣) كتاب: سنة ٥٠١ الغزو مستمر (٩-١٠).

الفصل الرابع

الحرية والمال بين

الشرع الإلهي والتشريع البشري

كيف أنشأ الإسلام الأخلاق

يعاني العالم المعاصر بما فيه العالم الإسلامي من أزمة حقيقة في القيم والأخلاق، ليست المشكلة في حقيقتها اقتصادية تدعو بعضهم إلى العدوان على بعض ومصادرة حريته ونهب أرضه وماله. وإفقاذه فرصة الحياة الكريمة.

وليست المشكلة بكثرة ما أنتجته البشرية من أسلحة الخراب والدمار الشامل، إن البشرية تقف اليوم على حافة خطر عظيم لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها بما أنتجته من أسلحة دمار وفتك شاملة. فذلك عرض للمرض وليست هو المرض.

إن الكارثة الحقيقية هي في ذات الإنسان، في ذات البشرية، هي الإفلاس الكبير في القيم والأخلاق، في انعدام معنى الحياة سوى تحقيق الشهوة ودوافع النزوة التي تجعل الإنسان يتحول إلى كائن مفسد بكل معاني الإفساد.

الإنسان مخلوق غريب وعجيب ومجهول في نفس الوقت، في النفس الإنسانية التواءات وقبائح لو تركت دون علاج لحولت الإنسان إلى أشد الكائنات في الأرض فسادًا وشرًا.

• وهنا نقرر حقيقة عظيمة ومهمة كشف فيها القرآن العظيم أغوار النفس البشرية وأخلاقها الحقيقية، ليقدم لها العلاج النافع والدواء الناجع.

الإنسان من حيث هو إنسان أي بالنظر إلى جبلته البشرية المحضة هو إنسان هلوع جزوع ممنوع قطع كنود مغرور ظلوم جهول نسي عجول، هو إنسان أناني

فردى لا يحب إلا نفسه، ولا يرى إلا ذاته، ولا يسعى إلا لأغراضه وأهوائه. ليس لأطماعه حدود يقف عندها ويقنع بها.

فمخلوق بهذه الصفات القبيحة وبهذه النفسية العدوانية الأنانية، أي خير ينتظر منه؟! وأي أنواع من الشرور والعدوان ستصدر عنه؟!

واسمع إلى كشف القرآن الكريم لحقيقة الإنسان. الذي هو بحكم خالقه وربه أحط أنواع الحيوان عندما يفقد منهج الإيمان ويتجرد من قيم الإسلام.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٨١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٨٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

فوصفه خالقه في هذه الآيات الكريمات بثلاثة أوصاف قبيحة تدل على مدى أنانيته وفرديته وانعدام الخير منه: الهلع، والجزع، والمنع.

وقال تعالى في آية الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فوصفه ربه تعالى بكثرة الظلم مجموعاً إلى كثرة الجهل.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأْتَسَكَّمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْكَافِرُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الراجب الأصهباني رحمه الله: «فقد كاد قولنا «الإنسان» يصير لفظاً مطلقاً»^(١) على معنى غير موجود، واسماً لحيوان غير معهود، كعقواء مغرب وغير ذلك من الأسماء التي لا معنى لها . . . ولم أعن بالإنسان كل حيوان منتصب القامة، عريض الظهر أملس البشرة ضاحك الوجه، ممن ينطقون لكن عن الهوى، ويتعلمون لكن ما يضرهم ولا ينفعهم. ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»^(٢).

وقد عبر الشاعر «البحتري» عن هذا بقوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الفهم إلا هذه الصور^(٣)
والمتنبى يقول:

أدُّم إلى هذا الزمان أميلك فاعلمهم فذم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهذ وأشجعهم فرد^(٤)

فكيف سينجو الإنسان من هذه الأوطار وهذه القبائح؟

كيف سيخرج من قبضة هذه الجبلات الخطيرة في أصل تكوينه والتي

(١) يقصد الراجب: المطلق بشرط الإطلاق وهو وجوده في الأذهان لا في الأعيان.

(٢) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادت (٥٠-٥١).

(٣) ديوان البحتري (١١٧/٢).

(٤) ديوان المتنبى بشرح العكبري المسمى بالتيان في شرح الديوان (٣٧٤/٢) من قصيدته التي أولها:

أقلُّ فعالي بَلَّةَ أكثره مجد وذا الجد فيه نلُّ أم لم أنل جدُّ

ستجعل منه كائنًا مفسدًا لكل شيء؟

قديمًا وحديثًا حاول المفكرون والفلاسفة والمصلحون الاجتماعيون، وخبراء الجريمة، حاولوا وضع دراسات وفلسفات ونظريات لدراسة هذه الكوامن في الإنسان وسبيل علاجها.

• ونظرياتهم تتراوح بين نظريات مוגلة في التصورات الخيالية البعيدة تمامًا عن الواقع البشري، وهذه النظريات ما هي إلا هروب عن واقع الإنسان وواقع الشر الذي أحدثه الإنسان في الأرض، وهي تمثل بشكل صريح اعتراف من أصحاب هذه النظريات بالعجز التام عن إدراك عمق هذه المشكلة. والعجز التام بالتالي عن أي شيء لعلاجها.

ويمثل هذا الاتجاه نظريات الفيلسوف الإغريقي الشهير «أفلاطون» من خلال نظرياته الخيالية بتصور مجتمع مدني خالي من الشر تمامًا في «آراء أهل المدينة الفاضلة».

• ومنهم من ظنوا أن الناس كلهم يُخلقون أحيانًا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارًا بالميل إلى الشهوات الرديئة ويمثل هذا الاتجاه الرواقيون أتباع الفيلسوف اليوناني «زينون».

• وأما «جالينوس» فيرى أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون، وليس ينتقل إلى الشر، ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير، ومنهم من هو متوسط بين هذين الطرفين وهؤلاء يمكن أن ينتقلوا بالتأديب ومصاحبة الأخيار، وقد ينتقلون إلى الشر بمقاربة أهل الشر وإغوائهم.

• أما «أرسطو طاليس» الفيلسوف اليوناني الشهير فقد وافق على وجود طباع الشر في التكوين البشري.

وبين في «كتاب الأخلاق» أنه يمكن نقل الإنسان من جانب الشر إلى الخير بالتأديب، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة.

ولكن ليس ذلك على الإطلاق، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء. ومنهم من لا يقبل ذلك أصلاً^(١).

• واتجهت دراسات أخرى قديمة وحديثة إلى محاولة معالجة السوء الذي في الإنسان بما هو أسوء، من فتح المزيد من الحرية للإنسان لعله يقنع ويشبع بما هو متاح له فيمتنع من العدوان ويعالج الطمع. وهذا الذي تنادي به المناهج العلمانية والليبرالية على مختلف توجهاتها في كل العالم.

يقول فيلسوف الأخلاق الشهير أحمد بن محمد بن مسكويه: «وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته: هما في اللذات الحسية وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى، وظنوا أن جميع قواه إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها وأن النفس الشريفة التي سمينها «ناطقة» إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية، وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة كالذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية، قالوا: وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناخ: اشتاق إليها

(١) انظر كتاب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق؛ لأحمد بن محمد بن مسكويه (ص ٤٢-٤٣).

وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ: إنما هي اللذات وتحصيلها ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم: جعلوا النفس المميّزة الشريفة: كالعبد المهين وكالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوانية لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكب وترتيبها لها وتعديلها إعدادًا كاملاً موافقاً، وهذا رأي جمهور العامة والرعاع وجهال الناس والسقاط^(١).

وأنت إذا نظرت إلى العالم اليوم تجد أن أكثر السياسات والنظريات توجه إلى هذا وتقود قوداً إليه.

قال «ابن مسكويه» راداً على هذا المسلك مبيّناً خلله وفساده: «إن الناس إذا فعلوا ذلك فإنهم يشاركون في هذه اللذات: الخنافس والديدان، وصغار الحشرات والهمج من الحيوان ... وسيظهر عند ذلك أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته: فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالى. لأنه يصير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة: عبداً للنفس الدنيئة: التي يناسب بها الخنازير^(٢)، والخنافس، والديدان، وخسائس الحيوانات: التي تشاركه في هذا الحال ... وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث بإيهاهم أن الفضيلة: هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من

(١) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

(٢) من كمال وجمال التشريع الإسلامي أن الله تعالى حرم أكل لحم الخنزير وسماء رجساً وحقره. وكذلك نبيه محمد ﷺ حرم شرب الخمر أشد التحريم وسمها أم الخبائث والعجب أن العالم اليوم خصوصاً المسيحي الغربي طعامهم المفضل لحم الخنزير وشرابهم المفضل الخمر. فصار هناك تناسب بين نفوسهم الشهوانية البهيمية، وهذه المستفدرات الدنيئة. والحمد لله القائل ﴿أَلَيْسَ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، والقائل في وصف النبي محمد ﷺ ﴿وَجُعِلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَبُحِّرُوا عَنْهُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾.

الملاذ، وأن تلك الفضائل الملكية: إما أن تكون باطلة ليست بشيء البتة وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس»^(١).

يعقد الدكتور محمد عبد الله دراز رحمته الله مقارنة بين منهج القرآن في تأسيس الأخلاق ومنهج الفلسفة فيقول: «إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعي، ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر، بمنهج معين للتوصل إلى قرار نظام معين، قادر على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء، وبدهي أن هذا الجهد العقلي، وهذه الخطوة التدريجية لا يتناسبان مع ضوء وحي، يغمر النفس دون بحث أو توقع، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها، ولا المقدم تاليه. فليس القرآن إذن عملاً فلسفياً، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة، وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي، التي تقوم على: «التعريف، والتقسيم، والبرهنة، والاعتراضات، والإجابات»، وهي كلها أمور متلاحمة دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس، وهو الجانب العقلي، على حين أن للقرآن منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاء كاملاً، يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيباً متساوياً، وهكذا يفارق التعليم القرآني التعليم الفلسفي، سواء في المصادر أو في المناهج»^(٢).

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (٥٣-٥٤).

(٢) دستور الأخلاق في القرآن (١٤).

إن العلاج لاستخراج واجتثاث هذه القبائح من النفس الإنسانية والطوية البشرية، وإحلال معاني أخلاقية كريمة محلها في التشريع الإسلامي يقوم على المحاور الآتية:

١- إن خالق الإنسان ومبدعه جل وعلا هو الأعلّم بأمرضه وخفايا نفسه الأمانة بالسوء والتواءات طبعه وقبح جبلته الطينية الهابطة.

﴿الْحَزَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وبناءً عليه فإن الرحمن خالق الإنسان هو وحده الأعلّم بما يُصلح فساد هذا الإنسان وبما يقوم اعوجاجه وبما يعالج أمراضه ويستخرج ويستفرغ منه تلك الأدوية المهلكة المردية.

وقد منح جل وعلا العلاج وأنزل الدواء. فبعث الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال الإمام سفيان رحمته الله: «نزل القرآن بمكارم الأخلاق أَلَمْ تَسْمَعِهِ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»^(١).

وقال بعضهم في تفسير قوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي فيه شرفكم، وهو تفسير صحيح، فبمكارم الأخلاق يسمو الإنسان ويشرف ويكرم والقرآن هو مصدرها وهو مؤسسها.

قال الإمام الطبري رحمته الله: «وقال آخرون عنى بالذكر في هذا الموضع: الشرف ...»

(١) تفسير الطبري (٨/٩).

وهذا القول الثاني أشبه بمعنى الكلمة وهو نحو مما قال سفيان الذي حكيناه عنه، وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه»^(١).

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْكَافِرُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال الإمام الطبري رحمته الله: «ولو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور والصحيح من التدبير والفساد فلو كانت الأمور جارية على مشيتهم وأهوائهم مع إثارة أكثرهم الباطل على الحق، لم تفر السموات والأرض ومن فيهن من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فألله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، كما قال قتادة: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، ولهذا جاء القرآن بالأمر بالصلاح والنهي عن الفساد في غير موضع. والصلاح كله في طاعة الله، والفساد كله في معصية الله، فالصلاح والطاعة متلازمان، والمعصية والفساد متلازمان، كتلازم الطيب والحل، وكل طيب حلال وكل حلال طيب، وكل خبيث حرام وكل حرام خبيث. والمعروف ملازم مع الطاعة والصلاح، والمنكر ملازم مع المعصية والفساد، ولكن بعض الناس قد تبين له اتصاف الفعل ببعض من الصفات قبل بعض، كما يعلم كثيرًا من

(١) تفسير الطبري (٨/٩).

(٢) تفسير الطبري (٩/٢٣٣).

العبادات ولا يعلم ما فيها من الصلاح، وكثيراً من المحرمات ولا يعلم ما فيها من الفساد، وكذلك قد يرى مصالح كثيرة ولا يعلم أمر الشارع بها. والمؤمن يعلم أن الله يأمر بكل مصلحة وينهى عن كل مفسدة، فإذا كان رأى في بعض الأفعال أنه مصلحة ولم يأمر الله به كان مخطئاً من أحد الوجهين: إما أن يكون في نفس الأمر مصلحة لما ترجح فيه من مفسدة لا يعلمها هو^(١)؛ وإما أن يكون داخلياً فيما أمر الله به ولم يعلم. ولهذا تنازع العلماء في المصالح المرسلة التي لم يُعلم أن الشارع اعتبرها ولا أهدرها^(٢).

وهنا يظهر بجلاء التأصيل العظيم في إدخال النبي ﷺ الأخلاق، وإصلاح النفوس في جذر بعثته وهدف رسالته. وأصل نبوته، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(٣).

ولكن علاج النفس البشرية من أدوائها واستخراج القبائح منها، وإحلال السموة والرحمة والعفة وصالح الأخلاق محلها، يتطلب عناصر ثلاثة:

(أ) يتطلب الطبيب المعالج العالم العارف بالداء وخطره، والعالم العارف بالدواء الناجع وفضله. وكفى بالله العظيم العليم الحكيم طبيباً عالمًا شافيًا معافيًا.

والظب في لغة العرب بفتح الطاء وكسرهما، هو الرفع والإزالة. فهو رفع

(١) كذا في المطبوع والعبارة فيها قلق وعدم وضوح، وأظن الصواب: إما أن يكون في نفس الأمر مفسدة ترجح على ما فيه من مصلحة لا يعلمها هو، والله أعلم.

(٢) شرح حديث أبي بكر (٥٩-٦١)، وجامع المسائل لابن تيمية (٤/٤٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٨١/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ودفع للداء والمرض ليحل محله الشفاء والسلامة والعافية.

في سنن أبي داود: عَنْ أَبِي رَمْثَةَ السُّلَمِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلِيٍّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى أَبِي الَّذِي يَظْهَرُهُ، فَقَالَ: دَعْنِي أَعَالِجُ الَّذِي يَظْهَرُكَ، فَإِنِّي طَيِّبٌ، فَقَالَ: «إِنَّكَ رَفِيقٌ، وَاللَّهُ الطَّيِّبُ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لِأَبِي: «مَنْ ذَا مَعَكَ؟»، فَقَالَ: ابْنِي أَشْهَدُ لَكَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّكَ لَا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ»^(١).

وقيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لما مرض: أندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رأيته الطبيب.

ب) ويتطلب العلاج النافع الناجع وهو متمثل في الوحي الكريم والتشريع الحنيف، والهدي المستقيم، ولذلك سماه الله روحاً لأن به حياة القلوب وصلاح النفوس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٩﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٦-٧٩].

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٠٧)، والحميدي في مسنده (٨٩٠) واللفظ له، وأحمد في مسنده (١٧٤٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٧).

ج) ويتطلب كذلك الاستعداد النفسي من العباد لقبول العلاج والاستفادة منه والقبول له وذلك من جهة التسليم الكامل له، والاستسلام التام لتشريعاته وأحكامه على حد قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٢- وهناك جانب آخر عظيم يتميز به التشريع الإسلامي الكريم. وهو توسيع مفهوم العبودية والعبادة لتشمل أنواع النشاط البشري كلها، وتكون الأخلاق الكريمة والخلق الحسن أحد أعظم معاني العبادة، فيبلغ العبد المسلم بحسن خلقه وأمانته وعفته درجة الصائم القائم؛ بل أعظم أجرًا وأكرم منزلة. ومنذ الأيام الأولى لبعثة رسول الله ﷺ. والأخلاق الكريمة والصفات النبيلة من الصلة والعفة والأمانة والرحمة والإحسان إلى الخلق داخلة في أصل دعوته المباركة، بارزة في حقيقة رسالته الكريمة، ليتنشل بها أهل الجاهلية من رديء الأقوال وسيء الأعمال. إلى سمو عالٍ من الأخلاق الكريمة. ولا أدل على ذلك من شهادة أبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك من أشد خصوم النبي ﷺ.

وشهادته هذه أدلى بها بين يدي هرقل عظيم الروم. فأخرج البخاري في الصحيح من حديث ابن عباس عن أبي سفيان -حديثه الطويل- في كتاب النبي ﷺ الذي كتب إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام. فجمع هرقل من كان بالشام من العرب من قريش وكان فيهم أبو سفيان وسأله عدة أسئلة. ومنها: قال هرقل لأبي سفيان: إلى ما يدعوكم هذا النبي؟ ﷺ، فكان جواب أبي سفيان: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واركعوا ما يقول

آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والصلة والعفاف والصدقة، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد^(١).

وفي حديث أبي ذر الغفاري لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: «اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق»^(٢).

فأصل النبي ﷺ في دعوته قواعد العدل والإحسان والرحمة والمساواة وكل ما من شأنه نفع الخلق وإيصال الخير للغير ولو حتى للبهائم. حتى قال له قائل: وإن لنا في البهائم أجراً؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «في كل كبد رطبة أجر»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠-٩١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَفِيعًا لِّعِبَادِهِ بَعِيدٌ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عن آية النحل السابقة: ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي وأمر بخير ونهي عن شر من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٤).

(١) صحيح البخاري (٧، ٢٦٨١).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (١٥٣).

(٤) أخرجه عنه البخاري في الأدب المفرد (ح: ٤٨٩).

ففي المنهج الإسلامي الكريم سعة عظيمة للرحمة وتأسيس كريم للعمل الكريم ودفع متواصل للإحسان إلى الخلق وجعل ذلك كله مولد عظيم للحسنات، ومكفر كبير للسيئات، لتدخل الأخلاق والأعمال كلها في الجذر التعبدي في حس وتصور وسلوك المسلم ويظهر ذلك بجلاء في هذين المعينين الكريمين.

المعين الأول:

أن العمل الشريف لكسب لقمة العيش الكريمة، لكف النفس وصون العيال، من أعظم أعمال البر في الإسلام. ومما يجني العبد المسلم به عفو الله وثوابه الجزيل.

والمعين الثاني:

أن الإحسان إلى الخلق حتى البهائم، بدافع الرحمة لها من أعظم منزلات رحمة الله على العبد الكريم الرحيم المحسن.

فمن المعين الأول: نجد أن النبي ﷺ يبين أن الرجل العامل الكادح العفيف الذي يعمل ليعف نفسه ويكف أهل بيته المؤنة: من أهل الجنة.

فَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٍّ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّقٌ ذُو عِيَالٍ»^(١).

ومن أبواب الإمام البخاري في الصحيح: باب كسب الرجل وعمله بيده،

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٨٦٥)، وأحمد (١٦٢/٤)، وابن حبان بلفظ: وَرَجُلٌ قَيِّرٌ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ» (٧٤٥٣).

وأخرج فيه حديث المِقْدَام بن معدِي كَرَب رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «وفي فوائد هشام بن عمار عن بقية: حدثني عمر بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام: «ما كسب الرجل أطيب من عمل يده، ومن بات كالألأ من عمله بات مغفوراً له»^(٢).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ»^(٣)، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «ومن أحب أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبهه بالأخيار فليكن في كل يوم تطلع شمسهِ نفع الخلق، فيما يسره الله من مصالحهم على يديه، وليطع الله في أخذ ما حل، وترك ما حرم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع؛ فإن طلب الحلال والنفقة على العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر. وقد روينا عن الصديقة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «أحل ما أكل العبد من كسب يده، وإن ولده من كسبه».

وللبخاري: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَيُفْرَسُ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٥).

(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).

(٢) فتح الباري (١٥٣/٩-١٥٤).

(٣) هي النخلة الصغيرة.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة وصححه (٢٧١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

(٥) صحيح البخاري (٣٤١٧).

وقال ابن المبارك لأصحابه وهم في الغزو: «هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشوفين فغطاهم، وثار إلى صلاته»^(١).

ومن اجتنب البيوع الفاسدة، ونزه لسانه عن الحلف في البيع، ومن حفظ معاملته عن المخادعة في البيع وخلف الوعد فقد وفق لأمر عظيم، وأفضل ما يستعين به من له عناية بدينه: القناعة، وحسن الظن بالله، والثقة بما ضمن من الرزق، وخوف الحساب، ومراقبة الجليل؛ فإنه قال وقوله الحق: ﴿اذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ وَأَتَكُفُّوا إِلَىٰ وَلَا تَكْفُرُونَ﴾^(٢) [البقرة: ١٥٢].

ومن المعين الثاني نجد خيراً كثيراً، وباباً واسعاً من المعروف والرحمة والإحسان. فإلى شيء من هذا الرصيد النبوي الكريم:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَزْبَعُونَ خَصْلَةً أَغْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَضْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»^(٣).

قَالَ حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ (راوي الحديث): «فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً».

هذا حديث عظيم القدر، جليل المحل، فاضل الخير، يؤسس للمعروف والإحسان قواعده ويفتح أبوابه.

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣٢/٢).

(٢) شرح حديث جبريل (٦٠٩-٦١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٣١).

فهذه الخصال الأربعون: أعلاها من جهة البذل والعطاء منيحة العنز، والمراد الحلبة الواحدة للماعز تمنح لمن يحتاجها، فما بالك بأدناها؟

فهي إذن خصال يسيرة، سهلة البذل، ولكن يجمعها قاسم مشترك واحد: هو أنها جميعها للنفع المتعدي للغير. كالأمثلة التي ذكرها حسان بن عطية راوي الحديث: فكلها خير يبذل، ومعروف يصنع. كل واحدة منها كفيلة أن تكون سبباً عظيماً لدخول الجنة، والفوز برضوان الرحمن تعالى.

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا وَثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ رَفِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَفَقَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^(١).

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري على هذا الحديث: باب رحمت الناس والبهائم. وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «أي صدور الرحمة من الشخص لغيره، وكأنه أشار إلى حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لَنْ تَزَحَمُوا حَتَّى تَرْحَمُوا»، قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدُكُمْ صَاحِبُهُ وَلَكِنَّهَا رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ، رَحْمَةٌ لِلْعَامَةِ»^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله أيضًا: «وفي الحديث الحث على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب، فسقي الآدمي أعظم أجرًا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣).

(٢) فتح الباري (٢١/٢٢).

(٣) فتح الباري (١٠/١١٣).

فهذا الإنسان لما دخل قلبه رحمة لهذه البهيمة ولو كانت غير محترمة؛ بل ربما مستقدرة عند أكثر الناس. فسقى هذا الكلب وأحسن إليه. بذلك عامله الله تعالى بجزاء من جنس عمله فشكر له فعله. وشملتة مغفرته وغطته رحمته تعالى.

وحتى تبقى الصورة مستقرة والرحمة والإحسان إلى الخلق هو الذي يجب أن يكون. فعكس ذلك من القسوة وعدم الإحسان، تسبب غضب الله ومقته وعذابه.

فمن جميل ترتيب الإمام البخاري رحمه الله. أخرج الحديث السابق. في فضل رحمة الخلق والإحسان إليهم حتى ولو كان كلباً، ثم أخرج بعده مباشرة حديثاً آخر في أن امرأة غضب الله عليها، ودخلت النار لأنها قست على هرة. فحبستها لا أطعمتها ولا سقتها حتى ماتت.

وهو حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةَ الْكُسُوفِ، فَقَالَ: «دَنْتُ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيُّ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَإِذَا امْرَأَةٌ -حَبَسْتُ أَنَّهُ قَالَ- تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً»^(١).

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلْتُ فِيهَا النَّارُ» قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهِ أَعْلَمُ: «لَا أَنْتِ أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَيْتَهَا حِينَ حَبَسْتَهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتَهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢).

(١) البخاري (٢٣٦٤).

(٢) البخاري (٢٣٦٥).

• بَوَّبَ الإمام البخاري فقال: باب الساعي على الأرملة والساعي على المسكين، ثم أخرج حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَأَحْسِبُهُ قَالَ: «كَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ»^(١).

فانظر إلى هذا الحديث ما أجله، وأعظم وقعه. وكيف يؤسس للعدل الاجتماعي والتكافل والرحمة للخلق، والقيام بشؤون الضعفاء. فيرفعها ليجعلها في مقام أجل وأعظم العبادات وأشقها.

والأحاديث النبوية والتوجيهات الكريمة من رسول الله ﷺ في هذا الباب كثيرة وعظيمة، وإنما أردنا ذكر نماذج منها تنبيهًا إلى أن هذا الجانب العظيم قد أخذ حقه وقدره اللائق به في التشريع الإسلامي الكريم.

٣- وهنا نقف أمام هذه الحقيقة التاريخية والواقعية والعظيمة، تحدث لأول مرة في التاريخ البشري.

حوّل الرسول الأعظم الأكرم محمد ﷺ بمنهج القرآن وتشريع رب العالمين المجتمع العربي في ذاك الوقت وهو مجتمع جاهلي بانس مرتكس إلى ذلك الأفق السامق من التلاحم والتراحم والإيثار وجميل الأخلاق وبديع الصفات. كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ من أكثر شعوب الأرض جهلاً وتخلفاً وقسوة وبؤساً، يعبدون الأصنام ويثدّون البنات ويأكلون الميتة ويتدابرون ويتقاتلون على الشاة والبعير. والفتيل والقطمير. تسيطر على عقولهم الخرافات وتسيرهم الثارات والنعرات.

(١) البخاري (٦٠٠٧).

قال الإمام البخاري رحمه الله: «باب جهل العرب، ثم أخرج حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَأَقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠] إِلَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»^(١).

لقد حول النبي ﷺ هؤلاء إلى أعظم مجتمع في تاريخ البشرية كله رحمة وعلمًا وعفوا وبرًا وإيثارًا وحلمًا وخيرًا.

هذا المجتمع الذي وصفه الله تعالى وصفًا جميلًا يدل على مدى الأخلاقيات الكريمة والنبيل العظيم الذي وصل إليه. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّطُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

هذا هو المجتمع الإسلامي الفريد، ضرب في أرض الواقع أروع الأمثال. في عمل الخير والإيثار وصناعة المعروف، بلا تكلف، ولا تحرج؛ بل بكل سخاوة نفس وطيب خاطر. انتظارًا لفضل الله وثوابه، وأجره ورحمته، وإليك بعض الأمثلة من واقعهم الجميل الذي لم تعرف الدنيا له مثيلًا.

وصدقت فيهم شهادة الله تعالى لهم بذكرهم بتلك الخصائص والصفات في الكتب الأولى قبل وجودهم.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ

فِي الْإِنجِيلِ كَرَّحَ أَخْرَجَ سَطَنَهُمْ فَتَازَرُوهُ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُتَجَبَّ الزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿[الفتح: ٢٩]﴾.

• عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةٍ فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَذْلًا فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُثُونَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ قَالَ: «لَا، مَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ»^(١).

وقد ضرب الأنصار في ذلك نموذجًا رائعًا وذلك في غزوة بني النضير عندما قالوا لرسول الله ﷺ في أموال بني النضير: أَفْسِمَ هَذِهِ فِيهِمْ وَأَفْسِمَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ فَتَرَلْتُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿[الحشر: ٩]﴾. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ: جَزَاكُمُ اللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ خَيْرًا، فَوَاللَّهِ مَا مِثْلُنَا وَمِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أُرْلِقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوُطَاطَيْنِ فَرَلْتُ
أَبُو أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنْ أَمْنَا ثُلَاثِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ^(٢)

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا سَوْءَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا رَجُلٌ يُضَيِّقُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةُ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيِّقْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا تَذْخِرِيهِ

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠/١٣٠٧٥)، والترمذي في السنن (٢٤٨٧) وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان (١/٣٠)، وانظر أيضًا: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٤/٣٢٥).

شَيْئًا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَّةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيُّ الْعِشَاءَ
فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَي فَأُظْفِنِي السَّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عَدَا الرَّجُلُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ ﷻ - أَوْ صَحَّحَكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ»
فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ^(١).

هذه لوحة مضيئة على مرّ السنين. تضيء في مثل هذا العالم المادي الذي
غابت فيه كثير من هذه المعاني السامية العالية حتى بين المسلمين.

(١) رواه البخاري (٣٧٩٧).

الأمل المحمود والأمل المذموم:

(١) لقد اهتم المنهج الإسلامي العظيم باستصلاح نفوس البشر وتهذيبها الذي هو المقدمة الطبيعية لاستصلاح أعمالهم وأخلاقهم وتقويمها الذي ينتج عنه حسن عمارتهم للحياة.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

في هذه الآية الكريمة المزاجية البديعة بين حسن العبادة والدعاء، وعدم الإفساد في الأرض.

ولأهل التفسير في معنى قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ اتجاهات:

الأول: أن الله أصلح الأرض أي أهل الأرض ببعثة الأنبياء والمرسلين وشرع الشرائع المحكمة وأنزل الكتب. فنهى الله بعد ذلك عن الإفساد في الأرض بهجر شرائع المرسلين ﷺ، والإعراض عن سنن النبيين ﷺ.

قال الإمام التابعي أبو صالح وهو ذكوان السمان: «بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم»^(١).

وقال الإمام أبو بكر بن عياش: «أصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٠٠)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٤٧٦-٤٧٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٠١)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٤٧٦-٤٧٧).

والاتجاه الثاني: أن الآية نهى عن عموم الفساد والإفساد في الأرض أيًا كان. سواء أكان إفسادًا للدين أو للأخلاق أو للنبات أو للمياه أو لأي شيء ينتج منه ضرر وفساد على الناس.

وهذا معنى صحيح. فقد هيا الله تعالى الأرض بما فيها صالحة لمعاش العباد. وخيرهم وأرزاقهم. ولأنه تعالى يعلم أن إفساد ذلك كله لا يكون إلا بفعل من الإنسان نفسه عندما تفسد أخلاقه وأعماله، بعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع لتخرج الإنسان الصالح في نفسه المصلح لكل فساد. وهذا يسوق إلى مسألة الحفاظ على المال العام والممتلكات العامة من العبث والاختلاس والسرقة. والإفساد.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى عَنْ كُلِّ فَسَادٍ قَلًّا أَوْ كَثْرًا بَعْدَ صَلَاحٍ قَلًّا أَوْ كَثْرًا. فَهُوَ عَلَى الْعُمُومِ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَعْنَاهُ لَا تَغُورُوا الْمَاءَ الْمَعِينِ، وَلَا تَقْطَعُوا الشَّجَرَ الْمُثْمِرَ ضِرَارًا. وَقَدْ وَرَدَ: قَطَعَ الدَّنَائِرَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَقَدْ قِيلَ: تِجَارَةُ الْحُكَّامِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: الْمُرَادُ وَلَا تُشْرِكُوا، فَهُوَ نَهْيٌ عَنِ الشَّرِكِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَالْهَرْجِ فِي الْأَرْضِ، وَأَمْرٌ بِلُزُومِ الشَّرَائِعِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللَّهُ بِرِغْبِهِ الرُّسُلَ، وَتَقْرِيرِ الشَّرَائِعِ وَوُضُوحِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَصَدَ إِلَى أَكْبَرِ فَسَادٍ بَعْدَ أَعْظَمِ صَلَاحٍ فَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يُنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ، ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ أَضَرُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ. فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/١٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٦).

(٢) الإنسان كائن متحرك بالإرادة فلا بد له من إرادات واهتمامات ورغبات تتعلق بها نفسه، وتطمح إلى نيلها والظفر بها.

ثم لابد له من كد وحرث وعمل ليحقق رغبته وليصل إلى ما يتمناه. وأجمل وصف للإنسان في هذا الجانب هو وصف خالقه العظيم جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال الحسن البصري رحمته الله: «لا أعلم أحدا من خلق الله يكابد من الأمر ما يكابده هذا الإنسان»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَامٌ»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ الْحَارِثُ وَهَمَامٌ» فَالْحَارِثُ الْكَاسِبُ الْعَامِلُ، وَالْهَمَامُ الْكَثِيرُ الْهَمِّ، وَالْهَمُّ مَبْدَأُ الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ حَارِثٌ هَمَامٌ، وَهُوَ الْمُتَحَرِّكُ بِالْإِرَادَةِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْحِسِّ وَالشُّعُورِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ مَسْبُوقَةٌ بِالشُّعُورِ بِالْمُرَادِ، فَلَا يَتَصَوَّرُ إِرَادَةً وَلَا حُبًّا وَلَا شَوْقًا وَلَا اخْتِيَارًا وَلَا طَلَبًا إِلَّا بَعْدَ الشُّعُورِ، وَمَا هُوَ مِنْ جَنْبِهِ، كَالْحِسِّ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ وَنَحْوِ هَذِهِ الْأُمُورِ. فَهَذَا الْإِدْرَاكُ وَالشُّعُورُ هُوَ مُقَدِّمَةٌ الْإِرَادَةِ وَالْحُبِّ وَالطَّلَبِ»^(٣).

(١) تفسير السمعاني (٢٢٦/٦)، وانظر: الدر المنثور (٥٢٠/٨).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٤/٤)، وأحمد في المسند (٣٤٥/٤) من حديث أبي وهب الجشمي رحمته الله.

(٣) منهاج السنة (٦٣/٣-٦٤).

(٣) وإن أعظم ما يدمر الإنسان ويحوّله إلى معقل بطل، أو شرير عدواني أو منحرف شاذ: هو الإحباط واليأس والقنوط.

فهذا هو الداء العضال الذي يدمر الحياة ويجعل الضياء ظلامًا، والخير شرًا، وهو الذي يخرج أفواجًا من العاطلين اليائسين الذين يتحولون إلى مجرمين محترفين أو مرضى نفسانيين.

لذلك كان زرع الأمل والطموح والنظر المستمر إلى الأمام، وعدم الاستسلام للحوادث هو أحد سمات المنهج الإسلامي العظيم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَمَيِّدْ أَلَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم قال بعد أن فتح باب الأمل والرجاء على مصراعيه: ﴿وَأَنْبِئُوا إِيَّاكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٥].

فانظر كيف فتح باب الرجاء والأمل كله. ثم طالبهم بعد بالعمل والإنابة والإسلام والاتباع. لعلمه تعالى بما يبعثه الأمل والرجاء من نشاط في النفس البشرية. وطموح ورغبة أكيدة في العمل والتوبة والإنابة وتصحيح ما فات مهما كان.

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمته الله: «اختلف أهل التأويل في الذين عُتُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها قوم من أهل الشرك، قالوا لما دعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزينا، وقتلنا النفس التي حرم الله، والله بعد

فاعل ذلك النار، فما يتفعلن مع ما قد سلف منا الإيمان، فنزلت هذه الآية^(١).

ثم روى ذلك مسندًا عن ابن عباس رضي الله عنه.

وروى عن قتادة قال: «ذكر لنا أن أناسا أصابوا ذنوبا عظاما في الجاهلية،

فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يتاب عليهم، فدعاهم الله بهذه الآية^(٢).

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَّ نَاسًا، مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ كَانُوا

قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ

وَتَدْعُو إِلَيْهِ لِحَسَنٍ، لَوْ تُخَيِّرْنَا أَنْ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٣).

ولكن ها هنا مفترق طريق. لأن الأمل يتفرع إلى نوعين اثنين:

الأمل المحمود، والأمل المذموم.

● أما المحمود: فهو الذي يفتح للإنسان باب الرجاء والخير. ويقنعه بأنه

بإمكانه استدراك ما فات مهما كان، وتصحيح ما حصل من خلل مهما عظم.

هذا الأمل هو الحياة. وهو الذي يفجر مكامن الخير. وفعل الإحسان.

والإنتاج الصالح النافع في الإنسان. ولو لم يبق من حياته إلا نزر قليل فإنه

يستطيع أن يصحح فيه ما سلف في العمر الطويل.

أَعْلَلَ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَزْقَبَهَا مَا أَضَيَّقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ^(٤)

(١) تفسير الطبري (١٤/١١).

(٢) المصدر السابق (١١/١٥).

(٣) حديث رقم (٤٨١٠).

(٤) البيت لمؤيد الدين الطغراني، وهو من البحر البسيط، انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٤٢/٢)، وجواهر الأدب (٤٤١/٢)، وهو من اللامية المشهورة بلامية العجم وأولها:

إنه لا أنفع للنفس الإنسانية لانتشالها من أحوال الجريمة، وظلمات الشر المتراكمة، إلا فتح باب الأمل والرجاء والخير لها، ولو بقي من حياتها لحظة. وهذا ما تميز به المنهج الإسلامي العظيم.

وما أجمل ما قاله الحبر ابن عباس رضي الله عنه: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ومن زعم أن المسيح ابن الله ومن زعم أن عزيرًا ابن الله ومن زعم أن الله فقير ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولًا وأشد كفرًا من هؤلاء من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات ٢٤] وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصاص: ٣٨] قال ابن عباس رضي الله عنه: من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه^(١).

واسمع إلى هذه القصة المعبرة. والموعظة المؤثرة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ نِسْفَةَ وَنَسَمِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدَلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ نِسْفَةَ وَنَسَمِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدَلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ بِهَا أَنْاسًا يَغْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٣٠٦/٢١)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٢٣٨/٧).

تَأْتِيًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَانَهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيْتِهِمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»، وفي رواية: «فَغُفِرَ لَهُ»^(١).

هذا حديث عجيب. ولا يوجد في فتح باب الأمل والرجاء والخير مثله ولو في آخر لحظة، ثم إن النبي ﷺ لم يذكر لنا هذا الخبر عمّن كان قبلنا لنجعلهُ سمراً، ولا لتتخذ آيات الله وعِبره وسعة رحمته هزواً. فمن ثَمَّ نأخذ من هذا الحديث هذه الفوائد الثمينة:

إن نوازع الخير تبقى أصولها في النفس البشرية تنبض بشيء من الحياة، مهما ران عليها من ظلمات الجريمة، وأوضار الآثام فانظر إلى هذا الرجل الذي:

(أ) ارتكب هذه الجرائم العظيمة كلها، فقتل تسعة وتسعين نفساً عدواناً وظلماً، ومع ذلك بقيت أصول الندم والرغبة في التصحيح والاستدراك تنازعه، وتحركه فصار يسأل، عمن يفتح له باب الأمل لعله يحيى من جديد.

(ب) انظر كيف أن قتل بارقة الأمل والرجاء في النفس الإنسانية يحول الإنسان إلى مجرم محترف، فلما سأل الراهب الأول فأفتاه بأن لا توبة له أغلق في وجهه باب المراجعة والتصحيح وأراد أن يطفئ بفتواه الخاطئة بارقة الأمل، فتتج من ذلك أن قتله هو الآخر وأكمل به سجل جرائمه العظيمة، وإنه وإن كان قتل تسعة وتسعين نفساً قبل بدافع من الجريمة والعدوان ونحوها فإنه قتل هذا بدافع الحقد والكراهية والضغينة.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

قال الحافظ ابن حجر: «وإنه إنما قتله بناء على العمل بفتواه؛ لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له فيئس من الرحمة فقتله»^(١).

ج) قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «وفيه فضل العالم على العابد لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من اجترائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة، قال عياض: وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب»^(٢).

● أما الأمل المذموم: فهو نوع من الأمانى الفارغة والرغبات الجانحة والخيالات غير الواقعة، وتمني ما لا يكون، وانتظار ما لا يحصل، فإن هذا يحول الإنسان إلى أناني فردي خيالي.

ولهذا ذم القرآن الكريم هذا النوع من الأمل وسماه غرورًا.

قال الله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢-٣].

افتتح الله تعالى سورة الحجر بهذا الخطاب بعد مطلع السورة: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُوا أَلَيْسَ الْأَمَلُ مُبِينًا﴾ [الحجر: ١].

فأخبر تعالى أن الأمل المذموم الذي هو سراب بقية يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاء لم يجده شيئاً، فسوف يعلمون حين يرون العذاب يوم القيامة أنهم كانوا في غرور وخداع لأنفسهم فيتمنون لو أنهم كانوا في الدنيا مسلمين مؤمنين لا لاهين مغرورين. لينجوا من عذاب الله الأليم. ولات حين مناص ولا ندم.

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٨٠).

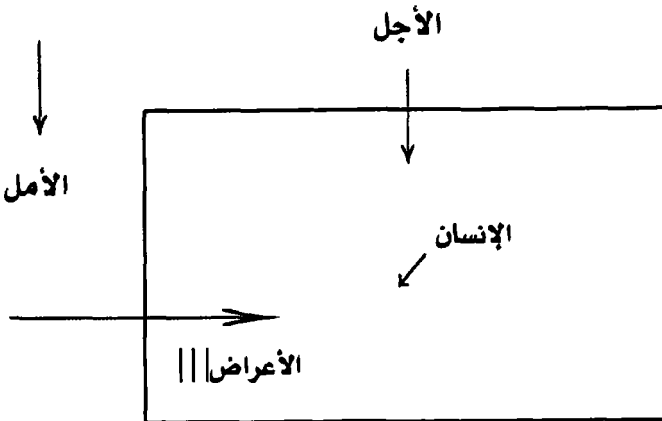
(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٨٠).

ولعظيم أهمية التنبيه إلى عدم الانخداع بالأمل المذموم الذي هو أمني لا طائل منها. ولا محصل لها. نبه عليه النبي ﷺ بالرسم التوضيحي ليكرس التنبيه في نفوس المتلقين لخطابه المبارك مستثيراً كل أجهزة الاستقبال والفهم لديهم من أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم لعلهم يتنبهون ويتذكرون.

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب في الأمل وطوله.

وأخرج حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»^(١).

ما رسمه النبي ﷺ هكذا



فالإنسان نقطة ضئيلة يحيط به أقدار الله تعالى من كل ناحية، وأجله المحتوم ونهايته المؤكدة تنتظره عند نقطة معينة حددها خالقه تعالى. لا يزداد فيها ولا ينقص منها، ولكن آماله الواسعة وأمانيه الفارغة تجاوزت كل هذه الحدود. فانقلبت إلى نوع من الأمانى الخيالية التي يلطمها ويصدمها واقع حقيقي وقضاء تقديري من رب العالمين.

يقول النبي ﷺ: «لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ»^(١).

قال القاضي عياض رحمه الله: «هذا الحديث فيه من المطابقة وبديع الكلام الغاية وذلك أن الشيخ من شأنه أن تكون آماله وحرصه على الدنيا قد بليت على بلاء جسمه إذا انقضى عمره ولم يبق له إلا انتظار الموت فلما كان الأمر بضده ذم»^(٢).

وهذا هو حال أكثر الناس في هذا العالم تشبههم بالحياة كبير وآمالهم بعيدة وغير واقعية وقد ضرب لنا القرآن العظيم نماذج من هؤلاء.

النموذج الأول «اليهود»: هم أكثر الخلق تشبهاً بالحياة وانقطاعاً لها ورضاً بها وحرصاً عليها، على أي وضع كانت وعلى أي حال حصلت، فانقلبت حياة اليهود إلى حياة مادية مقيته، وحول النفسية اليهودية إلى نفسية شرهة للمال هلوعة جزوعة متنوعة عدوانية أنانية شريرة خبيثة، لا هم لها إلا تحقيق مراداتها ورغباتها ولو على حساب الآخرين.

يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَنَجْذِئَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِيكَ أَشْرَكُوا﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٠).

(٢) انظر: فتح الباري (١٧/٢٤).

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّجِهِ، مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٩٦﴾.

فكشف الله تعالى في هذه الآية حقيقة النفسية اليهودية المادية التي وقعت في الأمل المذموم الذي تجاوز كل حدود المعقول والممكن بحكم الناموس الكوني للحياة الذي قدره خالق العالم جل وعلا.

فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ﴾ بصيغة الخبر المؤكد بكل أدوات التوكيد من واو القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة بصيغة الاستقبال، ليبين أن هذا هو وصف اليهود في الماضي والحاضر، وسيبقى كذلك في المستقبل فلا تجد يهوديًا إلا وهو على هذه الصفة ﴿أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾.

وهذه الآية جاءت بعد تلك الآية التي تحدى الله فيها اليهود أن يتمنوا الموت، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

فاليهود طول تاريخهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن الإله «يهوه» أحبهم واصطفاهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه. فالله يقول لهم في هذه الآية إن كان ذلك كذلك وأنتم صادقون في هذا الزعم فلماذا لا تتمنون الموت لتصيروا إلى ربكم الذي اختاركم على العالمين. وإلهكم الذي أحبكم دون الناس.

ثم أخبر بالنتيجة سلفًا. ليبقى ذلك كشفًا مستمرًا لهذه النفسية اليهودية المادية. لا يستطيعون أن يخالفوها ولو مرة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥].

ثم تأمل كلمة (حياة) فهي نكرة، والنكرة نفيد العموم. فهم حريصون على حياة أيًا كان نوع هذه الحياة ولو كانت منحطة وقذرة وشريرة فهم عليها

حريصون وبها راغبون وبها يتشبثون.

وهذا الحرص الشديد على حياة وهذا الأمل الذي بلغ بهم أن يود أحدهم لو قد عاش في الدنيا ألف سنة من الزمان على معرفة كل عاقل أن هذا لا يكون أبداً.

النموذج الثاني: المنافق.

لما كان المنافق صاحب شخصية مزدوجة، يتناقض ظاهره مع باطنه استطاع لشدة تمرسه على النفاق أن يعيش بشخصيتين متناقضتين، وصارت أدواته التي يمنهج بها حياته وتصرفاته هي الكذب، والخداع، والالتواء، والمكر، والمراوغة. لأن هذا في تصويره ربما حقق له مكاسب، وأوصله إلى مآرب، فيقع في الأمل الكاذب.

وقد كشف الله تعالى علام الأسرار، هذه النفسية الإلتوائية، والشخصية المزدوجة في حق هؤلاء المنافقين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَذْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَهْدِ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِحَبْلِهِمْ وَقَلَّةٌ عَلَيْهِمْ وَعَقْلِهِمْ، يَنْتَقِدُونَ أَنْ أَمَرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنْ أَمَرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى... ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيَخْدُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤٢).

وقوله تعالى: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، تدل على مدى القلق والاضطراب في نفسية وشخصية المنافقين، لذلك كانت أدوات الكذب المستمر والخداع المتناهي. قال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١).

ولذلك تنصهر هذه الأخلاق القبيحة فتحول النفس التي انصبغت بها إلى نفس مظلمة وملتوية لا يصدر عنها إلا الأذى والشر.

ولذلك كشف هذه النتيجة الحتمية لهذه النفسية الإلتوائية: رسول الله ﷺ إذ قال: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ»^(٢).

فتمحصر فيه النفعية الذاتية وتستولي عليه الأنانية ويرجع إلى أصل جبلته البشرية. فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا كُلَّ حَلَالٍ مِثْلِهِ ۚ هَٰذَا مِثْلُ مَثَلٍ ۚ زَيْبِ ۚ ۝ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَذِرٌ بِأَنْبِيَاءِ ۚ عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِ ۚ ۝ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۚ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ ۝ سَنَسِفُهُ عَلَى الْمُرْثُورِ ۚ [القلم: ١٠-١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ذَكَرَ أَرْبَعَ آيَاتٍ، كُلُّ آيَةٍ جَمَعَتْ نَوْعًا مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ الْمَذْمُومَةِ وَجَمَعَ فِي كُلِّ آيَةٍ بَيْنَ النَّوعِ الْمُتَشَابِهِ خَبْرًا وَطَلَبًا فَالْحَلَّافُ مَقْرُونٌ بِالْمَهْمِ؛ لِأَنَّ الْحَلَّافَ هُوَ كَثِيرُ الْحَلْفِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الطَّلَبِ، فَهُوَ إِمَّا تَصْدِيقٌ أَوْ تَكْذِيبٌ أَوْ حَضُّ أَوْ مَنَعٌ؛ ... وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الْحَلْفِ كَانَ كَثِيرَ الْكُذْبِ فِي الْعَهْدِ مُخْتَاجًا إِلَى النَّاسِ، فَهُوَ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٨).

﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ حَلَّافٌ فِي أَقْوَالِهِ. مَهِينٌ فِي أَفْعَالِهِ. وَأَمَّا الِهْمَّازُ الْمَشَاءُ بِنَمِيمٍ: فَالْهَمَزُ أَقْوَى مِنَ اللَّمَزِ وَأَشَدُّ... وَالْفَعَّالُ: مُبَالِغَةٌ فِي الْفَاعِلِ. فَالِهْمَّازُ الْمُبَالِغُ فِي الْعَيْبِ نَوْعًا وَقَدْرًا... وَالْمَشَاءُ بِنَمِيمٍ هُوَ مِنَ الْعَيْبِ؛ وَلَكِنَّهُ عَيْبٌ فِي الْفَقَا، فَهُوَ عَيْبُ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ... وَأَمَّا ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْبٍ﴾ فَإِنَّ الظُّلْمَ نَوْعَانِ: تَرَكُ الْوَاجِبِ وَهُوَ مَنَعُ الْخَيْرِ، وَتَعَدُّ عَلَى الْغَيْرِ وَهُوَ الْمُعْتَدِي... وَأَمَّا الْعُتْلُ الرَّزِيمُ: فَهُوَ الْجَبَّارُ الْفُظُّ الْغَلِيظُ الَّذِي قَدْ صَارَ مِنْ شِدَّةِ تَجَرُّبِهِ وَغِلَظِهِ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ، مَشْهُورًا بِهِ... وَيُسَبِّهُ -وَاللَّهِ أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ الْحَلَّافُ الْمَهِينُ الِهْمَّازُ الْمَشَاءُ بِنَمِيمٍ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فِي الْأَقْوَالِ، وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْأَفْعَالِ. وَالْمَنَاعُ الْمُعْتَدِي الْأَيْمُ الْعُتْلُ الرَّزِيمُ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ فِي الْأَفْعَالِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْأَقْوَالِ. فَالْأَوَّلُ الْغَالِبُ عَلَى جَانِبِ الْأَعْرَاضِ وَالثَّانِي الْغَالِبُ عَلَى جَانِبِ الْحَقُوقِ فِي الْأَحْوَالِ وَالْمَنَافِعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَسِيئُ عَلَى الْمُتَطَوِّلِينَ﴾ فِيهِ إِطْلَاقٌ يَتَضَمَّنُ الْوَسْمَ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الدُّنْيَا أَيْضًا. فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلصَّالِحِينَ سِيْمًا، وَجَعَلَ لِلْفَاجِرِينَ سِيْمًا... فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسِيْمَ صَاحِبَ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْخَبِيثَةِ عَلَى خُرُطُومِهِ وَهُوَ أَنْفُهُ الَّذِي هُوَ غُضُوهُ الْبَارِزُ، الَّذِي يَسْبِقُ الْبَصَرَ إِلَيْهِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِ؛ لِتَكُونَ السِّيْمَا ظَاهِرَةً، مِنْ أَوَّلِ مَا يَرَى وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْفَجْرَةِ الظَّلَمَةِ الَّذِينَ وَدَّعَهُمُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ وَفُحْشِيهِمْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ سِيْمًا مِنْ شَرِّ يُعْرِفُونَ بِهَا. وَكَذَلِكَ الْفَسَقَةُ وَأَهْلُ الرَّيْبِ^(١).

وهذه الأخلاقيات النفعية تقود المنافق إلى الوقوع في خداع نفسه بنفسه، فيمني نفسه ما لا يكون، ويستصحب هذه الإلتوائية والحلف والكذب حتى يبعث بها يوم القيامة. ورغم معانيته الأهوال العظيمة. والفرع الأكبر إلا أنه يظل

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٦٦-٦٩) باختصار.

تعلقًا بما لا يكون أنه سيروج أمره ومكره وكذبه على الله رب العالمين .
مستخدمًا مع ربه تعالى علام الغيوب نفس تلك الأدوات التي اصطبغ بها في
الدنيا: حلاف مهين . كذاب . مخادع .

وقد كشف لنا ربنا تعالى هذا الأمر بجلاء فقال تعالى عنهم :

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ
الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: ١٨-١٩] .

قال الزمخشري رحمه الله: «ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى
عليكم السرائر، وأن لهم نفعًا في ذلك دفعًا عن أرواحهم واستجرار فوائد
دنيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون، ولكن
العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم
ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونتهم عليه، وأن
ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل»^(١) .

المال في الشرع الإلهي:

المال هو وسيلة الحياة، والقرآن الكريم يقرر شدة تعلق الإنسان بالمال. لشعوره المستمر بحاجته الدائمة إليه، فبه تقوم حياته، وتضان كرامته، وتعلق رغبته.

قال الرازي في بيان ماهية المال: «المال شيء ينتفع به نوع الإنسان ويحتاج إليه»^(١).

قال تعالى في بيان شدة تعلق النوع الإنساني بالمال: ﴿وَأَنْتُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

فسر العلماء الخير هنا بالمال والدنيا.

وقال الإمام الطبري رحمته الله: «إن الإنسان لحب المال لشديد»^(٢).

قال القرطبي: «ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾، أي: مالا، قال عدي: ماذا تُرجي النفوس من طلب الخير وحُب الحياة كاربها»^(٣).

وقال تعالى أيضًا في كشف النفسية البشرية المتعلقة هلعًا وجزعًا بالمال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩-٢٠].

قال مجاهد: «أكلًا لَمًّا: اللَمُّ، السفّ يلفّ كل شيء»^(٤).

وقال ابن زيد: «الأكل اللَمُّ، الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل، فيأكل

(١) التفسير الكبير (٩/١٩٠).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٦٧٣).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/١١٠).

(٤) الطبري (١٢/٥٧٤).

الذي له والذي لصاحبه، وكانوا لا يورثون النساء والصغار ... يأكل ميراثه وكل شيء لا يسأل عنه ولا يدرى أحلال هو أم حرام»^(١).
وقال الإمام الطبري: «وتحبون جمع المال أيها الناس، واقتناه حبًا كثيرًا شديدًا»^(٢).

هذا هو الإنسان في حقيقته. لذا فإن المال والربح، والعوامل الاقتصادية ونهب ثروات الشعوب الطبيعية. هي مثار الحروب والغارات والإحـن والعداوات على طول تاريخ البشرية اللاحـب الطويل.

من أول يوم دبت فيه حياة البشر على هذه الأرض، ارتكبت أول جريمة قتل في تاريخ البشر، وسببها نشوء الحقد والحسد بسبب المال. فنشأت العداوة وحصل القتل بين ابني آدم الأولين.

ولم تكن الأرض كلها على رحابتها تسع غيرهما، فضاقت بأحدهما الأرض بما رحبت، بسبب ضيق نفسه وسماحه لعوامل الغيرة والحقد والحسد أن تدب في نفسه وتعمل عملها في قلبه، فثارات كوامن في أعماق النفس البشرية فاسدة وانقـدح شرار الشر والحقد الأعمى، نتج عنه أنه استسهل قتل أخيه وشقيقه فقتله. وهو بذلك يفتح الباب على مصراعيه. للعداوات والإحـن، ويدل البشر على تعلم صناعة العداوة والقتل إذ كان هو معلمها الأول.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ لَئِن بَسَطَ إِلَهُ يَدَكَ لِيَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) الطبري (١٢/٥٧٥).

(٢) الطبري (١٢/٥٧٥).

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٣﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢-٣٧].

وثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا»^(١).
يقوم التقرير الإسلامي للمال ووظيفته في الحياة ومدى علاقة الإنسان به على عدة محاور:

الأول: يقرر القرآن الكريم أن الأرض والسموات العلى وما عليهما وما فيهما وما بينهما، والإنسان وما يملك وما بيده. كله ملكٌ لله الخالق العظيم، وأن الله استودع الإنسان في هذه الأرض واستخلفه على منافعها، وسخر له ما فيها وما عليها. وأشبع فطرة التملك، والانتفاع لدى الإنسان، وحثه على السعي في مناكب الأرض والتماس الرزق.

قال تعالى في سورة «فصلت»: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِيَسْأَلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

قال الإمام الطبري رحمته الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (٣٣٣٥).

اللّه تعالى أخبر أنه قدّر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش . . . ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتصرّف في البلاد لما خصّ به بعضا دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المأكّل والحليّ، ولا قول في ذلك أصح مما قال جلّ ثناؤه: قدّر في الأرض أقوات أهلها، لما وصفنا من العلة^(١).

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِلَّسَّالِينَ﴾ أي جعل المنافع التي في الأرض مباحة ومتاحة للطلابين لها، الباحثين عنها، الساعين لها.

قال الطبري رحمه الله: «وذلك أن معنى الكلام: وقدّر فيها أقواتها سواء لسائليها على ما بهم إليه الحاجة وعلى ما يصلحهم»^(٢).

ونقل هذا المعنى عن ابن زيد من أئمة التفسير.

وتتمة هذا المعنى في قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ذلولاً: أي سهلة مذلّة ممهدة، ومناكبها: أطرافها ونواحيها وفجاجها وسبلها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَةً سَاجِنَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرِبُ بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ، وَأَنْبَعٍ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ، وَهِيَ فِيهَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالْثَمَارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا

(١) تفسير الطبري (٩٠/١١).

(٢) تفسير الطبري (٩١/١١).

فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبَ ﴿١﴾ أَيْ: فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا، وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَزْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْعِدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا، إِلَّا أَنْ يُسَرَّهُ اللَّهُ لَكُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ فَالْسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ ﴿١﴾.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

هذا من القرآن المدني؛ لأن البقرة مدنية باتفاق.

وهذا المعنى جاء أيضًا قبل في القرآن المكي فقال تعالى في الجاثية وهي مكية باتفاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ يَأْتِيهِمُ الْغُلُوبُ وَلِتُنَبِّئُوهُمْ فِي قُدْرِهِمْ وَقَلْعُهُمْ تَنْكُرُونَ ﴿٧﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

بين الآيتين اتفاق وافتراق:

• فآية البقرة خص الحديث فيها عن منافع الأرض خاصة، بينما في آية الجاثية تعميم ذلك على منافع ما في السموات والأرض جميعًا.

• واتفقت الآيتان الكريمتان على كلمة: «جميعًا» وزادت آية الجاثية كلمة: «منه»، ولذلك سر. وهو أن آية البقرة ذكر الله فيها أنه خلق ما في الأرض جميعًا. فلا داعي لكلمة منه؛ لأنه لا خالق غيره، وأما آية الجاثية فذكر تعالى فيها: أنه سخر: أي أخرج منافع ما في السموات والأرض لمصالح العباد شيئًا فشيئًا، وجبلاً بعد جيل. فناسب أن يأتي بكلمة «منه»، لتأكيد أن النعمة منحة منه

تعالى وتذكير العباد بآلانه . ليحمدوه عليها ويعبدوه بها .

وقد يقال: إن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ . وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ ، فيه دليل صحيح لأصحاب المذاهب الإباحية قديماً وللشيوعيين وأصحاب المذاهب الاشتراكية حديثاً .
 ووجه الدليل لهم من ذلك: أنه تعالى خلق الكلّ للكلّ، فلا يكون لأحد اختصاص بشيء أصلاً؛ لأنه قابل الكل بالكل وذلك يقضي على الملكية الخاصة . ومقابلة الفرد بالفرد .

وهذا بعيد، ولا متمسك لهم في هذا المعنى من قريب ولا بعيد . وذلك من وجوه:
 الوجه الأول: أن (لكم) في آية البقرة اتصلت بقوله: (خلق) وذلك قبل وجود البشر وإنما وجودهم في علمه تعالى قبل كونهم فخلق لهم المنافع والأرزاق وأودعها الأرض قبل كونهم، ولذلك جعل ذلك قبل تكوين السموات فقال: ثم ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ، وكما فصل ذلك في سورة فصلت كما في الآيات السابقة .

أما قوله تعالى: (لكم): في آية الجاثية فاتصلت بقوله: (سخر) وذلك بعد وجود البشر فيكون المعنى أن الله يخرج للعباد من الأرض وينزل لهم من السماء الرزق بقدر حاجتهم جيلاً بعد جيل، ورعيلاً بعد رعيلاً .

ومن جميل المناسبات القرآنية أنه في جميع القرآن الكريم يخبر تعالى أنه أنزل من السماء ماءً لإحياء الأرض بعد موتها، وسقيا العباد والبهائم . إلا في سورة الجاثية التي فيها الآية السابقة فإنه أخبر أنه أنزل من السماء «رزقاً»، فقال تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥] .

الوجه الثاني: أن اللام في قوله: (لكم) يحتمل أن تكون:

• للسبب أي لأجلكم ولمنافعكم: وهذا قول الطبري رحمته الله، قال: «فأخبرهم تعالى أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً؛ لأن الأرض وجميع ما فيها لبني آدم منافع، أما في الدين فدليل على وحدانية ربهم، وما في الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه»^(١).

ونقل السيوطي في الدر المنثور هذا المعنى عن قتادة، قال: «سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله ونعمة لابن آدم متاعاً وبلغة ومنفعة إلى أجل»^(٢).

• ويحتمل أن تكون اللام في قوله: (لكم) للاعتبار وأخذ العظة.

قال ابن عطية الأندلسي: «لكم معناه الاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها»^(٣).

وهذا اختيار القرطبي رحمته الله قال: «الثالثة- الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الْإِغْتِيَارُ، يُدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ نَصْبِ الْعِبَرِ: الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَالْخَلْقُ وَالْإِسْتِوَاءُ إِلَى السَّمَاءِ وَتَسْوِيتِهَا، أَيْ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إِحْيَائِكُمْ وَخَلْقِكُمْ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَبْعُدُ مِنْهُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِعَادَةِ»^(٤).

(١) تفسير الطبري (١/٢٢٧).

(٢) الدر المنثور (١/١٠٦) وعزاه لعبد بن حميد والطبري. وهو في الطبري (١/٢٢٧) مختصراً.

(٣) المحرر الوجيز (١/١٥٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٥٢).

• ويحتمل أن تكون اللام للاختصاص.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ولكم: متعلق بخلق، واللّام فيه، قيل: للسبب، أي لأجلكم ولانقائكم، وقدر بعضهم لاغتيالكم. وقيل: للتمليك والإباحة، فيكون التمليك خاصاً، وهو تمليك ما ينتفع الخلق به وتدعو الضرورة إليه. وقيل: للاختصاص، وهو أعم من التمليك، والأحسن حملها على السبب فيكون مقعولاً من أجله لأنه بما في الأرض يحصل الانتفاع الدنيوي والدنيوي»^(١).

ويظهر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنها للاختصاص، فقال رحمه الله: «فاغلم أن الأصل في جميع الأغنياء الموجودة على اختلاف أصفانها، وتباين أوصافها أن تكون حلالاً مطلقاً للأدبيين، وأن تكون ظاهرة لا يحرم عليهم ملبسها ومباشرتها ومماسستها وهذه كلمة جامعة ومقالة عامة، وقضية فاضلة عظيمة المنفعة، واسعة البركة يفرع إليها حملة الشريعة فيما لا يخص من الأعمال، وحوايد الناس، وقد دلّ عليها أدلة عشرة - مما حصرني ذكره من الشريعة - وهي: كتاب الله وسنة رسوله، وأتباع سبيل المؤمنين... ثم مسالك القياس والإغتيال ومناهج الرأي والاستنباط. الصنف الأول: الكتاب، وهو عدة آيات. الآية الأولى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ والخطاب لجميع الناس لافتح الكلام بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ووجه الدلالة أنه أخبر أنه خلق جميع ما في الأرض للناس مضافاً إليهم باللام واللّام حرف إضافة، وهي توجب اختصاص المضاف بالمضاف إليه، واستحقاقه إيّاه من الوجه الذي يصلح له، وهذا المعنى يعم موارد استعمالها.

كَقَوْلِهِمْ: الْمَالُ لِرَبِّدِ، وَالسَّرْجُ لِلدَّائِيَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَجِبُ إِذَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُمْلَكِينَ مُمَكِّنِينَ لِجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَخُصَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ وَهِيَ الْحَبَائِثُ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِفْسَادِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ أَوْ مَعَادِهِمْ فَيَبْقَى الْبَاقِي مُبَاحاً بِمُوجِبِ الْآيَةِ^(١).

وواضح من كلام شيخ الإسلام هنا أنه يتجه بالآية إلى مسألة الإباحة والحظر قبل ورود الشرع، وأن الأصل في الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها الإباحة، وأنه لا يحظر على الإنسان منها إلا ما حظره الشرع فقط.

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن اللام في قوله تعالى: (لكم) إنما هي للتعليل، وقُلِّل من الاعتماد على هذه الآية في مسألة أن الأصل في الأشياء الإباحة قبل ورود الشرع أو الحظر.

قال ﷺ: «وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ فِيمَا أَرَاهُ مُوَافَقًا لِلْبَلَاغَةِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا وَمَا فِي دَاخِلِهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ خَلَقَهُ بِقَدْرِ انْتِفَاعِنَا بِهَا وَبِمَا فِيهَا فِي مُخْتَلَفِ الْأَزْمَانِ وَالْأَحْوَالِ فَأَوْجَزَ الْكَلَامَ إِبْجَازًا بَدِيعًا بِإِقْحَامِ قَوْلِهِ: (لَكُمْ) فَأَغْنَى عَنْ جُمْلَةٍ كَثِيرَةٍ، فَالْكَلَامُ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِظْهَارِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَإِظْهَارِ عَظِيمِ الْمِنَّةِ عَلَى الْبَشَرِ، وَإِظْهَارِ عَظِيمِ مَنْزِلَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ أَوْلَيْكَ يَقْتَضِي اقْتِلَاعَ الْكُفْرِ مِنْ نَفْسِهِمْ»^(٢).

ثم قال: «وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَايِدَتَانِ:

الأولى: أَنَّ لَمْ التَّعْلِيلِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ خَلَقَ مَا فِي الْأَرْضِ كَانَ لِأَجْلِ النَّاسِ وَفِي هَذَا تَعْلِيلٌ لِلْخَلْقِ، وَبَيَانٌ لِتَمَرَّتِهِ وَفَائِدَتِهِ.

(١) مجموع الفتاوى (٢١/٥٣٥-٥٣٦)، وانظر بقية كلامه على مسألة أن الأصل في الأشياء الحل قبل ورود الشرع (٢١/٥٣٨-٥٣٩-٥٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/٣٧٩).

الفائدة الثانية: أخذوا من هذه الآية أن أصل استعمالات الأشياء فيما يراد له من أنواع الاستعمال هو الإباحة حتى يدل دليل على عدمها ...
والحق أن الآية مجملة قصد منها التنبيه على قدرة الخالق بخلق ما في الأرض وأنه خلق لأجلنا، إلا أن خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله في كل ما يقصد منه؛ بل خلق لنا في الجملة، على أن الامتنان بصدق إذا كان لكل من الناس بعض مما في العالم بمعنى أن الآية ذكرت أن المجموع للمجموع لا كل أحد لكل أحد ... لا سيما وقد خاطب الله بها قوماً كافرين منكراً عليهم كفرهم، فكيف يعلمون إباحة أو منعا؟ وإنما محل الموعظة هو ما خلقه الله من الأشياء التي لم يزل الناس يتفكرون بها من وجوه متعددة^(١).

المحور الثاني:

أن نسبة ملك الإنسان للمال إنما هي على سبيل الاستخلاف له على المال من الله المالك الحق، ومنحه الله حق تصريف المال في المنافع المخولة له في خاصته وفيمن يعولهم مباشرة وأيضاً في عمارة الأرض وبناء المجتمع.
وردت كلمة «مال» في النصوص الشرعية مرات كثيرة جداً، وفيها تضاف الأموال إلى أهلها أفراد أو جماعات إضافة لفظية ومعنوية.

فبعد أن قرر القرآن الكريم أن المال مال الله تعالى، قال الله تعالى:

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ مَالٍ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٣١١٨)، وأحمد (٦/ ٣٦٤).

قرر الله تعالى استخلاف البشر على هذا المال الذي هو ملك حقيقي له تعالى، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

يقرر الإمام القرطبي المعني فيقول: «قوله ﴿وَمِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْمُلْكِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا التَّصَرُّفُ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ فَيُثَبِّتُهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْجَنَّةِ. فَمَنْ أَنْفَقَ مِنْهَا فِي حُقُوقِ اللَّهِ وَهَانَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ مِنْهَا، كَمَا يَهْوَى عَلَى الرَّجُلِ، التَّفَقُّةُ مِنْ مَالٍ غَيْرِهِ إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، كَانَ لَهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ﴾ بِوَرَائِكُمْ إِيَّاهُ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَمْوَالِكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا أَنْتُمْ فِيهَا إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الثَّوَابِ وَالْوُكْلَاءِ، فَاعْتَنِمُوا الْفُرْصَةَ فِيهَا بِإِقَامَةِ الْحَقِّ قَبْلَ أَنْ تُرَالَ عَنْكُمْ إِلَى مَنْ بَعْدَكُمْ»^(١).

وجه الله تعالى إلى أن نستفيد من أموالنا في منافعنا وحاجاتنا. وما أباحه الله لنا من طعام وشراب ولباس وعموم المنافع.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وفي حديث أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٥٥).

تَقْمَلُونَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١).
وقال رسول الله ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»^(٢).

وأمر بالتجمل في اللباس والنعال وكثرة الطيب.
قال له رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ نُؤْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٣).
وقال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهَا عَلَيْهِ»^(٤).

وأمر الله ورسوله بالنفقة على الأهل والعيال، وادخار الرجل ما يقوته وعياله من مال ومتاع ونحو ذلك.
بَوَّبَ البخاري رحمه الله في أول كتاب النفقات فقال: باب وجوب النفقة على الأهل والعيال^(٥).

وأخرج حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ»^(٦).
وأخرج مسلم حديث ثوبان مرفوعاً: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ»^(٧).

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم (١٠١٥).

(٢) رواه أحمد (٦٦٩٥)، ورواه النسائي في الصغرى (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وعلقه البخاري في الصحيح (١٤٠/٧) مجزئاً به.

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) رواه أحمد، حديث رقم (٩٢٣٤).

(٥) فتح الباري (١٨٧/٢٠).

(٦) حديث رقم (٥٣٥٥).

(٧) أخرجه مسلم، حديث رقم (٩٩٤).

قَالَ أَبُو قَلَابَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ الْجَرَمِيِّ التَّابِعِيُّ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ: «بَدَأَ بِالْعِيَالِ، وَأَيُّ رَجُلٍ أَغْظَمَ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعْفُهُمْ أَوْ يَتَّقُهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَيُغْنِيَهُمْ»^(١).

وَبُورِ الْبَخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا فَقَالَ: بَابُ حَبْسِ الرَّجُلِ قُوَّةَ سَنَةِ عَلَى أَهْلِهِ، وَكَيْفَ نَفَقَاتِ الْعِيَالِ^(٢).

وَأَخْرَجَ حَدِيثَ مَعْمَرٍ، هُوَ ابْنُ رَاشِدٍ، قَالَ: قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ: هَلْ سَمِعْتَ فِي الرَّجُلِ يَجْمَعُ لِأَهْلِهِ قُوَّةَ سَنَتِهِمْ أَوْ بَعْضِ السَّنَةِ؟ قَالَ مَعْمَرٌ: فَلَمْ يَحْضُرْنِي، ثُمَّ ذَكَرْتُ حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَخْسِ لِأَهْلِهِ قُوَّةَ سَنَتِهِمْ»^(٣).

وَبُورِ الْبَخَارِيِّ أَيْضًا فِي كِتَابِ الْأَطْعِمَةِ مِنَ الْجَامِعِ الصَّحِيحِ فَقَالَ: بَابُ مَا كَانَ السَّلَفُ يَذْخَرُونَ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَاللَّحْمِ وَغَيْرِهِ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ وَأَسْمَاءُ: «صَنَعْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَفَرَةً»^(٤).

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ بِعِمَارَةِ الْأَرْضِ. مِنْ خِلَالِ الْعَمَلِ لِكَسْبِ الرِّزْقِ وَاسْتِصْلَاحِ الْأَرْضِ، وَالِاسْتِثْمَارِ التَّنْمُوِي النَّفْعِي، الَّذِي يَتِمُّ بِهِ ضَخُّ الْأَغْنِيَاءِ رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ فِي مَشَارِيعِ تَنْمُوِيَةٍ نَفْعِيَةٍ تَنْصُبُ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ وَاسْتِصْلَاحِ الْحَيَاةِ، وَيَتِمُّ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ تَشْغِيلُ أَعْدَادٍ مِنَ الْأَفْرَادِ الْعَاطِلِينَ. لِيَتِمَّ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ كَسْبُهُمْ لَعِيشِهِمْ مِنْ خِلَالِ عَمَلٍ مَبَاحٍ نَظِيفٍ.

(١) مسلم (٦٩١/٢).

(٢) فتح الباري (١٨٩/٢٠).

(٣) البخاري، حديث رقم (٥٣٥٧).

(٤) فتح الباري (٢٥١/٢٠).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: «قال ابن عباس: أعاشكم فيها. وقال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء ومساكن، وغرس أشجار. وقيل المعنى: ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها»^(١).
 وصرح بعض العلماء: أن الاستعمار هو طلب العمارة، والطلب من الله على الوجوب^(٢).

وهذا صحيح، وقد اعترض على هذا القاضي أبو بكر ابن العربي وقال: «لا يصح أن يقال إنه طلب من الله لعمارتها؛ فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه. ولكنه صحح أن يقال: إنه استدعى عمارتها؛ فإنه جاء بلفظ استفعل وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمر، أو طلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة»^(٣).

قال الإمام التابعي الكبير سعيد بن المسيب رحمه الله محدداً في نص رائع وظائف المال في هذه الحياة للمسلم، راداً على الذين يمنعون من كسب المال. وعمارة الحياة بدعوى الزهد والورع وهجر الحياة الدنيا.

قال رحمه الله: «لا خير فيمن لا يحب المال: يعبد به ربه، ويؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق»^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٨/٩).

(٢) أحكام القرآن؛ لابن العربي (١٠٥٩/٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٤)، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (١٠٤)، وأبونعيم في الحلية (١٧٣/٢).

وكلام الإمام سعيد مأخوذ من كلام رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

فعن عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمْرُو اشْدُدْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، وَيَتَابَكَ، وَأَتَيْتَنِي فَفَعَلْتُ فَجِئْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ الْبَصَرَ وَصَوَّبَهُ، وَقَالَ: «يَا عَمْرُو، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ وَجْهًا، فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعِبَ لَكَ مِنَ الْمَالِ زَعْبَةً صَالِحَةً»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ أَسْلِمِ رَغْبَةً فِي الْمَالِ، إِنَّمَا أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ، وَالْكَثْبَةِ مَعَكَ، قَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحِ، لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١).

وقوله فيه: أَزْعَبَ لَكَ زَعْبَةً مِنَ الْمَالِ. قال الأصمعي رحمه الله: أي أعطيك دفعة من المال، والزعب: الدفع^(٢).

وقوله نِعْمًا: بتشديد الميم، وقوله: بِالْمَالِ، الباء زائدة، قاله ابن جني وغيره. فالمال الصالح المستفاد من أوجه الكسب الحلال، ممدوح مرغوب فيه مطلوب كسبه والحصول عليه، للرجل المسلم العاقل الصالح الذي يعبد ربه بهذا المال ويستعين به على مطالب الحياة، ويعف نفسه عن الآخرين، ويسخره في أوجه الخير والإنفاق واستصلاح الحياة وعمارة الأرض بالخير والنماء، وإنما يدخل البلاء على الإنسان وعلى المجتمع المسلم من ناحية المكاسب المحرمة والتطلع بالبغي والكذب والخداع إلى أموال الناس فضيق موارد الخير في النفس وتتوسع مدارك الأشر والبطر والشره والهلع والجزع والطمع.

وقد قال الله تعالى في غير ما آية من كتابه العزيز محذراً من ذلك: ﴿وَمَنْ يُوقَ

(١) أخرجه أحمد في المسند بسند صحيح (١٩٧/٤، ٢٠٢)، وابن حبان (٢٢٧٧).

(٢) انظر: شرح السنة؛ للبغوي (٩١/١٠).

شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي رحمه الله: «وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ جُعِلَ الشُّحُّ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُعَدٌّ فِي مَكَانٍ، وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ وَسَيِّقَتْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِ، وَأُخْضِرَ الشُّحُّ الْأَنْفُسَ فَيَكُونُ مُسَوِّقًا إِلَى الْأَنْفُسِ، بَلِ الْأَنْفُسُ سَيِّقَتْ إِلَيْهِ لِكُونِ الشُّحِّ مَجْبُورًا عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَمَرْكُورًا فِي طَبِيعَتِهِ»^(١).

وقال الزمخشري: «ومعنى إحضار النفس الشح: أن الشح جعل حاجزًا لها لا يغيب عنها أبدًا ولا تنفك عنه»^(٢).

وهذا الشح هو الذي يفرز النفوس المريضة، المنافقة، الباغية، العدوانية، الظالمة، الأنانية، التي تسيطر عليها الفردية المقيتة فلا ترى إلا نفسها ولا تعمل إلا لمصلحتها الخاصة فقط.

قال تعالى في كشف هذا الإلتوائية المقيتة، في النفوس الشحيحة: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَا أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمَرُوا فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

فبدأ الآية بقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وختمها بقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾.

فهذه جريمة مزدوجة، وانعكاسية نفسية على الأفعال والنتائج. فقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ وصف لهم بشدة الحرص على المال، والتعلق التام به،

(١) البحر المحيط (٨٧/٤).

(٢) الكشاف (٥٧١/١).

والرغبة في الحصول عليه بأي طريق. فههنا مرض نفسي.

وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هو انعكاس لذلك الشح النفسي على أفعالهم وتصرفاتهم فلا يصدر منهم خير. ولا يعملون معروفًا، ولا ينفقون نفقة لا صغيرة ولا كبيرة.

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بُخْلَاءُ بِالْمَوَدَّةِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ ... وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشِحُّ قَوْمٌ، وَأَسْوَأُهُ مُقَاسِمَةٌ: أَعْطَوْنَا، أَعْطَوْنَا، قَدْ شَهَدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَّا عِنْدَ الْبَاسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٌ، وَأَخَذْلُهُ لِلْحَقِّ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ، أَي: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقِلَّةَ الْخَيْرِ، فَهُمْ كَمَا قَالَ فِي أَمْثَالِهِمُ الشَّاعِرُ:

أَفِي السَّلْمِ اغْبَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالُ النِّسَاءِ الْعَوَارِكِ

أَي: فِي حَالِ الْمُسَالِمَةِ كَانَتْهُمْ الْحَمِيرُ. وَالْأَغْيَارُ: جَمْعُ غَيْرٍ، وَهُوَ الْحِمَارُ، وَفِي الْحَرْبِ كَانَتْهُمْ النِّسَاءُ الْحَيْضُ^(١).

علق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله على كلام سعيد بن المسيب السابق فقال:

«فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ التَّوَجِّهَاتِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَقَضَاءِ الدُّيُونِ؛ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ. لَا تُتِمُّ إِلَّا بِالْمَالِ. وَمَا لَا يَتِمُّ التَّوَجُّبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. وَمَنْ لَا يُجِبُّ أَدَاءً مِثْلَ هَذَا التَّوَجُّبِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَقُومُ الدِّينُ إِلَّا بِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ. فَهَذِهِ جَمْلَةٌ وَلَهَا تَفَاصِيلُ كَثِيرَةٌ»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (١٦٩/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٠/٢٩).

ويؤب الإمام البخاري رحمته الله في كتاب البيوع من الجامع الصحيح فقال:
«كسب الرجل وعمله بيده».

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: وقد اختلف العلماء في أفضل المكاسب، قال
الماوردي: أصول المكاسب: الزراعة والتجارة والصناعة. والأشبه بمذهب
الشافعي أن أطيها التجارة قال والأرجح عندي أن أطيها الزراعة؛ لأنها أقرب
إلى التوكل. وتعقبه النووي... وأن الصواب أن أطيّب الكسب ما كان بعمل
اليد، قال: فإن كان زراعا فهو أطيّب المكاسب لما يشتمل عليه من كونه عمل
اليد ولما فيه من التوكل ولما فيه من النفع العام للآدمي وللدواب؛ ولأنه لا بد
فيه في العادة أن يوكل منه بغير عوض...

قلت^(١): وهو مبني على ما بحث فيه من النفع المتعدي ولم ينحصر النفع
المتعدي في الزراعة؛ بل كل ما يعمل باليد فنفعه متعد لما فيه من تهيئة أسباب
ما يحتاج الناس إليه، والحق أن ذلك مختلف المراتب وقد يختلف باختلاف
الأحوال والأشخاص... ومن فضل العمل باليد الشغل بالأمر المباح عن
البطالة واللّهو وكسر النفس بذلك والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير^(٢).

(١) القائل ابن حجر.

(٢) فتح الباري (٩/١٥٠-١٥١).

المحور الثالث: الإنفاق في وجوه الخير المتنوعة:

وردت كلمة الإنفاق ومرادفاتها كالإتيان في القرآن في مواضع كثيرة جدًا. ليكون الإنفاق من المال في وجوه الخير المتنوعة الواجبة والمستحبة جزءًا أصيلًا في التركيب النفسي للإنسان المسلم ذكرًا كان أو أنثى. وكذلك ليكون الإنفاق جزءًا أصيلًا في النظام الاقتصادي الإسلامي. القائم على التراحم والتكافل الاجتماعي. المضاد للنظام الرأسمالي الربحي النفعي المقيت.

فأولًا: ما جاء بصيغة الإتياء وهو إيصال الخير والمعروف لأهله ومستحقه، قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

المراد بمن يؤتون من المال هم الناشدون للتحرر من ربة الرق. والانطلاق في عالم الحرية. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَايِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. فأمر بمساعدتهم وإعانتهم ليصلوا إلى تحرير رقابهم من ربة الرق والعبودية، ليكونوا أحرارًا أسوياء، يساهمون بفعالية في استصلاح الحياة وعمارة الأرض، وبناء المجتمع، وهذا هو تحديدًا معنى قوله تعالى هنا في الشرط الذي شرطه لمكاتبته وهو قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

فُسِّرَت بالقدرة على العمل والكسب الحلال. وفُسِّرَت بالصدق والأمانة^(١). وهذه تحديدًا عناصر الإنسان السوي فالصدق والأمانة في أخلاقه وأقواله وأعماله، والإنتاج والعمل والكسب مضمومًا إليها.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٥٣٦).

أخرج أبو داود في المراسيل من مرسل يحيى بن أبي كثير مرفوعاً: «إن علمتم فيهم جِرْفَةً ولا ترسلوهم كَلًّا على الناس»^(١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا آتَى أَمَالٌ عَلَىٰ حِيْمَةٍ ذَاوِ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقد استدل بهذه الآيات العلماء على أن في المال حقاً؛ بل حقاً سوى الزكاة المفروضة كقرى الضيف وصلة الأقارب، وعارية الذلول، وطروق الفحل، وبذل الجلاب. والحمل على النجبة، وبذل الماء في الطريق. ونحو ذلك. ولعظيم أهمية مثل هذه الحقوق في غرس السماحة في النفوس، واجتثاث عروق البخل والشح من القلوب. وتحول المجتمع المسلم إلى مجتمع نفع، تسوده السماحة عمق النبي ﷺ مثل هذه الأمور في التشريع رغم ضآلة بعضها فجعلها من أعظم الأمور الموصلة إلى رضوان الله تعالى والفوز بجنته.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَغْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَضْلِيْقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»، قَالَ حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةٍ -راوي الحديث-: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيْمِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً»^(٢).

وهذه الخصال والأعمال الزهيدة اليسيرة التي ربما يحتقرها الإنسان ليسرها

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل (١٦٩) أثر رقم (١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، حديث رقم (٢٦٣١).

وسهولتها، من منيحة العنز فما دون من جنس رد السلام وإعطاء شمع النعل والتفسيح في المجالس والكلمة الطيبة، والتبسم في وجه المسلم، وعيادة المريض، وإدخال السرور على المسلم، والمصافحة، والإعانة في الحمل على الدابة، وإرشاد الضال، وما يجري هذا المجرى، ولكنها توصل برحمة الله إلى الجنة.

والقاسم المشترك الذي يتظمها جميعاً. وهو السر فيها: أنها جميعاً للنفع المتعدي للغير. فحيثما وجدت العمل يتعدي نفعه للغير فدونك إياه؛ فإنه طريق الجنة ولو كان عملاً يسيراً أو زهيداً جداً.

ثانياً: ما جاء بصيغة الإنفاق في جميع أوجه الخير:

يقول الراغب الأصبهاني في المفردات: «نَفَقَ الشَّيْءُ: مَضَى وَنَفَدَ، يَنْفُقُ، إِمَّا بِالْبَيْعِ نَحْوُ: نَفَقَ الْبَيْعُ نَفَاقًا، ... وَنَفَقَ الْقَوْمُ: إِذَا نَفَقَ سُوقُهُمْ، وَإِمَّا بِالْمَوْتِ نَحْوُ: نَفَقَتِ الدَّابَّةُ نَفَقًا، وَإِمَّا بِالْفَنَاءِ نَحْوُ: نَفَقَتِ الدَّرَاهِمُ تَنْفَقُ وَأَنْفَقْتَهَا. وَالْإِنْفَاقُ قَدْ يَكُونُ فِي الْمَالِ، وَفِي غَيْرِهِ، وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا وَتَطَوُّعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَقَالَ: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَقَالَ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَلَا يَرِيهِ اللَّهُ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]^(١).

ثم ساق عدداً من الآيات في ذلك.

يقول القاضي أبو بكر ابن العربي رحمته الله في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، «إِذَا تَأَمَّلَ اللَّيْبُ الْمُنْصِيفُ هَذِهِ التَّوْجِيهَاتِ تَحَقَّقَ أَنَّ الصَّحِيحَ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

(١) المفردات في غريب القرآن (٧٦٥).

[البقرة: ٣]: كُلُّ غَيْبٍ أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ كَائِنٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]: عَامٌّ فِي كُلِّ صَلَاةٍ فَرَضًا كَانَتْ أَوْ نَفَلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] عَامٌّ فِي كُلِّ نَفَقَةٍ، وَلَيْسَ فِي قُوَّةِ هَذَا الْكَلَامِ الْقَضَاءُ بِفَرْضِيَّةٍ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَإِنَّمَا عَلِمْنَا الْفَرْضِيَّةَ فِي الْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ وَالنَّفَقَةِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ وَهَذَا الْقَوْلُ بِمُطْلَقِهِ يَقْتَضِي مَذْحَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَاصَّةً كَيْفَمَا كَانَتْ صِفَتُهُ^(١).

وقوله: إن هذا لا يقتضي فرضية ذلك في هذه الآية، يمكن أن يجاب عنه بأنه تعالى وصف هؤلاء المتقين الذين هذه صفتهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وماذا بعد الهدى والفلاح إلا الضلال والخسارة، أما تفاصيل ما يدخل في حد الفرض والنفل من الصلاة والنفقة فنعم يحتاج إلى أدلة أخرى.

وقال محمد بن عمر الرازي رحمه الله: أَضْلُ الْإِنْفَاقِ إِخْرَاجُ الْمَالِ مِنَ الْيَدِ، وَمِنْهُ نَفَقَ الْمَبِيعُ نَفَاقًا إِذَا كَثُرَ الْمُشْتَرُونَ لَهُ وفي قَوْلِهِ: وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَوَائِدُ: أَحَدُهَا: أَدْخَلَ مِنَ التَّبْعِيَّةِ صِيَانَةَ لَهُمْ، وَكَفَتْ عَنِ: الْإِسْرَافِ وَالتَّبَذِيرِ الْمُنْهِي عَنْهُ. وَثَانِيهَا: قَدَّمَ مَفْعُولَ الْفِعْلِ دَلَالَةً عَلَى كَوْنِهِ أَهَمًّا، كَأَنَّهُ قَالَ وَيَخْصُونَ بَعْضَ الْمَالِ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ. وَثَالِثُهَا: يَدْخُلُ فِي الْإِنْفَاقِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْمُنْدُوبُ^(٢).

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «وَالْإِنْفَاقُ إِعْطَاءُ الرِّزْقِ فِيمَا يَعُودُ بِالْمَنْفَعَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَمَنْ يُرْعَبُ فِي صَلَاتِهِ أَوْ التَّقَرُّبِ لِلَّهِ بِالنَّمْعِ

(١) أحكام القرآن (١/١٩).

(٢) التفسير الكبير (٢/٣٤).

لَهُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ لِبَاسٍ. وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا بَيْتُهُ فِي نَفْعِ الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الْحَاجَةِ وَتَسْدِيدِ نَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ الْمَدْحِ وَافْتِرَائِهِ بِالْإِيمَانِ، وَالصَّلَاةِ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ هُنَا خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَمَا هِيَ إِلَّا الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، إِذْ لَا يُمدَّحُ أَحَدٌ بِإِنْفَاقِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ إِذْ ذَلِكَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْجِبِلَّةُ فَلَا يَغْتَنِي الدِّينُ بِالتَّحْرِيطِ عَلَيْهِ^(١). فَمِنَ الْإِنْفَاقِ مَا هُوَ وَاجِبٌ وَهُوَ حَقٌّ عَلَى صَاحِبِ الرِّزْقِ، لِلْقَرَابَةِ وَلِلْمَحَاوِجِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَنَوَائِبِ الْأُمَّةِ كَتَجْهِيزِ الْجُيُوشِ وَالرِّكَازِ، وَبَعْضُهُ مُحَدَّدٌ، وَبَعْضُهُ تَقْرُضُهُ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْضروريةُ أَوْ الْحَاجِيَّةُ^(٢).

(١) لي تحفظ على هذا الكلام؛ بل أمر الإسلام وحض على الإنفاق على الأهل والعيال، وفضل الإنفاق عليهم على غيره من وجوه البر والمعروف. لأن كثيراً من الجبلات فسدت وبلغ الشح بكثير من النفوس بالبخل على عيالهم وأهلهم. لدرجة أنهم كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم من إملاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ عَنْهُمْ نَفْسًا كَافَّةً﴾ [النعام: ١٥١]، بل وكانوا يقتلون ما رزقهم الله من الأولاد خشية توقع حصول الفقر والإملاق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً أَمَلْتُمْ عَنْهُمْ نَفْسًا كَافَّةً﴾ [النعام: ١٥١].

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٥).

المحور الرابع: وضع الحدود المانعة من الكسب المحرم والإضرار بالناس:

إن ملكية الإنسان للمال وحرية في العمل والكسب، لا تعني الطمع فيما في أيدي الناس والتطلع إلى استخراج أموالهم بالكذب والغش والمكر والخداع. ولا تعني أكل أموال الناس بالباطل، فضربت الشريعة الغراء بسياج وثيق وحدود متينة، لردع المعتدين على أموال الناس. وكسر سورة طمعهم وجشعهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْخُصَاةِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: «الْخُطَابُ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْمَعْنَى: لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِغَيْرِ حَقٍّ. فَيَدْخُلُ فِي هَذَا: الْقِمَارُ وَالْخِدَاعُ وَالْغُصُوبُ وَجَحْدُ الْحُقُوقِ، وَمَا لَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُ مَالِكِهِ، أَوْ حَرَمَتُهُ الشَّرِيعَةُ، وَإِنْ طَابَتْ بِهِ نَفْسُ مَالِكِهِ، كَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلُوانِ الْكَاهِنِ وَأَثْمَانِ الْخُمُورِ وَالْحَنَازِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»^(١).

وقال عبد الكريم الشهرستاني رحمه الله: «لما بين الرب تعالى حدوده وأحكامه في حركات المكلفين وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، عَقَّبَ ذلك بالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل والتأويل، والإدلاء بقول الحكام؛ فإن ذلك من جملة حدود الله التي حدها ومنعها، وما سبق من الحدود فهي متعلقة بحقوق الله تعالى، والحق بها ما يتعلق بحقوق الناس، ليعلم أن المحظورات على وتيرة واحدة...

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٢٥).

قال: المؤمن حرام دمه وماله وعرضه، والمؤمن أخو المؤمن، لا يحل أكل ماله بتأويل، ومن استحل مال الغير فقد حكم بالإباحة ورفع الحرج وإحباط التكليف، وتعدى حدود الله وظلم نفسه، والإدلاء إلى الحكام يكون على وجهين: أحدهما إدلاء بحجة باطلة كيمين كاذبة أو شهادة زور ويكون الحاكم فيها معذوراً، وإنما الإثم على المدلي، ويكون ما يقطعه له قطعة من النار، فإن قضاء القاضي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً فلا ينفذ ظاهراً وباطناً.

والوجه الثاني: إدلاء بمال ورشوة: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سِيفُفَرُّ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وهم يعلمون أنه حرام أخذه، وباطل حكمه، وسحت أكله، وقد ابتلينا بزمان فيه حكام تصرخ منهم الدماء، وتبكي منهم المواريث^(١).

ولذلك وضع الله تعالى الحدود والموانع العظيمة من الكسب المحرم.

فحرم تعالى الربا أعظم التحريم وزجر عنه أبلغ الزجر، وتوعد عليه من الحرب والنكال أعظم التوعد، حتى قال الإمام مالك بن أنس رحمته الله: «إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه فلم أَر شيئاً أشر من الربا، لأن الله أذن فيه بالحرب»^(٢).

وذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا أَنَّفُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الزَّيْنِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وحرم رسول الله ﷺ أنواعاً من البيوع لأنها تفضي إلى الغرر وأكل أموال الناس بالباطل. كالمنازمة والملامسة وحبل الحبلية. والنجش والغرر وبيع حاضر لباد وعن تلقي الركبان والمزاينة وحلوان الكاهن ومهر البغي وثمن

(١) تفسير الشهرستاني المسمى: مفاتيح الأسرار ومصايح الأبرار (٢/ ٧٧٤-٧٧٥).

(٢) نقله القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٦٤).

الكلب وغير ذلك مما هو مفصل في محله من كتب الفقه الإسلامي.

وهي كلها تدور على منع الغرر والخداع والغش مما يفضي إلى أكل قسط من أموال الناس بالباطل، مما يثير الشحنة والبغضاء وفساد ذات البين بين الناس وربما أدى إلى ما هو أعظم من ذلك من الغبن الشديد والقتل وغير ذلك من المفاسد العظيمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وَالْأَضْلُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ فِي كِتَابِهِ أَكْلَ أَمْوَالِنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ. وَذَمَّ الْأَخْبَارَ وَالرُّهْبَانَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَذَمَّ الْيَهُودَ عَلَى أَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. وَهَذَا يَعْمُ كُلُّ مَا يُؤْكَلُ بِالْبَاطِلِ فِي الْمَعَاوِصَاتِ وَالتَّبَرُّعَاتِ، وَمَا يُؤْخَذُ بِغَيْرِ رِضَا الْمُسْتَحَقِّ وَالِاسْتِحْقَاقِ. وَأَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ فِي الْمَعَاوِصَةِ نَوْعَانِ، ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ هُمَا: الرِّبَا وَالْمَيْسِرُ. فَذَكَرَ تَحْرِيمَ الرِّبَا الَّذِي هُوَ ضِدُّ الصَّدَقَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَالرُّومِ وَالْمُدَّثِّرِ^(١) وَذَمَّ الْيَهُودَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ وَذَكَرَ تَحْرِيمَ الْمَيْسِرِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَصَّلَ مَا جَمَعَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ. فَنَهَى ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ. كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. وَالْغَرَرُ: هُوَ الْمَجْهُولُ الْعَاقِبَةُ. فَإِنَّ بَيْعَهُ مِنَ الْمَيْسِرِ الَّذِي هُوَ الْقِمَارُ . . . فَيُفْضِي إِلَى مَفْسَدَةِ الْمَيْسِرِ: الَّتِي هِيَ إِيقَاعُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الظُّلْمِ. فَفِي بَيْعِ الْغَرَرِ ظُلْمٌ وَعَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءٌ. وَمِنْ نَوْعِ الْغَرَرِ مَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْعِ حَبْلِ الْحَبَلَةِ وَالْمَلَايِخِ

(١) المراد بورود تحريم الربا في سورة المدثر: قوله تعالى «وَلَا تَنْتَهِ تَنْتَكِرُ» [المدثر: ٦] فقد فسروها: لا تعط شيئاً لتأخذ أكثر منه وهو مروى عن ابن عباس وعكرمة وإبراهيم والضحاك وقتادة ومجاهد. انظر تفسير الطبري (١٢/٣٠١-٣٠٢).

وَالْمَضَامِينِ وَمِنْ بَيْعِ السَّنِينَ وَبَيْعِ الثَّمَرِ قَبْلَ بُدُوِّ صَلاَحِهِ وَبَيْعِ الْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَابَذَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ: كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الْعَرَرِ^(١).

وحرم الله تعالى ورسوله ﷺ الحِيلَ المفضية إلى أكل الربا أو إنفاق السلع بالكذب والبهتان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَجَمَاعُ الْحِيلِ نَوَعَانِ: إِمَّا أَنْ يَضُمُّوا إِلَى أَحَدِ الْعَوَاضِينَ مَا لَيْسَ بِمَقْصُودٍ، أَوْ يَضُمُّوا إِلَى الْعَقْدِ عَقْدًا لَيْسَ بِمَقْصُودٍ... وَدَلَائِلُ تَحْرِيمِ الْحِيلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِغْتِيَارِ كَثِيرَةٌ»^(٢).

(١) مجمع الفتاوى (٢٩/٢٢-٢٣).

(٢) المصدر السابق (٢٩/٢٧-٢٩) ولشيخ الإسلام تفصيل: واسع في منع الحيل وبيان أدلة ذلك في كتابه: «إقامة الدليل على بطلان التحليل»، فليُنظر.

المحور الخامس: محاسبة العمال والولاة والتجار ومراقبتهم من قبل ولي الأمر القائم على الناس.

صح عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن»^(١).

فلا بد من ولي أمر قائم على مصالح الناس عامل بشريعة الله محاسب للولاة والأمراء والتجار. لردع المجرمين. ومحاسبة الفاسدين. وإيقاف المتغولين في أموال الناس بالإنثم والباطل.

بؤب الإمام البخاري في كتاب الأحكام من الجامع الصحيح، فقال: باب: «محاسبة الإمام عماله»^(٢).

وأخرج حديث عن أبي حميد الساعدي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ ابْنَ اللَّتِيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَيْكَ، وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا»، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجَالًا مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا...»^(٣). الحديث.

(١) هكذا عزاه القلمي الشافعي في تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (٩٥/١) لعثمان بن عفان، ورواه الخطيب مسندا عن عمر بن الخطاب في تاريخ بغداد (١٧٢/٥) وهكذا هو عند ابن طباطبائي في الفخري في الآداب السلطانية (٦١/١).

(٢) فتح الباري (٢٧/٢١٩).

(٣) حديث رقم (٧١٩٧).

وبوب البخاري على هذا الحديث أيضًا فقال: باب هدايا العمال^(١).

وبوب في موضع ثالث فقال: باب احتيال العامل ليهدي له^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث مشروعية محاسبة المؤمن... ومنع العمال من قبول الهدية ممن له عليه حكم... وفيه إبطال كل طريق يتوصل بها من يأخذ المال إلى محاباة المأخوذ منه والافتراء بالمأخوذ»^(٣).

واشتهر عن الخلفاء الراشدين عليهم السلام خصوصًا أمير المؤمنين عمر محاسبة العمال. والولاة، والتحقيق معهم ومعاقبتهم. إذا أثروا بسبب مناصبهم. ونحو ذلك^(٤).

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام شريف جامع في هذا الأصل أنقله بطوله مع بعض الاختصار لأهميته:

قال رحمته الله: «بَذَلَ الْمَنَافِعِ وَالْأَمْوَالِ سَوَاءً كَانَ بِطَرِيقِ التَّعَوُّضِ أَوْ بِطَرِيقِ التَّبَرُّعِ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ: وَوَاجِبُهَا يَنْقَسِمُ إِلَى فَرَضٍ عَلَى الْعَيْنِ وَفَرَضٍ عَلَى الْكِفَايَةِ... وَجَمَاعُ الْوَاجِبَاتِ الْمَالِيَّةِ بِلاَ عَوْضٍ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ، مَذْكُورَةٌ فِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ: «أَرْبَعٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الْبُخْلِ: مَنْ آتَى الزَّكَاةَ، وَفَرَى الضَّيْفَ، وَوَصَلَ الرَّجِمَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِيَةِ...»

وَأَمَّا الْوَاجِبَاتُ الْمَنْفَعِيَّةُ بِلاَ عَوْضٍ: فَمِثْلُ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

(١) فتح الباري (٢٧/١٩٠).

(٢) فتح الباري (٢٦/١٩٢).

(٣) فتح الباري (٢٧/١٩٤).

(٤) انظر نماذج لذلك: كتاب الأموال لابن زنجويه (١/٤٩٩-٥١٢)، وكتاب الأموال لأحمد بن نصر الداوي (٨٤-٩٤).

وَالْتَهَيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنَضَرَ الْمَظْلُومَ وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا . . .
وَأَمَّا الْمَنَافِعُ الْمَالِيَّةُ . . . كَحَبْلِ وَدَلْوٍ يَسْتَقِي بِهِ مَاءٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَتَوْبٍ
يَسْتَدْفِي بِهِ مِنَ الْبَرْدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَجِبُ بَذْلُهُ؛ لَكِنْ هَلْ يَجِبُ بَذْلُهُ مَجَانًّا أَوْ بِطَرِيقِ
التَّعَوُّضِ كَالْأَعْيَانِ؟ فِيهِ وَجْهَانِ. وَحُجَّةُ التَّبَرُّعِ مُتَعَدِّدَةٌ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٥] وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّهُ عَارِيَةً
الْقَدَرِ وَالذَّلْوِ وَالْفَأْسِ». وَكَذَلِكَ إِيْجَابُ بَذْلِ مَنَفْعَةِ الْحَائِطِ لِلْجَارِ إِذَا اخْتِاجَ إِلَيْهِ . . .
فَفِي الْجُمْلَةِ مَا يَجِبُ إِيْتَاؤُهُ مِنَ الْمَالِ أَوْ مَنَفْعَتُهُ أَوْ مَنَفْعَةُ الْبَدَنِ بِلَا عَوَضٍ لَهُ
تَفْصِيلٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَلَوْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَقَفِّهَةِ مُقْصِرِينَ فِي عِلْمِهِ . . .
وَيَعْتَقِدُ الْغَالِطُ مِنْهُمْ «أَنْ لَا حَقٌّ فِي الْمَالِ سِوَى الزَّكَاةِ» . . . وَإِلَّا فَتَنْحُنْ نَعْلُكُمْ
بِالْاضْطِرَارِّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ إِيْتَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ الزَّكَاةِ
الْمَفْرُوضَةِ فِي مَوَاضِعَ: مِثْلَ الْجِهَادِ بِالْمَالِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْحَجِّ بِالْمَالِ، وَنَفَقَةِ
الزَّوْجَةِ وَالْأَقَارِبِ وَالْمَمَالِيكِ مِنَ الْأَدْمِيِّينَ، وَالْبَهَائِمِ. وَمِثْلُ مَا يَجِبُ مِنَ الْكَفَّارَاتِ
مِنْ عَتَقٍ وَصَدَقَةٍ وَهَذِي كَفَّارَاتُ الْحَجِّ وَكَفَّارَاتُ الْإِيمَانِ وَالْقَتْلِ الْخَطَا وَغَيْرِهَا . . .
بَلِ الْمَالُ مُسْتَوْعَبٌ بِالْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ الرَّائِيَّةِ أَوْ الْعَارِضَةِ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ أَوْ
بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُ . . .

وَجَمَاعُ الْمُعَاوَضَاتِ أَرْبَعَةٌ أَنْوَاعٍ: مُعَاوَضَةُ مَالٍ بِمَالٍ: كَالْبَيْعِ. وَبَذْلُ مَالٍ
بِنَفْعٍ كَالْجَعَالَةِ. وَبَذْلُ مَنَفْعَةٍ بِمَالٍ كَالْإِجَارَةِ وَبَذْلُ نَفْعٍ بِنَفْعٍ كَالْمُشَارَكَاتِ مِنَ
الْمُضَارَبَةِ وَنَحْوِهَا . . .

وَبِالْجُمْلَةِ فَوُجُوبُ الْمُعَاوَضَاتِ مِنْ ضَرُورَةِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ؛ إِذِ الْإِنْسَانُ لَا
يَتَقَرَّدُ بِمُضْلَحَةٍ نَفْسِيَّةٍ؛ بَلْ لَا يَدُّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِبَنِي جَنْبِهِ فَلَوْ لَمْ يَجِبْ عَلَى بَنِي
آدَمَ أَنْ يَبْذُلَ هَذَا لِهَذَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَهَذَا لِهَذَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَفَسَدَ النَّاسُ وَفَسَدَ

أَمْرٌ دُنْيَاهُمْ وَدِينُهُمْ فَلَا تَنِمُ مَصَالِحُهُمْ إِلَّا بِالْمُعَاوَضَةِ وَصَلَاحُهَا بِالْعَدْلِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ لَهُ الْكُتُبَ وَبَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ...

وَهَكَذَا إِذَا اضْطُرَّ النَّاسُ ضَرُورَةً عَامَّةً، وَعِنْدَ أَقْوَامٍ فُضُولٌ أَطْعِمَةٍ مَخْزُونَةٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَيْعُهَا، وَعَلَى السُّلْطَانِ أَنْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يَبِيعَهَا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ فِعْلٌ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ يَقْبَلُ الثَّيَابَةَ فَيَجِبُ لِلزَّامِهِمْ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ شَرْعًا وَهُوَ حَقٌّ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ فَيَجِبُ اسْتِنْقَاذُهُ مِنْهُمْ ...

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا اخْتِاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الصَّنَاعَاتِ: كَالْفَلَاخَةِ وَالنَّسَاجَةِ وَالْبِنَايَةِ: فَعَلَى أَهْلِهَا بِذَلِكَ لَهَا لَهُمْ بِقِيَمَتِهَا ...

وَالْأَضْلُ أَنْ إِعَانَةَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلَى الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالسُّكْنَى أَمْرٌ وَاجِبٌ. وَلِلْإِمَامِ أَنْ يُلْزِمَ بِذَلِكَ وَيُجْبِرَ عَلَيْهِ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا ...

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَفْعَلُونَ هَذَا بِحُكْمِ الْعَادَاتِ وَالطَّبَاعِ، وَطَاعَةِ السُّلْطَانِ غَيْرِ مُسْتَشْعِرِينَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمْ فِيهِ ...

وَكَمَا لِلْإِمَامِ أَنْ يُوجِبَ الْجِهَادَ عَلَى طَائِفَةٍ وَيَأْمُرَهُمْ بِالسَّفَرِ إِلَى مَكَانٍ لِأَجْلِهِ، فَلَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَأْمُرَ قَوْمًا بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَيَأْمُرَ قَوْمًا بِالْوِلَايَاتِ. وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ وَغَيْرِ الْعَدْلِ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا عُلِمَ أَنَّهُ طَاعَةٌ كَالْجِهَادِ^(١).

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٨٥-١٩٦) باختصار.

المال في النظام الرأسمالي:

المال في التقرير الوضعي مختلف تمامًا عنه في التقرير الشرعي، تقوم مصادمة واضحة بين التشريع الإلهي للمال كسبًا وإنفاقًا ووظيفة وبين التقرير الوضعي الرأسمالي الحر عندما يضع الناس لهم تشريعات من دون الله رب العالمين.

في التقرير الوضعي تعود النفوس البشرية إلى هلعها وجزعها وظلمها ومنعها وتكالبها.

في التقرير الوضعي يقوم الاستغلال، والنهب، والغش، والخداع، والإنفاق بلا رشد ولا غاية إلا النزوة والشهوة.

يظهر ذلك جليًا في الجاهليات القديمة، كما يظهر جليًا في عالم اليوم القائم على النظام الرأسمالي الاستغلالي ومبادئ التجارة الحرة، وأنماط العولمة.

لما دعا نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى الإصلاح الاقتصادي، والحد من حرية الكسب والشره والطمع، كما قال تعالى عنه: ﴿وَيَنْفَقُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾ يَقِئْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ [هود: ٨٥-٨٦].

هذه دعوة نبوية كريمة لكبح جماح النفوس الشحيحة المتكالبة على جمع المال بالغش والكذب والخداع، وإطلاق جزع وهلع النفس من كل عقال، وميزان. ولكنها جوبهت برد شنيع واستهزاء وعصيان وإصرار مظلم من قبلهم، رافضين هذا الإصلاح الاقتصادي الرشيد، داعين للاستمرار في ذلك الارتكاس المشين.

قال تعالى في جوابهم لنبيهم: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ إِيَّاكَ لِأَنَّ الْهَلِيلَ الرَّشِيدَ﴾ [هود: ٨٧].

فهم ردوا عليه ذلك التشريع الذي يحد من هلعهم وتغولهم في أموال الناس بغير حق: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، ردّوه بأن لهم مطلق الحرية في التصرف في أموالهم وكسبها والوصول إلى الربح بأي طريق وبأي وسيلة، مهما كانت غير أخلاقية ولا شرعية.

قال ابن زيد: «إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء إن شئنا قطعناها، وإن شئنا حرقناها وإن شئنا طرحناها»^(١).

وما النظام الرأسمالي الحديث الذي تقوم عليه اقتصاديات دول العالم اليوم إلا هذا بعينه، إطلاق العنان للنفس البشرية للكسب والربح بأي طريقة وتحت أي مبرر ولو كان الخداع والكذب والغش والتزوير ونهب الثروات والاتجار بالبشر والمخدرات والسلاح وغير ذلك، فالمال هو الغاية، والغاية تبرر الوسيلة. فمئذ أن قرر «آدم سميث (١٧٩٠)» في كتابه «ثروة الأمم» مبادئ الرأسمالية. وتبعه «مالتس (١٨٣٤)» ثم «دافيد ريكارد» اتجه الاقتصاد العالمي إلى اللا أخلاقية المتطرفة للربح والكسب وسحق الآخرين واستغلالهم، ولو بالحرب والقتال والاحتلال.

يقول «روبرت داونز» عن كتاب ثروة الأمم لآدم سميث: «النظرية الأساسية في كتاب: ثروة الأمم» نظرية ذات نزعة ميكافيلية، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا

(١) تفسير الطبري (١٠٠/٧).

مظهر من مظاهرها. بذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري»^(١).

ولذلك فإن الاقتصاد الرأسمالي الحديث الذي يسيطر على عالم اليوم يقوم على عدة معالم:

- فهو نظام رأسمالي فردي أناني استغلالي، يكرس الثروات الهائلة في أيدي أفراد وشركات وبارونات الربا. على حساب الجموع من ملايين البشر المسحوقه.
- هو نظام طفيلي يتسلط على أموال الناس بشتى الحيل ويأخذها بدون مقابل ويستخدمها ويعمل بها لصالحه.

• وهو نظام معلوماتي يعتمد الدعاية الباهرة والإعلام المضلل.

• ثم هو نظام مضارب ربوي قبيح.

يعبر عن هذه المعالم أحد كبار بارونات الربا في العالم حيث يقول الاقتصادي البريطاني الشهير «جون مينارد مينز» "Jobn. Meynes" في كتابه الشهير «النظرية العامة للتوظيف والمصلحة والمال»: «لابد لنا أن نتخذ الجشع وكثر المال والربا والاحتباس أربابًا لنا... فهم فقط دون سواهم الذين سيقودنا إلى النور»^(٢).

«لقد ساد العالم هذا النوع من الكسب وهذا النظام المجرد من الأخلاق والقيم للاقتصاد والمال مما ينذر بعواقب وخيمة وفساد عريض، ودمار شامل. يقول الاقتصادي الألماني «هانز كنغ» تحت عنوان: نجاح اقتصاد السوق

(١) كتب غيرت وجه العالم (ص ٧٣).

(٢) نقلًا عن كتاب: امبراطورية الشر الجديدة للدكتور عبد الحي زلوم (ص ١٥).

العالمي أم إخفاقه؟ «لقد فرض اقتصاد السوق، أي الرأسمالية، نفسه على أنه نمط اقتصادي عالمي بعد انهيار الإمبراطورية السوفيتية، ولكن ما زال الناس في القارة الأوروبية متففين على أن السوق الحر لابد أن يكون اجتماعيًا واقتصاديًا في الوقت ذاته، إذا كان يُراد له الصمود ...

أما صمود نظام اقتصاد السوق لم يكن مضمونًا مسبقًا فذلك ما أثبتته تجارب العقد الأخير، لقد كشفت الأزمات المالية الآسيوية في التسعينات عن أن اقتصاد السوق الحر يمكن أن ينتهي هو أيضًا إلى الإخفاق ... أجل إن المرء لا يستطيع أن يتجاهل أن اقتصادًا عالميًا من اقتصاديات السوق الحر يتعرض لمخاطر عالمية جديدة كل الجدة، نحن نلاحظ في كثير من الأحيان أنه في مثل هذا الوضع تجري تحويلات ذنوب متبادلة، على نحو لا يخلو من سبب، فالاقتصاد يردّ الذنب إلى السياسة، والسياسة تردّه إلى الاقتصاد، والمواطن المتوسط يحاول في كثير من الأحيان أن يردّ الذنب إلى نقائص أخلاقية في كليهما»^(١).

ويقدم عالم الاقتصاد البريطاني الشهير «جون. ه. دِينغ»^(٢) "John h. Dunning" ثلاثة معالم بارزة لهذا الاقتصاد الرأسمالي الفاسد المدمر للحياة.

المعلم الأول: عجز الأسواق ذاتها. المتمثل في:

• سياسة الاقتصاد الكلي المفرطة في المضاربة والمجازفة، «سوق

(١) كتاب: مكافحة الفساد تقتضي نظامًا من الأطر الأخلاقية (٢٧٠).

(٢) أستاذ الاقتصاد والتجارة الدولية بجامعة "Reading" ببريطانيا، وجامعة "Rugers" بالولايات المتحدة.

العقارات، وسوق الأسهم نموذجًا.

- العملة المقدرة بقيمة زائدة.
- العقود الخاصة بسعر الصرف من طرف واحد.
- التوقيت السيئ للديون قصيرة الأجل.
- وجود سوق سوداء قوية في كل شيء.
- المعلم الثاني: عجز المؤسسات المتمثل في:
 - عدم الكفاية في أداء نظام الضبط ونظام المراقبة.
 - النقص في حماية حقوق الملكية.
 - النقص في الشفافية.
 - مستويات التوازن المتسمة بعدم الكفاية.
- المعلم الثالث: عجز الأخلاق والذي يكمن كعامل أساسي في عجز الأسواق وعجز المؤسسات والمتمثل في:
 - رأسمالية الكازينوهات.
 - المافيا.
 - رأسمالية الرشوة والفساد.
 - النقص في الثقة.
 - غياب المسؤولية الاجتماعية.
 - الجشع المفرط لدى المستثمرين والشركات والتجار والمؤسسات^(١).

(١) كتاب: إلى أين تتجه الرأسمالية العالمية؟ (١١-١٢).

يضيف «دِينغ» أنماطًا وصورًا خطيرة لإفرازات ومخرجات الرأسمالية العالمية، يقول: »

- في كثير من الأحيان ترتبط البنية التحتية التجارية غير الكافية بالرشوة والفساد كما ترتبط بالمصلحة الخاصة والجشع المفرطين.
- الأداء غير الملائم للوظائف على صعيد منظمات الاقتصاد العالمي الكلي يرتبط بعدم الاستقامة والخداع والنقص في الثقة، والاستعداد للحلول الوسط والتعاون والولاء للفئات والجماعات.
- أشكال عدم الجدوى في النظام القضائي، بما يحقق منع الجريمة المرتبطة برأسمالية المافيا والكاينوهات.
- النظام المصرفي غير الملائم، ونظام التمويل والمحاسبة غير الملائمين كل ذلك له علاقة بالانتهازية، وتبديد الأموال، وعدم الانضباط.
- ارتباط الهندسة الخاصة ببناء المجتمع بعدم المبالاة بحاجات الآخرين، وينقص الشعور الشخصي بالواجب، والمسؤولية الاجتماعية.
- أشكال انعدام الجدوى فيما يتعلق بحماية حقوق الملكية إنما هي نتيجة لموقف يتسم بعدم المبالاة وانعدام الشعور بالمسؤولية^(١).

ويقدم لنا «هانزكنغ» صورة للنتيجة التي وصل لها العالم اليوم في ظل الرأسمالية والعولمة مما يستدعي تداعيًا عالميًا لبناء نظام «أخلاقي» لترميم ما يمكن ترميمه، «إن الناس يشكون اليوم عمومًا من فراغ يتصل بالتوجه والاستهداء ومن أننا نعيش في ظل العولمة في حقبة ممزّقة تمزيقًا سياسيًا ودينيًا،

(١) المصدر السابق (١٩-٢٠).

حافلاً بالصراعات والحروب، وفي الوقت ذاته فقيراً بإمكانات الاستهداء والتوجه، لقد فقدت سلطات معنوية كثيرة مصداقيتها؛ بل في عصر جُرّ فيه كثير من المؤسسات إلى دوامة من أزمات الهوية لها آثار عميقة في عصر انزلقت فيه مقاييس ومعايير كثيرة، حيث ما زال كثير من الناس وفيهم الشباب خاصة، لا يكادون يعرفون ما هو صالح، وما هو فاسد في مجالات الحياة المختلفة^(١).

إذن الفساد وانعدام الأخلاق هي سمة النظام الرأسمالي العالمي.

ولكن كيف يكون الحال، عندما يتطرق هذا الفساد إلى الحكومات والمنظمات الدولية التي كان إنشاؤها، لدعم الدول الفقيرة وبناء مشاريع تنمية لشعوب العالم الثالث؟!

نأخذ مثلاً لذلك شهادة رئيس المصرف الدولي عام (١٩٩٥م) وهو «جيمس دُفلنزن» يقول: «كان هناك كثيرون ممن يعانون من الفساد، كان يتأبهم الفزع حين كانوا يضطرون إلى أن يروا كيف كانت الموارد القيّمة التي كانت مرصودة للعمل التنموي تتبدّد؟ أو كيف كان موظفو الدولة من ذوي الدخل المتدني يتقلبون في أحضان الغنى فجأة؟ وكيف كان رجال الأعمال يحصلون على التكاليف بطريقة يتعذر تفسيرها؟ أو قبل كل الأشياء كيف يضطر الفقراء إلى دفع الرشوة في كل يوم، حتى عندما تتعلق المسألة بالمعالجة الطبية لطفل مريض»^(٢).

ويكتب الدكتور «سيرجي غلازيف»^(٣) في كتابه «الإبادة الجماعية لروسيا والنظام العالمي الجديد»

(١) مكافحة الفساد تقتضي نظاماً أخلاقياً (٢٧٧).

(٢) بحث بعنوان: جدول أعمال التطوير وتحدي الفساد، ضمن ملف شبكات الفساد العالمية (٢٨٦).

(٣) وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية الأسبق في روسيا.

فيقول: «عُرِّفت الإبادة الجماعية على أنها جريمة ترتكب بنية التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية عرقية عنصرية أو دينية وما إلى ذلك، وهذا لا يلتزم بالضرورة استخدام العنف الجسدي؛ بل كل الأدوات التي من شأنها أن تفرض عن عمد على تلك الجماعة ظروف حياة ومعيشة تعود عليها بالتدمير الفعلي المادي كليًا أو جزئيًا، لقد ارتكبت الرأسمالية أبشع جرائم الإبادة الجماعية الوحشية في تاريخ العالم والبشرية ولكن باسم أنبل المثل والأهداف السامية في المجتمع كما ارتكبت جرائم الإبادة في الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية باسم الحرية وقيمها، ومورست أيضًا الإبادة الجماعية بحق السكان الأصليين لأميركا الشمالية باسم التقدم، وكذلك الأمر في روسيا حيث ارتكبت جرائم الإبادة الجماعية ضد رجال الدين والكنيسة والتجار والفلاحين في الفترة ما بين عامي ١٩١٧-١٩٣٧م، وذلك باسم العدالة العالمية الشاملة والسعادة ...»

ثم يخلص غلازيف إلى هذه النتيجة: «إن محتوى هذه الأفكار قد يتغير ويختلف، ولكن سمتها العامة هي التي تقسم الناس إلى فئتين، عباد الله المختارين، وما سواهم، بحيث تخضع الفئة الأخيرة وهي فئة الجماهير الجاهلة إلى إعادة التعليم والمحق والعبودية»^(١).

وآخر إفرازات الرأسمالية هذه والذي يمثل هدفًا يُراد تحقيقه هو: «العولمة». «العولمة» هي الترجمة العربية المباشرة للكلمة الإنجليزية "Globalisation"، وهي ما يعني: جعل العالم واحدًا، موجه توجيهًا واحدًا ولذلك يسميها البعض: بالكونية، أو الكوكبية^(٢).

(١) نقلًا عن كتاب: امبراطورية الشر الجديدة (٢٦٧-٢٦٨).

(٢) مقاربتان عربيتان للعولمة: ياسر عبد الجواد، مجلة المستقبل العربي عدد (٢٥٢) (ص ١٢).

والعولمة الاقتصادية تبشر بها المؤسسات الاقتصادية الدولية.

فيقدمها صندوق النقد الدولي على أنها: «نمو الروابط الاقتصادية بين مختلف دول العالم على إثر نمو حجم التبادل عبر الحدود للبضائع والخدمات والانتشار السريع والعام للتكنولوجيا»^(١).

بينما هي في حقيقتها وغاياتها غير ذلك إنها مخرج جديد في هياكله ووسائله، ليحقق نفس الأهداف الاستعمارية، والرأسمالية ليزداد الأغنياء غناً، والفقراء فقراً.

يقدم لنا الفيلسوف الفرنسي الشهير «روجيه جارودي» هذا التحليل للعولمة: يقول: «العولمة هي نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر، وحرية السوق»^(٢).

ويعتبر مؤلفا كتاب «فخ العولمة»: «هانس بيتر مارتن» و«هارلدشومان»: «أن العولمة هي إيصال البشرية إلى نمط واحد في التعبير، والأكل والملبس والعادات والتقاليد»^(٣).

وهنا تختلط العولمة الاقتصادية التي على أساس التبادل المشترك بالعولمة الثقافية التي تدمر ثقافات الشعوب وأديانها وقيمها.

ويقدم لنا رئيس وزراء ماليزيا السابق «مهاتير محمد» شهادته الواقعية من موقعه كرئيس لدولة عانت من الأضرار الوخيمة للعولمة.

يقول: «إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً ومساواة، وإنما سيخضع

(١) العولمة الاقتصادية: عباس برادة (١٥-١٦).

(٢) العولمة المزعومة - الواقع - الجذور - البدائل (١٧).

(٣) فخ العولمة (٥٥-٥٦).

للدول القوية المهيمنة، وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس؛ فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، وربما أكثر من ذلك، في عالم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مُستعمرين من قبل أولئك الأغنياء^(١).

ويلخص الأستاذ «سيار الجميل» أهداف العولمة الخطيرة، فيقول: «إنها عملية اختراق كبرى للإنسان وتفكيره، وللذهنيات وتراكيبيها، وللمجتمعات وأنساقها، وللدول وكياناتها، وللجغرافية ومجالاتها، وللإقتصاديات وحركاتها، وللثقافات وهويتها، وللإعلاميات وميدياتها»^(٢).

لقد نمت بشكل سريع أخطار اقتصادية واجتماعية ونفسية كبيرة نتيجة للعولمة بكل أبعادها، ويحدد لنا مولفا كتاب «فخ العولمة» الآثار الخطيرة في الآتي:

- ١- زيادة نسبة البطالة في كل البلدان حتى التي تمتلك ثروات طبيعية.
- ٢- تدني نسبة الأجور للعمال والطبقة المتوسطة. بما لا يتناسب مع غلاء المعيشة.

٣- تدهور مستوى المعيشة. نظرًا للغلاء الفاحش للسلع والعقارات.

٤- تقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة.

٥- ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وقصر دورها على حراسة النظام.

(١) نقلًا عن مجلة: الإسلام اليوم، عدد (١٦) (ص ١٩).

(٢) العولمة والمستقبل واستراتيجية تفكير (٣٢).

٦- تفاقم التفاوت في الثروات بين مواطني البلد الواحد^(١).

وكان للعولمة آثارها الاجتماعية والأخلاقية الخطيرة والمتمثلة في:

١- التدمير للنسيج الأسري والتفكك العائلي وضياح أو ضعف قوامة الرجل على زوجته وأهله وولده، وضياح حقوق الوالدين، وضياح أو ضعف صلات الأرحام وحقوق الجيران.

ومن دلالات القرآن الكريم العظيمة ربطه بين الفساد في الأرض وبين التفكك الأسري وضياح حقوق الأقارب والأرحام.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٢-٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، وجهان من التفسير لأهل التفسير:

الأول: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عن كتاب الله تعالى وتنزله، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به، فينتج من ذلك الفساد العريض في الأرض من الكفر بالله وسفك الدماء وأكل الأموال بالباطل وقطع الأرحام.

قال الإمام قتادة: «فهل عسيتم، كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن»^(٢).

والثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ من الولاية، أي: وليتم أمور

(١) فح العولمة (٥٥-٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/٣٢٠).

الناس والحكم فيكم، أن تفسدوا في الأرض.

قال أبو العالية: «المعنى: فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم على الناس حكامًا أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشأ»^(١).

وقال الكلبي: «فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم»^(٢).
وقال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا؛ بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال»^(٣).

وهذا ما صنعتها العولمة، فلما ولي أمور الناس في العالم بارونات الربا، ودهاقنة رأس المال وشركات الاحتكار وأنظمة منظمة التجارة الحرة. وأخلاق السوق. أدبر الصلاح وشاع الفساد في كل اتجاه. وتفككت الأسر. وضاعت القيم. وأهدرت الحقوق. ودُمرت الأخلاق.

يعترف الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» بذلك، فيقول: «في دولة كانت تتباهى بالعمل الدؤوب، والعائلات المترابطة، والمجتمعات المتينة في بنيانها وإيمانها، أصبحت اليوم تميل إلى عبادة الانغماس الذاتي، والاستهلاك، ولم يعد تعريف الهوية الإنسانية بما يفعله الإنسان؛ بل بما يملكه، ولذلك اكتشفنا أن امتلاك الأشياء واستهلاكها لا يشبع حاجتنا إلى الأمور المعنوية والروحية، وقد تعلمنا أن تكديس السلع المادية لا يكفي لملأ

(١) تفسير القرطبي (١٦/١٦٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/١٦٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/٦٥٩).

الفراغ الذي يكتنف الحياة عندما لا يكون فيها إيمان أو غرض»^(١).

يعلق الدكتور «عبد الحي زلوم» على هذا فيقول: «لا يسفر هذا النموذج من الرأسمالية ذات القيم المادية عن شيء إلا الجريمة، والجريمة المنظمة وما شاكلها. وقد أوردت شركة الإذاعة الوطنية الأمريكية (NBC) عام (١٩٩٧م) في تقرير لها عن مدينة «لوس أنجلوس»، ما يفيد أن أغلبية الـ «١٥٠٠» ألفاً من أعضاء العصابات المسلحة من المراهقين، ويلقى حوالي «٩٠٠٠» شخص سنوياً حتفهم على أيدي تلك العصابات منهم «٢٥%» من المارة الأبرياء.

في ثقافة المادة والنمو الاقتصادي والرغبات المباحة، يُغذّى هؤلاء المراهقون بالثقافة التي تشجعهم على العنف وتحرضهم على الجريمة، لأنها تجارة مربحة، فالمال في النظام «الأنجلو ساكسوني»، الرأسمالي هو المقياس النهائي للنجاح»^(٢).

يقول المفكر الأمريكي «نعوم تشومسكي» مبيناً طرفاً من النتائج الكارثية للعولمة الاقتصادية وسيادة أخلاق السوق: «أدت نهاية التحالف الثري، وانطلاقة العصر الأمبريالي الجديد، إلى تشديد الحرب الطبقة الداخلية، إن ترسخ المظاهر «العالمثالية» عندنا هو من النتائج الملازمة لعولمة الاقتصاد: الميل الثابت نحو مجتمع ثنائي الإطار تكون فيه قطاعات كبيرة من السكان فائضة من وجهة نظر تعزيز ثراء أصحاب الامتيازات، ولابد الآن من أي وقت مضى من السيطرة على الرعاع أيديولوجيا ومادياً، وحرمانهم من حقوق التنظيم

(١) نقلاً عن كتاب: امبراطورية الشر الجديدة (١١-١٢).

(٢) المصدر السابق (١٢).

وتبادل الرأي التي هي شروط أولية للتفكير البناء والفعل الاجتماعي^(١).
ويضيف الدكتور «زلوم» إيضاحاً فيقول: «إن قيم هذا النظام أوجدت تبايناً صارخاً في الثروات حيث يهيمن (١%) فقط من الشعب الأمريكي على ثروات تزيد أضعاف المرات على ما يمتلكه (٨٠%) من الشعب مجتمعين.
في مطلع القرن الواحد والعشرين فقد صنف المكتب الأميركي العام للإحصاء. حوالي: (٦٠) مليون أميركي كفقراء كثير منهم مشردون دون مأوى.
وفي كل مدينة أميركية توجد أحياء فيها فقر مدقع وبذلك توجد: «عواالم ثالثة» داخل أميركا نفسها.

وصف «روبرت. إي. دافولي» "Robert E. Davoli"، المدير التنفيذي لإحدى الشركات الأميركية العملاقة، النظام الأميركي بقوله: «إن الرأسمالية هي انحراف وتضليل. لدينا أعلى معدلات الجريمة في العالم، لدينا أناس يعيشون على قارعة الطريق دون أن يُلقَى أحد لهم بالاً».

لقد أفرز نظام الرأسمالية الاستعمارية تفاوتاً وعدم مساواة بين الأمم على صعيد العالم كله وهو أمر آخذ في التزايد، وهناك (٣٥٨) مليارديراً يتربعون على ثروة مجتمعة تعادل إجمالي ما يملكه أفقر (٢٥) مليار إنسان على ظهر الأرض.
إن الرأسمالية والمصالح متعددة الجنسيات أفرزت طبقة (الواحد بالمئة) "One percent ClAss" في كل الدول القطرية، وترابطت مصالح البارونات القطريين في كل دولة مع البارونات العالميين، وتشابكت معاً، وتقدم تلك المصالح على المصالح الوطنية لكل قطر، لقد أصبح البارونات القطريون

(١) سنة (٥٠١) الغزو مستمر (٤٤٥-٤٤٦).

في بلدانهم أقل حجمًا فصاروا حراسًا لمصالح البارونات الكبار للصوص غير القطريين، بينما تم التخلي عن سيادة الدول القومية ليحل محلها نظام الدول القطرية العميلة التي تدار لحساب البارونات الكبار غير القطريين، إن أصحاب النظام العالمي الجديد هم البارونات للصوص عرابوا «ول ستريث» لقد صادروا القيم الأميركية الأصلية، وحولوا الحلم الأميركي إلى كابوس، ورفعوا من شأن الرأسمالية المعلوماتية لترقى إلى مستوى عقيدة ذات قيم ومبادئ تناسب قيم كافة العقائد الأخرى وأخلاقياتها العداء^(١).

٢- الفساد الأخلاقي، وانتشار الإباحية وهدر الأعراض، والاستخدام المذل للمرأة، ونتج منه انتشار مخيف للأمراض الجنسية وعلى رأسها (الإيدز) نتيجة لهذه الفوضى والإباحية.

إحدى أبرز معالم الفساد العريض للعولمة، والنظام الرأسمالي المادي الغربي، تقول الإحصائيات:

- ٤٠ مليون مصاب بالإيدز في العالم حتى عام ٢٠٠٠م.
- ٦٥% من النساء العاملات يتعرضن للتحرش الجنسي في مكان العمل في أوروبا. حسب مسؤولية التوظيف والسياسة الاجتماعية في المجلس الأوروبي في بروكسل.
- ١٥% إلى ٢٠% من نساء أمريكا اغتصبن بحسب دراسة أعدت بتكليف من وزارة العدل والصحة الأمريكية^(٢).

(١) امبراطورية الشر الجديدة (١٣-١٤).

(٢) انظر: عولمة الغرب وعالمية الإسلام، العربي بوسلهام (٤٧-٤٨) من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس، الرباط.

٣- أصبح الاتجار بالبشر خصوصًا النساء والأطفال سلعة رائجة في عالم اليوم المعولم، لقد عادت بفضل الرأسمالية والعولمة «تجارة الرقيق» إلى البشرية ودخلت فيها شبكات ووكالات دولية تتاجر بالنساء لأجل الجنس، وكذا الأطفال لأغراض جنسية، وشارك فيها في بعض الأحيان رؤوساء دول من دول العالم الثالث. وهدفها جمع المليارات على مصائر هؤلاء المخطوفين البؤساء. الأرقام التي تعلنها الهيئات الدولية تشير إلى أن هذه الكارثة البشرية استشرت بشكل مخيف في العقود الأخيرة.

• أعلنت منظمة «اليونيسيف» العالمية للطفولة التابعة للأمم المتحدة في تقرير لها عام (٢٠٠١م) أن أكثر من (٢٠) مليون طفل بيع خلال العشر سنوات الأخيرة في العالم لأغراض جنسية وغيرها. وأن أكثر من مليون امرأة وطفل يتعرضن للخطف والخداع ثم البيع كل عام. وأصبحت تجارة الرقيق الأبيض هذه ثالث أكبر مداخيل رأسمالية مربحة بعد تجارة السلاح والمخدرات.

ومعظم هؤلاء يُؤتى بهم من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية.

• في روسيا توجد ثمانى مؤسسات أمريكية تحتكر سوق تجارة الأطفال العالمية مقابل أسعار تتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف دولار للطفل الواحد.

• في ألمانيا تشهد تجارة النساء والأطفال انتعاشًا ظاهرًا.

فقد ذكرت المنظمة الإنسانية الألمانية في تقريرها السنوي عام (١٩٩٧م) أن حالات التبني القانونية للأطفال الأجانب عبر المنظمات الإنسانية لا تشكل سوى ٢٥% من مجموع (١١٠٠) طفل تم تبنيهم عام (١٩٩٦م) أما الجزء الأكبر فيتم عبر وسطاء مشبوهين من خلال التهريب والتزوير والخطف.

• في الصين ارتفع عدد النساء والأطفال المخطوفين بهدف التجارة

والاستغلال الجنسي فقد تمكنت الشرطة الصينية خلال عملية استمرت عشرة أيام من تحرير أكثر من (١٦٠٠) امرأة وطفل خطفوا في مقاطعة جاندونج جنوب الصين. وحسب الإحصاءات الرسمية ارتفعت نسبة النساء والأطفال المخطوفين بقصد البيع والاستغلال الجنسي من ٤-١١% عام (١٩٩٩م).

• وفي شرق آسيا أصبحت فيتنام وكمبوديا مصدرًا رئيسًا لبيع أبناء الأسر الفقيرة إلى شبكات دولية تعمل في تجارة الرقيق الأبيض^(١).

٤- الفساد بكل أشكاله وصوره وألوانه ينخر في عظام ومفاصل هذا العالم بجميع دوله وحكوماته. مما ينذر بانهايار كبير ودمار للحياة عظيم.

تصرخ الكاتبة الفرنسية: «فيفيان فوستر» في كتابها الشهير «الرعب الاقتصادي» صرخة نذير بالدمار الكبير لهذا العالم، المعولم.

تقول: «ما الذي يحصل عندما نعلم أنه ليست ثمة أزمات؛ بل مجرد تبدل وتحول يقودان المجتمع بأكمله؛ بل وحتى الحضارة بأكملها إلى المجهول؟ بدون أن ندرك أن الحضارة السابقة ولّت إلى الأبد»^(٢).

والمحصلة النهائية: أننا أمام فساد عريض... في هذا العالم متى ما بقي النظام الرأسمالي هو القائم. لا تزيده القوى الغربية في الدول الكبرى والبنوك العالمية ومنظمة التجارة الحرة إلا طغيانًا كبيرًا.

المحصلة كما تحددها منظمة الشفافية العالمية^(٣) في تقريرها الضخم الذي

(١) المصدر: مجلة المستقبل. عدد (١٢٧) فبراير (٢٠٠٢م) (٣٦-٣٨).

(٢) الرعب الاقتصادي (١١).

(٣) منظمة دولية مقرها ألمانيا أسسها إحدى مسؤولي المصرف الدولي السابقين وهو «بيترأيفن» "Petr Eigen".

طرحته بعنوان: «شبكات الفساد والإفساد العالمية»^(١).

وبعد أن جالت هذه التقارير في أنواع وصور الفساد في العالم وتحت عنوان «الخلاصة».

يقول التقرير: «الفساد في كل مكان، في البلدان الصناعية الغنية، وفي الأقاليم الفقيرة وفي الشمال والجنوب، وفي الشرق والغرب، ولأول وهلة يرسم تقرير الفساد العالمي صورة باعثة للتشاؤم. ففي كل مكان يبدو الفساد شيئاً لا سبيل إلى استتصال شأفته، وربما كان في وسع المرء أن يقول إننا كتبنا على أنفسنا نحن في مؤسسة «الشفافية العالمية» أن نهض بعبء عمل من أعمال الجبايرة الأسطوريين. ففي كل يوم تُضاف متغيرات جديدة من الرشوة والغش والمخادعة، فكاننا نتصدى لوحش مرعب ينبثق من كل رأس مقطوع من رؤوس الأفعى الأسطورية المتعددة الرؤوس ...»

يسعى الناس على النطاق العالمي إلى التذمر، أما مدى ما كان من تمييز الأثر القاتل للفساد، فذلك يتجلى في كل مكان، إذ لا يوجد بلد في العالم يكشف عن حالات الفساد الخاصة به وبينما تشعر الحكومات في بعض البلدان، أن الصحفيين المتقنين، وتجمعات المجتمع المدني يهددونهم اليوم، وترد على ذلك بالأعمال الانتقامية. يؤدي التزام «الأمم المتحدة»، ومؤسسات «برايتون وودز»، ومنظمات المجتمع المدني كمؤسسة (الفساد العالمية) وكثير من البشر الملتزمين إلى القيام بأعمال مطردة الزيادة، ضد الفساد وهناك قوانين تصدر وتوجه الاتهامات إلى السياسيين والموظفين، ويلاحقون ملاحقة جنائية، وهناك

(١) صدر هذا التقرير باللغة الإنجليزية والألمانية عام (٢٠٠٣م) وصدر بالتعاون بين كل من الصندوق الثقافي الاتحادي ومعهد غوته ومعرض فرانكفورت للكتاب، وصدرت الطبعة العربية منه سنة (٢٠٠٥م) دمشق.

مؤسسات تضع لنفسها قواعد وتأبى دفع الرشاوى، بينما يلح المجتمع المدني على المشاركة في عملية الرقابة . . .

وما من شك في أنه ما زال هناك الكثير والكثير جدًا مما يترتب فعله، ولقد كانت لنا انطلاقة حسنة، على أنها لا تخذعنا عن حقيقة أن الفوز في الكفاح ضد هذا الوبال لم يتهيأ حتى ولا في شطر منه^(١).

والعالم العربي له نصيبه الأوفى من هذا الفساد الاقتصادي نظرًا للتبعية، وعدم الشفافية.

يقدم لنا التقرير السنوي للمنظمة العربية لحقوق الإنسان هذه الصورة.

● تحت عنوان: الفساد وهدر الموارد يلتهمان ثمار النمو والتنمية:

«تخلص الدراسات المتخصصة بالشفافية ومكافحة الفساد إلى أن الفساد ونقص الشفافية يتوغلان في المنطقة العربية مما يعرقل مسيرة التنمية والمساءلة العامة، وتخلص أيضًا إلى نقص إمكانية الوصول إلى بيانات دامغة حول أشكال معينة من الفساد وطبيعته.

ويترتب على الفساد آثار مدمرة ليس على صعيد التنمية الاقتصادية فحسب؛ بل أيضًا على صعيد المشروعية السياسية والعمليات المنفذة في المنطقة كما أن الفساد يؤدي إلى تفشي سيطرة الدولة من خلال الأحزاب الحاكمة أو الصفوة من الأقلية^(٢).

إن صلاح هذا العالم لا يكون إلا بالتشريع الإلهي الكريم، فخالق الإنسان هو الذي يعلم أدواءه وهو الذي يعلم ما يصلح له ويصلحه.

(١) خاتمة تقرير: شبكات الفساد والإفساد العالمية (٣٣٢-٣٣٣).

(٢) حقوق الإنسان في الوطن العربي، التقرير السنوي (٢٠٠٩-٢٠١٠م) (٢٥١).

إن أعظم ما أنتجه النظام الإسلامي هو العدل الاجتماعي وسيادة مبدأ الرحمة والإحسان.

تكتب «كارين أرمسترونغ» "Karen Armstrng" هذه الشهادة: «لقد كان العدل الاجتماعي هو المفهوم الأكثر أهمية في الإسلام، ولقد أُمِرَ المسلمون كأولى مهامهم ببناء أمة تتميز فيما بينها بالرحمة والتي يسودها توزيع عادل للثروة إن هذا هو الأكثر أهمية من الطقوس الأخرى»^(١).

وتقدم «منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية» "OECD" هذه الشهادة: «تختلف المفاهيم الإسلامية عن الرأسمالية في أنها تعارض كثر الثروات، وعن الاشتراكية من حيث أنها لا تنكر حقوق الملكية، بما فيها ملكية وسائل الإنتاج، فالمجتمع الإسلامي الصحيح ليس بأي حال من الأحوال حلبة تتصارع فيها المصالح المختلفة وتتناحر؛ بل إنه مكان تسوده العلاقات المنسجمة التي يمكن تحقيقها والوصول إليها من خلال الإحساس بالمسؤوليات المشتركة. ولا بد لحقوق الأفراد أن تكون متوازنة مع مصالح المجتمع بأكمله على نحو متساوي»^(٢).



(١) كتاب الإسلام (٦).

(٢) من كتاب: امبراطورية الشر الجديد (٣٨٠).

خاتمة

ما نؤكد عليه في خاتمة هذا الكتاب :

أولاً: إن أي انقلاب على مشروع الاستصلاح الإلهي الحنيف المتمثل كمالاً وجمالاً في الدين الإسلامي الحنيف: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هو بالضرورة عود بالبشرية إلى مشاريع بشرية وضعية. لا تزيد الإنسان إلا ارتكاساً في بشريته المظلمة. ثم إنها شئنا أم أبينا تعيد البشر للبشر في أي صورة من الصور.

ثم هناك الخوض الفلسفي العقيم في تحديد محددات الحرية التي يبحث عنها الإنسان وهو خوض لا يزيد مفهوم الحرية إلا غموضاً.

لقد أصاب «مونتسكيو» عندما قال في كتابه: «روح القوانين» ليس هناك مصطلح تلقى من الدلالات المختلفة أكثر مما تلقاه مصطلح الحرية»^(١).

تقول الدكتورة: «يمنى طريف الخولي» في مقدمة بحثها: «الحرية في الطبيعة ماذا تعني؟

أول ما يقال من مقولة الحرية هو أنها هلامية فضفاضة، مترامية الأطراف، ضائعة الحدود، لا مبتدأ لها ولا منتهى، فالحرية تكاد تكون المقولة الوحيدة التي تتداخل في شتى كليات وجزيئات التجربة الإنسانية وسائر جوانب عالم

(١) نقلاً عن: العرب وسؤال الحرية، عبد القادر بوعرفة ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة، جامعة القاهرة (١٩٦٦).

الإنسان المعيشي، وأيضًا لقلة عقله ... فلا غرو من شيوع القول: إن الحرية مشكلة تائهة أوراق اعتمادها ضائعة»^(١).

ثانيًا: أصبح مصطلح الحرية في واقعنا العربي المعاصر وبشكل مغلوط يرتبط أشد الارتباط بالمقولات السياسية والاجتماعية ذات التوجه الليبرالي.

فالحرية المتداولة في الشارع العربي تتجه نحو تغليب النظرة الغربية التي تحاول تصدير مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان.

ومن أجل ذلك ربط الوعي العربي الصراع القائم بين العالم الغربي والعالم الإسلامي ضمن صراع القيم وخاصة قيمة الحرية.

لقد أدرك «صمويل هنتنغتن» في كتابه الشهير: «صراع الحضارات» هذا الأمر الحاسم فقال: «يخشى المسلمون، ويتبرّمون من قوة الغرب، وما تعنيه من تهديد لمجتمعهم ومعتقداتهم فهم يرون الحضارة الغربية، حضارة مادية، فاسدة، متعفنة، ولا أخلاقية، ويرغبون في درء مخاطرها عن طريقتهم في الحياة، ويزداد هجوم المسلمين على الغرب لا لكونه متمسكًا بدين غير كامل، فالغربيون على كل حال من أهل الكتاب، ولكن هجومهم أساسه أن الغرب لا يتمسك بأي ديانة على الإطلاق»^(٢).

فالمشروع الليبرالي جعل من الحرية ومنظومة الحقوق «حصان طروادة» من ذأجل الولوج بسهولة إلى القيم الإسلامية الكريمة ومن ثم تدميرها. بعد أن تعذر ذلك على الغرب بأسلوب المواجهة الصريحة.

(١) الحرية في الطبيعة ... ماذا تعني، ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة بجامعة القاهرة (٦٩).

(٢) صراع الحضارات The Clash OF Civilizations، (١٥٧).



لقد عادت أفكار منظمة «النيهليست» من جديد من مدخل الحرية الليبرالية يعرف منير البعلبكي في قاموس «المورد» النيهليست "Nihilism". «بأنها العدمية، وهي نظرة تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه، وتنكر أن يكون للمبادئ الأخلاقية أي أساس موضوعي، وترى أن الأحوال في المجتمع قد وصلت حدًا من السوء يجعل الهدم مرغوبًا فيه لذاته بمعزل عن أي برنامج إنشائي»^(١).

فأصبح الطرح الليبرالي الرافع لشعار الحرية. يعيد صياغة مقولات الإلحاد، وشبهات منكري الغيبات والساخرين بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من جديد.

بترائية وشبهات مكرورة، ما زادت هدي الأنبياء ﷺ إلا بريقًا وظهورًا ولا الإلحاد إلا زيفًا وتعريًا.

على حد قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَعَنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ طَفَافًا اللَّهُ وَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

فالذي لا يزيده ما أنزل الله على أنبيائه إلا الكفر والطغيان سيكون بحكم الله القدري على هذا الحال:

١- العداوة والبغضاء، لكل قيمة كريمة والسعي لتحقيق الأنا الفردية مما سيجعله مبغضًا معاديًا لكل ما سواه وسوى رغبته وهواه. خصوصًا ما فيه

(١) قاموس المورد (٦١٣).

قيمة فضيلة وصلاح للبلاد وخير للعباد.

٢- أنهم وقود نار لكل شر وفتنة. وحرب على الدين القويم والأخلاق المستقيمة والطهر والعفة وكل خلق كريم جميل. مما سيجعلهم دومًا أس كل شر، ورأس كل بلاء، ووقود كل حرب على القيم والأخلاق.

٣- السعي الحثيث والعمل الدؤوب للإفساد في الأرض، فصارت مادتهم الروحية وقيمهم النفسية من طبيعة الفساد نفسه، فلا تستعذب غيره ولا تستطيع أن تعيش إلا به ولأجله، فيصبح عدوها هو النور والضياء والكرامة والشرف، والصلاح والإصلاح، على حد قول الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يَأْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وعلى حد قول القائل: «ودت المرأة الزانية أن النساء كلهن زواني».

والشاعر يقول:

خفافيش أعماما النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

ثالثًا: لقد ناضل الإنسان في مراحل من التاريخ وأنواع من المجتمعات من أجل الحرية ضد كل أشكال العبودية، ولكن ما إن يظن أنه حصل عليها حتى يجد نفسه أسيرًا عبدًا مملوكًا لقوى أخرى جديدة تكبله فينشأ صراع جديد ضدها، ويجد الإنسان نفسه في حاجة إلى قوة تحميه وتحفظ كرامته.

ليطلبها بعضهم في الديمقراطية كبديل للدكتاتورية.

ويراها بعضهم في إطلاق العنان للحرية الفردية من كل عقال: لتحقيق الأنا

الذاتية، وكسر أي نوع من التسلط على حساب الأسرة والمجتمع والأمة والقيم. والمورث الثقافي كله، لتبدأ دورة صراع جديدة والشعار المرفوع دائماً والغاية المطلوبة باستمرار هي: الحرية.

عبر أحدهم وهو: «جون ستيوارت مل» عن هذا الصراع.

فقال: «ما زال النزاع بين الحرية الشخصية، والسلطة الأميرية أوضح الظواهر فيما نعرف من تاريخ أقدم الأمم لا سيما اليونان، والرومان، والإنجليز فكان معنى الحرية حماية الأفراد من استبداد الحكام . . . كان مثل الرعية مثل قطيع من الغنم تهدده طائفة من الذئاب فيلجأ الأفراد إلى أقواهم ليحميهم، لكنه عاد عليهم فكان أشد بطشاً بهم»^(١).

فصار الصراع لأجل الحرية والبحث عن الأمان هو الواقع. وشعور الإنسان بالضعف والعجز أمام القوى التي تستذله وتستعبده هو الشعور الدائم المصاحب لناشدي الحرية.

وهذا يشبه ما ذكره الله تعالى عن العرب أيام جاهليتهم فشعورهم بالخوف الدائم من القوى المسيطرة عليهم فيلجأون لما يرونه أقواها فيزيدهم رعباً ويسومهم ذلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَجَالٍ مِنَ الْإِنْسِ يَمُودُونَ بِجَالٍ مِنَ الْإِنْسِ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

[الجن: ٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله في معنى هذه الآية: «كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري

(١) كتاب: الحرية، ترجمة طه السباعي (٥-٦).

وغيرها كما كانت العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم شيء يسؤوهم . . . فلما رأت الجن أن الأنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً، أي خوفاً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم^(١). حتى طلب الإنسان لحرية الشخصية ومطالبته بكسر كل ما يعوقها هو ارتكاس خطير، وتمرد أثيم على المجتمع والأمة وفتح للهوى والشهوة بما يعني بالضرورة، العدوان والفساد.

يقول «كارل ياسبرز»: «في القرن التاسع عشر انتهى الكفاح في أوروبا ضد السلطات التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى، بمنح كل فرد قدرًا من الحرية، ربما لم يسبق لها مثيل في التاريخ ونجم من ذلك فيما يظهر أن كثيرين من الناس لم يدركوا ما يصنعون بالحرية التي ظفروا بها فقد انحرفت، وصارت أقرب إلى الهوى والتحكم»^(٢).

ظهرت النزعة الليبرالية التي دعت إلى تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية؛ لكنها حوّلت الإنسان إلى جزء من آلة اقتصادية وتقنية وبيروقراطية ضخمة تضاعلت فيها حريته واغترب بسببها عن روح أمته واغترب بها حتى عن ذاته، وعاد ساخطاً ذاماً لكل موروثة الديني والثقافي محملاً إياه كل خلل سابق ولاحق.

رابعاً: لا بد من حدود ونظام ممكن التطبيق لتنظيم مستويات وحدود ما يطالب به كل فرد فرد من حرية من جهة ومن جهة أخرى عدم مصادمة حرية الفرد مع حقوق المجتمع والأمة.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٣٩٤).

(٢) مدخل إلى الفلسفة (٢٩١-٢٩٢).



وهنا تتعدد الأطروحات ويستنفد الجهد الفكري البشري في ما هو أشبه بالخيالات والمثل الأفلاطونية.

يقدم أحد المفكرين نتيجة بحثه بعد ثلاثين عامًا من التفكير والدراسة ... يقول «كارل بوبر» في كتابه: «بحثًا عن عالم أفضل، محاضرات ومقالات ثلاثين عامًا».

«المجتمع المثالي مستحيل. ذلك أن كل القيم تتعارض مع القيم الأخرى. حتى الحرية التي تعد أسمى القيم الاجتماعية والشخصية، حتى هذه لا بد أن تكون مقيدة ... وهذا يعود بنا إلى ما قاله «إمانويل كانط» من أن مهمة التشريع هي أن يسمح للقدر الأقصى الممكن في حرية كل فرد، بأن يوجد جنبًا إلى جنب مع أقصى قدر ممكن من الحرية لكل فرد آخر» بمعنى آخر: «إن الحرية لا بد للأسف أن يقيدتها القانون والنظام، إن النظام معادل ضروري للحرية»^(١).

لكن لا حل يرجى عندما يضع البشر بأنفسهم هذا التشريع الضامن لتساوي الحريات وعدم تصادمها كما طالب «كانط»، لأنه سيكون ناقصًا حسيّرًا فيه الصنعة البشرية المأزومة الجاهلية، ذات الهوى والشهوة.

والحق ما قاله خالق هذا الإنسان: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الإمام «ابن جرير الطبري» رحمته الله: «ولو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ وذلك أنهم لا يعرفون

(١) كتاب: بحثًا عن عالم أفضل، ترجمة أحمد مستجير (١٥١).

عواقب الأمور، والصحيح من التدبير والفساد، فلو كانت الأمور جارية على مشيتهم وأهوائهم مع إثارة أكثرهم الباطل على الحق، لم تفرّ السموات والأرض ومن فيهنّ من خلق الله، لأن ذلك قام بالحق»^(١).

وقال «الإمام القرطبي» رحمته الله: «وقيل لو اتبع الحق أهوائهم أي بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم، لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد، وسبيل الحق أن يكون متبوعاً، وسبيل الناس الانقياد للحق»^(٢).

ومن حسن دلالات القرآن العظيم وترتيبه أن الله تعالى قال بعد هذه الآية في وصف النبي ﷺ، وما أنزل عليه، وما يدعو من الخير والصلاح إليه: ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٣﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ [المؤمنون: ٧٣-٧٤]. أي تدعوهم إلى دين قويم وخير عميم وهدى مستقيم، فمن عدل عنه ونكب عنه عاد إلى أهواء البشر واستعباد بعضهم بعضاً.

إن الضامن لكرامة الإنسان وحقوقه حقاً هو الشرع المنزل من عند الله خالق الإنسان العالم بأدوائه ودوائه.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٩٢ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: ٩-١١].

قال الشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمته الله: فالْمَصَالِحُ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرَائِعِ ثَلَاثَةٌ:

الأولى: دَرْءُ الْمَقَاسِدِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْأَصُولِ بِالضَّرُورِيَّاتِ.

(١) تفسير الطبري (٩/٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/٩٤).

وَالثَّانِيَّةُ: جَلَبُ الْمَصَالِحِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ بِالْحَاجِيَّاتِ.
وَالثَّالِثَةُ: الْجَزْيُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَ
أَهْلِ الْأُصُولِ بِالتَّحْسِينِيَّاتِ وَالتَّثْمِيمَاتِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَصَالِحِ الثَّلَاثِ هَدَى فِيهَا
الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لِلطَّرِيقِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.

فَالضَّرُورِيَّاتُ الَّتِي هِيَ دَرَكُ الْمَقَاسِدِ إِنَّمَا هِيَ دَرَوُهَا عَنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ:
الْأَوَّلُ: الدِّينُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
الثَّانِي: النَّفْسُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
الثَّالِثُ: الْعَقْلُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
الرَّابِعُ: النَّسَبُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
الْخَامِسُ: الْبِرُّ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
السَّادِسُ: الْمَالُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعْدَلُهَا.
أما الْمَضْلَحَةُ الثَّانِيَّةُ: جَلَبُ الْمَصَالِحِ ...، فَفَتَحَ الْقُرْآنُ لِلنَّاسِ الْأَبْوَابَ
لِجَلَبِ الْمَصَالِحِ فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ ... وَأَبَاحَ الْمَصَالِحِ الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ
الْمُجْتَمَعِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، لِيَسْتَجْلِبَ كُلُّ مَضْلَحَتَهُ مِنَ الْآخَرِ.
أما الْمَضْلَحَةُ الثَّالِثَةُ: وَهِيَ الْجَزْيُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ،
وَقَدْ حَضَّرَ الْقُرْآنُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ^(١).

خامساً: الإنسان يجهل نفسه ومرضه وما زادته الحضارة المعاصرة إلا بعداً
عن نفسه وهروباً من واقعه، لقد أصبح الإنسان في قلق وعدم توازن واضطراب
بين نفسيته وطمأنيته وبين استجابته لصخب هذه الحضارة.

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٣٢-٥٤٢) باختصار.

يقول الدكتور «الكسيس كاريل» في كتابه الشهير «الإنسان ذلك المجهول» واضحاً إصبعه على الداء القاتل: «إن الحضارة المعاصرة تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

من الواضح أن العلم لا يتبع أية خطة، وإنما يتطور اعتباطاً... إن نظم الحكومات أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم، عديمة القيمة فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين تنطبق على الرجال الجامدين، فيجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة؛ فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية.

وهكذا يبدو أن البيئة التي نجح العلم والتكنولوجيا في إيجادها للإنسان لا تلائمها لأنها أنشئت اعتباطاً وكيفما اتفق دون اعتبار لذاته الحقيقية...

إن علوم الجماد حققت تقدماً عظيماً بعيد المدى، بينما بقيت علوم البشر في حالة بدائية لقد أدى تطبيق الاكتشافات العلمية إلى تغيير العوالم المادية والعقلية، وهذه التغيرات تحدث فينا تأثيراً عميقاً، وتأثيرها التعيس إنما هو نتيجة لأنها عملت دون أدنى تفكير في طبيعتنا يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته... إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم

الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك . . . إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد»^(١).

هذا هو مصير هذا الإنسان المكبل بالعبوديات المشينة التي تستعبده ويسلم لها هو قياده ويرضى في استسلام ذليل لها فقط، عندما يصير على الهروب من خالقه، والمجادلة في آيات ربه ومبدعه، والإعراض عن شرعه ودينه الذي يعيد لحياته ونفسه استقامتها وتوازنها وطمأنيتها.

«في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الإنسان بناءً على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته اعتمادًا على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح، والجدران التي أقامها بين تجربتي الحس والوجدان، والجفاء الذي باعد به زيفًا بين عالمي الحضور والغياب، وبين ما هو قريب مرني وما هو بعيد لا تراه العيون، والتصور الذي يصدر عنه ذلك الإنسان لا يوائم بحال بين العلاقات المعقدة المتشابكة التي تحكم الكون والعالم والحياة؛ بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعها ويمزقها تمزيقًا، ويعمل فيها تقطيعًا وتشويهًا فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة وما بينها جميعًا من وشائج وارتباطات، تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء، الدين يتناقض مع العلم والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس، والمذاهب الطبيعية لا تلزم نفسها بقيم خلقية أو إنسانية.

وهكذا سلسلة من المصادمات التي لا تقتصر آثارها على العالم الخارجي

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٧-٤٢) باختصار.

فحسب بل في أعماق الإنسان وتجربته الذاتية كذلك . . . هذا هو السبب العميق الذي يؤدي في العلمانية إلى التمزق والازدواج^(١).

«أشعر كما يشعر كثير من الناس الذين هم من جيلي، أن هناك خطأ في التفريق بين الروح والجسد. إنني أحلم بشكل من الحياة فيه يسعى الإنسان (كله) روحًا وجسدًا في سبيل تحقيق ذاتي أعمق بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيره»^(٢).

وهذه دعوة كريمة من الله رب العالمين، خالق هذا الإنسان لينجو ويفلح ويجد برد اليقين.

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].
وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّطْهُمْ فِي رِجْمِهِ إِنَّهُ فَضْلٌ وَيَهْدٍ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].



(١) نهافت العلمانية، الدكتور: عماد الدين خليل (٨١-٨٣).

(٢) الطريق إلى مكة، محمد أسد (٦١).

(١) المصادر والمراجع

- اتحاف المهرة الخيرة، بالفوائد المبتكرة، من المسانيد العشرة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د زهير الناصر، ١٤١٥هـ.
- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط ٢ مصر، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق: علي محمد عوض، ط ١ بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٩٥م.
- أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة - تحقيق: تامر عباس، ط ٢، ٢٠٠٦م، دار المدى - دمشق.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير الجزري، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٩٧م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٥م.
- اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، ط ١، طهران ١٣٨١هـ.
- أصول السنة، عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق: عبد الله الغفيلي، ط ١، مكتبة الرشد ٢٠٠١م.
- الأضحوية في أمر المعاد، ابن سينا، تحقيق: د. حسن عاصي، ط الثانية ١٩٨٧م.

- أخبار الحلاج، لويس ماسينيون ويول كراوس، ط ٢٠٠٦م، التكوين للطباعة والنشر - دمشق.
- أصول مذهب الشيعة الإمامية عرض ونقد، ناصر القفاري، ط ٣، دار الرضا، مصر ١٩٩٨م.
- الأصول من الكافي، محمد يعقوب الكليني، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، ط ١ ١٤٢٦هـ.
- الأغاني، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مؤسسة دار الشعب، ط الأولى.
- إغاثة اللّهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقهي، بيروت - دار المعرفة.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، ط ٨، مكتبة الرشد ٢٠٠٠م.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى، تحقيق: يحيى إسماعيل، ط ١، دار الوفاء ١٩٩٨م.
- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي، ط ١، دار الوفاء ٢٠٠١م.
- أهل البيت في الكتاب والسنة، محمد الرّيّ شهري - طهران، دار الحديث ١٣٧٥هـ.

- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، ط ١، مكتبة العلوم والحكم ١٩٨٨م.
- البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر ١٩٩٩م.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، بيروت دار المعرفة، بدون تاريخ.
- بغية الباحث عن زوائد الحارث، علي بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسين الباكري، الجامعة الإسلامية ١٩٩٢م.
- تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م.
- التاريخ الأوسط، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد بن إبراهيم اللحيان، دار الصميعي، ط ١ ١٩٨٨م.
- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١ ١٤٢٢هـ.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: مجد الدين العمري، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصبهاني، دار الغرب الإسلامي، ط ١٩٨٨م.
- التصوف بين التمكين والمواجهة، محمد بن عبد الله المقدسي، ط ١٤٢٩هـ، دار الصفوة - القاهرة.
- التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية.
- تلخيص الذهبي على مستدرك الحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تهذيب الأخلاق، لأحمد بن مسكويه. مكتبة الثقافة الدينية، ط الأولى.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تهذيب اللغة للأزهري، بيروت، دار المعرفة ٢٠٠١م.
- الثقات، محمد بن حبان، ط ١، الهند ١٩٧٣م.
- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، خير الدين الألوسي، دار المدني، جدة.
- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط ١٩٩٢م.
- الجامع الصحيح - سنن الترمذي - تحقيق أحمد محمد شاكر.
- الجامع الصحيح، للإمام البخاري، دار السلام، الرياض ١٩٩٩م.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مؤسسة الرسالة بيروت ٢٠٠٦م.
- الحلاج أو وضوء الدم، ميشال غريب، ط ١، مكتبة الخيابة، بيروت.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصبهاني تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء، ط ١٩٨٧م.

- الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، تحقيق: د. عبد الحلیم محمود، دار المعارف، القاهرة.
- الروض الأنف -للسهيلي، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، ط ١، دار النصر- مصر ١٩٧٦م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية -تحقيق: شعيب الأرناؤوط- ط ١٣، ١٩٨٦م.
- سبل الهدى والرشاد، للصالحی -دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٣م.
- سنن ابن ماجه -تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- بيروت، دار المكتبة العربية.
- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية-بيروت.
- السنن الكبرى للنسائي -تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١م.
- السنن الكبرى -للبیهقي- دار المعرفة بيروت.
- سنن النسائي بحاشية السندي، مكتبة، تحقيق التراث الإسلامي - بيروت ١٤٢٠هـ.
- سير أعلام النبلاء للذهبي - تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، ط ٢ ١٩٨٢م.
- الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، لمحمد بن طولون الدمشقي، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط ١ ٢٠٠٦م.

- شرح النووي على صحيح مسلم، دار الكتب العلمية.
- شرح مشكل الآثار للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢٠٠٦م.
- الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى، مؤسسة علوم القرآن - دمشق ١٣٩٢هـ.
- صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان، خرجه شعيب الأرنؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م.
- طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، تحقيق: حياة بوعلوان، دار الطليعة - بيروت، ط ١٩٨٥م.
- الضوء اللامع للسخاوي، مكتبة القدس، القاهرة.
- فضائل الصحابة للإمام أحمد، تحقيق وصي الله عباس، دار ابن الجوزاء، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- فتح الباري بشرح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة سنة ١٣٩٨هـ.
- العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم: عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، ط الأولى.
- الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، دار الفكر، بيروت.
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، حيدر آباد، الهند، ط الثانية.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- غاية السؤل في خصائص الرسول ﷺ لابن الملقن تحقيق: عبد الله بحر

- الدين، دار البشائر الإسلامية ط١، ١٤١٤هـ.
- اللمع في التصوف، عبد الله بن علي الطوسي، شركة القدس للنشر، القاهرة ١٤٢٩هـ.
 - مجمع الزوائد للهيثمى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
 - المجروحين لابن حبان تحقيق محمد إبراهيم زايد، دار المعرفة، ١٩٩٢م.
 - المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابورى دار الكتاب العربى.
 - مسند أبى داود الطيالسى ١٣٢١هـ، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند.
 - مسند أبى يعلى الموصلى، تحقيق: إرشاد الحق الأثرى، ط١ مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٨م.
 - مسند الإمام أحمد بن حنبل تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.
 - المصنف، عبد الرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمى، ط١، بيروت منشورات المجلس العلمى ١٩٧٢م.
 - المصنف لابن أبى شيبه، دار الكتب الثقافية.
 - المعجم الكبير للطبرانى، حققه: حمدي السلفى، دار إحياء التراث العربى ٢٠٠٢م.
 - معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ط الأولى ١٤٠٨هـ.

- المعجم الصوفي، د محمود عبدالرازق، دار ماجد عسيري ط١، ١٤٢٥هـ.
- منهاج السنة النبوية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٩٨٩م.
- مناقب آل البيت لأبي الحسن ابن المغازلي، تحقيق: محمد كاظم المحمودي، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، طهران ط١، ٢٠٠٦م.
- المفردات للراغب الأصبهاني، دار الفكر العربي، بيروت.
- مقدمة ابن خلدون، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠١١م.
- مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: السيد صقر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.
- نسب قریش لمصعب الزبيري، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف ط. ٤.
- مذكرات السلطان عبدالحميد، تحقيق: محمد حرب، دار الوثائق، الكويت.
- اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ لمحمد بن محمد الخيضري، تحقيق: د. محمد الأمين المولود الجكني، دار البخاري، المدينة المنورة، ط٢، ١٤١٧هـ.
- المواهب اللدنية للقسطلاني أحمد بن محمد، تحقيق: صالح الشافي، المكتب الإسلامي ط١، ١٤١٢هـ.
- المناقب والمثالب أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق

ماجد أحمد العطية ط ١، ٢٠٠٢م، مؤسسة الأعلى للمطبوعات.

- المباحث المشرقية للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة، للزمخشري محمود بن عمر، تحقيق سيد إبراهيم صادق، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠١م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه، طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.
- نصوص من التراث الصوفي في الغرب الإسلامي، تحقيق د محمد العللوني ط ١، ١٤٢٩هـ.
- وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د إحسان عباس، دار صادر، بيروت ط الرابعة، ٢٠٠٥م.
- محاسن الكلم، للمبشر بن فاتك، الدار الفلسفية، بيروت ١٩٩٧م.
- طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) مراجع حديثة

- إمبراطورية الشر الجديدة، د عبد الحي يحي زلوم، ط الأولى ٢٠٠٣م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- أرض الميعاد، د. عبد الوهاب المسيري، القاهرة. ط الثانية ٢٠٠٦م.
- أسرار الماسونية، جواد رفعت آتلكخان، المختار الإسلامي.
- البعد الديني في السياسة الأمريكية، د يوسف الحسن، مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ١٩٩٠م.
- تهافت العلمانية، عماد الدين خليل، بيروت، ط الأولى.
- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د قاسم عبده قاسم، ط الأولى، ١٩٩٩م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية.
- الحركة القومية العربية بعيون عثمانية، حسن قاياي، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- الخديعة الكبرى، محمد جاد طحان، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، إسماعيل الكيلاني - مكتبة الأقصى الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الخرافات المؤسسة لدولة إسرائيل، روجيه جارودي، ط الثانية، بيروت ٢٠٠٢م.

- صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل، نهاية العالم، عاطف عبد الغني، دار الخيال، ط الأولى ٢٠٠٠م.
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د عبد الوهاب المسيري، دار الشرق، القاهرة، ط الثانية، ٢٠٠٥م.
- العولمة الاقتصادية، عباس برادة، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٧م.
- العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د سفر الحوالي مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى.
- فلسفة الحرية، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، جامعة القاهرة، طبع مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- الفكرة الصهيونية، أنيس الصايغ، دمشق، ٢٠٠٤م.
- قاموس المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط الأولى.
- الفاتيكان والإسلام، د. زينب عبد العزيز، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الثانية، ٢٠٠١م.
- القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، د سفر الحوالي، مكتبة السنة، ط الأولى، ١٤١٤هـ.
- العولمة وأثارها في الاجتهاد وآفاقه، أعمال الندوة العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، تنسيق فاروق حمادة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى، ٢٠٠٨م.
- حقوق الإنسان في الوطن العربي، تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان + التقرير السنوي (٢٠٠٩-٢٠١٠م) ط الأولى ٢٠١٠م، مركز دراسات الوحدة العربية.

- الطريق إلى مكة، محمد أسد، القاهرة، الأولى ١٩٨٠م.
- مؤشر الفساد في الأقطار العربية، أعمال الحلقة النقاشية للمنظمة العربية لمكافحة الفساد، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠١٠م.
- وتذكروا من الأندلس الإبادة، أحمد رائف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط الثانية، ١٩٩١م.
- حكم الزنا في القانون وعلاقته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب، د عابد محمد السفيناني، ط الأولى ١٤١٨هـ.
- مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، أسامة العيسى، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- السلطة في الإسلام، نقد النظرية السياسية، عبد الجواد ياسين، المركز الثقافي العربي، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- المعتقدات الدينية لدى الغرب، د عبد الراضي محمد بن عبد المحسن، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط الأولى، ٢٠٠١م.
- المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٩م.
- نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق، يوسف رزق الله غنيمه، مكتبة الثقافة الدينية، ط الأولى، ٢٠٠١م.
- النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، نور الدين آيدن، ط الثانية ٢٠٠٥م اسطانبول.
- ظلّة على الأرض ألقاب حكام المسلمين في رقوم مقدسية، أسامة العيسة،

- دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- اليهودية العالمية، وحربه المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس، دار الطليعة، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٣م.
- عودة إلى التاريخ المقدس الحريدية والصهيونية، نبيه بشير، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- تلفيق صورة الآخر في التلمود، زياد منى، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
- مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم، الدار المصرية. ط الثانية.
- كيف يربي اليهود أطفالهم، سناء عبد اللطيف، الدار المصرية، القاهرة ٢٠٠٥م.
- دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي، ط الثانية ٢٠٠٠م.
- تاريخ الأقباط، زكي شنودة، القاهرة، ١٩٧٧م.
- النكبة، عارف العارف، الدار الفلسطينية-بيروت.
- النكبة، وليد الخالدي، الدار الدمشقية، دمشق.

(٣) مراجع أجنبية

- الإسلام في القرون الوسطى، دومينيك سور ديل، ترجمة علي المقلد، ط الأولى ٢٠٠٧م، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.
- استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض، نيلز لمكة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى، مارك.ر. كوهين، ترجمة معز خلفاوي، منشورات الجمل ألمانيا، ط الأولى، ٢٠٠٧م.
- أنشودة انتصار مرفتاح، إسرائيل وشعب فلسطين، توماس طمس وإنغرد هيلين، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، جوزيف لوكليير، ترجمة جورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- التعريف بالداوية تي يونغ زينغ، دار الكتب الصينية ١٩٩٣م.
- تلفيق إسرائيل التوراتية، كيث وايتلام، ترجمة ممدوح عدوان، دار قدمس للنشر، دمشق، ط الأولى، سنة ٢٠٠٠م.
- التلمود البابلي، الطبعة الأوربية، ١٩٤٢م.
- جاذبية الإسلام، مكسيم رودنسون، ترجمة إلياس مرقص، ط ٢، ٢٠٠٥م، دار التنوير، بيروت.

- الحرب المقدسة، جان فلوري، ترجمة غسان مايو، دار المدى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٤م.
- إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة، كيث وايتلام، ترجمة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- توراة من؟ بأي حال، تاريخ فلسطين في العصر الحديدي، إنغرد هيلين، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد روني إيلي ألفا وجورج نخل، دا الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- عقيدة الألوهية في الداوية، دراسة مقارنة بالهندوسية، أيوب نور الحق شي زين رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان ١٩٩٦م.
- يشوع والعنف الغربي، نيلز لمكة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- هل ينبغي علينا أن نترك التاريخ لعلماء الآثار، توماس طمس، ط الأولى، ٢٠٠٥م، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- مفهوم الحرية في الإسلام، فرانز روز نتال، ترجمة د رضوان السيد و د معن زيادة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ٢٠٠٧م.
- فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، كاثلين كرستن، ترجمة مفيد عبدوني، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- الخيار شمشون، أسرار الترسانة النووية الإسرائيلية، سيمور هيرش، ترجمة فريق من الخبراء، دار الكتب العربي، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

- الصهيونية المسيحية، بول مركلي، ترجمة فاضل جتتكر، ط الأولى، ٢٠٠٢، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- صورة الإله الوثنية والدموية في التوراة، الأب حنا حنا، دار رام للنشر والتوزيع، دمشق ط الأولى، ٢٠٠٧م.
- الطائفون العرب والحركة الصهيونية، بني مورس ولورا آيزينغ، ط الأولى، ٢٠٠٥م، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- مخطوطات قمران، البحر الميت، الكتب الأسينية، تحقيق أندريه دوبون، سومر مارك فيلو فنكو، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- مخطوطات قمران، البحر الميت، التوراة المنحول، تحقيق، أندريه دوبون وزميله، ترجمة موسى خوري، دار الطليعة الجديدة، بيروت، ١٩٩٨م.
- عودة اليهود في الفكر البروتستانتى الإنجليزى، مير فرتة، ترجمة فاضل جنكر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠١م.
- ورثة الإمبراطورية الرومانية، ريتشارد، أ ساليقان، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط الأولى، ١٩٨٥م.
- المولوخ، آله الشر، تاريخ الولايات المتحدة، كارلها يتتس دشنر، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوزرن، ترجمة د. رضوان السيد، دار المدى الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ٢٠٠٦م.
- نصوص مختارة من كنيسة الشرق، الأب جان ماريا السالسي، الدار العربية للموسوعات، ط الأولى، ٢٠٠٧م.

- محاكمة هنري كيسنجر، كرسفر هتشنز، ترجمة فريد الغزي، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
- شبكت الفساد والإفساد العالمية، بيتر آيغن، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- النهايات، الهوس القيامي الألفي، ديتير تسمر لنغ، ترجمة ميشيل كيلو، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق، لود فيغ هاغمن، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الثانية، ٢٠٠٥م.
- سنة ٥٠١ الغزو مستمر، نعوم تشو مسكي، ترجمة مي النبهان، دار المدى، دمشق، ط الثانية، ١٩٩٩م.
- ١٩٩٩م نصر بلا حرب، ريتشارد نيكسون، إعداد المشير محمد أبو غزالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- ماركو بولو هل وصل إلى الصين، فرنس وود، ترجمة فاضل جتكر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- التنصير، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد بكلورادو بالولايات المتحدة سنة ١٩٨٧م.
- الإنسان ذلك المجهول، أليكس كارل، ترجمة شفيق أسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- الشيعة والتحول في العصر الصفوي، كولن تيرنر منشورات الجمل، ترجمة حسين علي عبد الستار، ط الأولى ٢٠٠٧م.

- الدولة اليهودية، ثيودور هرتسل، الطبعة العربية، بيروت ١٩٧٧م.
- لمحات من تاريخ العالم، جواهر لال نهرو، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف، ط الأولى، ١٩٩٥م.
- بيزنطة والإسلام، فاز ليف، ترجمة حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، دار الفكر، ط الأولى، ١٩٩٦م.
- تاريخ الإرساليات المسيحية، إستيفانت نيل، نشر دار الفكر العربي.
- الخلاصة اللاهوتية، توما الأكويني، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب، سبستين برك، سوزان هارفي وغلن بورسك، ترجمة فريد بولس وميسون الحجيري، تقديم المطران مارغر يغوريوس يوحنا، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٠م.
- الكتاب المقدس والاستعمار والاستيطان، الأب مايكل برير، ترجمة أحمد الجمل، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- موجز تاريخ العالم، ه.ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة المتبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتها إلى عام ١٩٠٥م، ليون كاهون، المقتطف ١٩١٦م.
- العقائد البدائية في الصين، وان شاو دون، مكتبة الكتب القديمة، شان هاي ١٩٨٩م.



- مختصر تاريخ الفلسفة الصينية، فون بولان ١٩٩٤م.
- ما بين عصرين، زيجينو بزيجينسكي، الدار العصرية، بيروت.
- صراع الحضارات، صموئيل هنتغتون، ترجمة المشير أبو غزالة، القاهرة ٢٠٠٢م.
- الإسلام، كارين آرمسترونغ، الدار العصرية، بيروت.
- العالم مسطحًا التاريخ الملخص للقرن ٢١، توماس فردمان، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس، الأب جورج وليمز، دار قدمس، دمشق ٢٠٠٤م.
- مناهضة الشعوب السامية، برنار لازارية، الطبعة العربية، بيروت ٢٠٠٣م.
- اليهود في كفة التاريخ، الأب قسطنطين، الدار الفلسطينية، بيروت.
- دراسة في التاريخ آرنولد تونبي، الدار العصرية، بيروت.
- مذكرات هرتسل، الطبعة العربية، ١٩٥٣م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، الطبعة العربية، ١٩٩٥م.
- إسرائيل من منظور أمريكي، بيتر غروس، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.
- الجغرافيا السياسية للفاثيكان، الطبعة العربية ١٩٩٧م.
- الأب يوحنا والمغول، ديفيد مورغان، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ١٠٠٥م.
- العالم العربي اليوم، ستان دور، دار المدى للنشر والتوزيع، بيروت.

- مكافحة الفساد تقتضي نظامًا أخلاقيًا، هانز كنغ، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٥م.
- إلى أين تتجه الرأسمالية، جون. ه. دتنغ، دار الطليعة، بيروت.
- جدول أعمال التطوير وتحدي الفساد، جمس دفلفنز، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٥م.
- فخ العولمة: هانس بتر مارتن وهارلد شومان، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥م.
- الرعب الاقتصادي، فيفان فوستر، منشورات الجمل، ٢٠٠٩م.
- الحرية، جون ستيوارت مل، دار المدى، بيروت ٢٠٠٧م.
- مدخل إلى الفلسفة، كارل باسبرز، الدار العصرية، بيروت.
- بحثًا عن عالم أفضل، كارل بوبر، الجامعة الأميركية، بيروت ٢٠٠٩م.



المرحلة الأولى: ما قبل قيام دولة إسرائيل إلى قيامها سنة ١٩٤٨ م	١٨٩
المرحلة الثانية: من قيام إسرائيل ١٩٤٨ م إلى ١٩٧٣ م	١٩٣
المرحلة الثالثة: من حرب ١٩٧٣ م إلى الآن	١٩٦
ثانيًا: النصارى	٢٠٦
دعوى التسامح الديني لدى النصارى	٢٢٣
المرحلة الأولى: مذابح الأرمن إلى الحروب الصليبية في القرون الوسطى	٢٥٦
ثانيًا: الحملات الصليبية لنشر المسيحية وإبادة الأمة الإسلامية في التاريخ الوسيط (القرون الوسطى)	٢٦٣
المرحلة الثانية: من سقوط غرناطة الإسلامية إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية ٢٧٩	
ثانيًا: الغزو الأسباني لأمريكا اللاتينية، وقيام الولايات المتحدة الأمريكية	٢٨٤
المرحلة الثالثة: سقوط الدولة العثمانية (المسألة الشرقية)	٢٩٦
تحت عنوان: الأرض المقبلة على الضياع	٣٠٣
تحت عنوان: حرب الاستقلال اليونانية	٣٠٥
تحت عنوان: التوسع الروسي	٣٠٧
تحت عنوان: الردة القسرية إلى المسيحية	٣١٢
تحت عنوان: نهاية أرض المسلمين	٣١٤
جدول بين: وفيات وهجرة المسلمين	٣١٦
الفصل الرابع: الحرية والمال بين الشرع الإلهي والتشريع البشري	٣١٩
كيف أنشأ الإسلام الأخلاق؟	٣٢١
الأمل المحمود والأمل المذموم	٣٤٣
المال في الشرع الإلهي	٣٥٨
المال في النظام الرأسمالي	٣٨٩



فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
المقدمة	٥
مدخل عام	٩
المحددات اللغوية والتعريفية للحرية	٩
إشكاليات التعريف	١٢
الفصل الأول: التقرير الإسلامي لحرية الإنسان	٢٧
الفصل الثاني: الحرية وحفظ الدين بين الشرع الإلهي والتشريع البشري	٥٥
أولاً: حالة العرب قبل الإسلام	٥٧
ثانياً: حال أهل الكتاب اليهود والنصارى	٨٨
ثالثاً: حال الفرس	٩٢
رابعاً: حال بلاد الهند	٩٣
خامساً: إذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى (الصين) ماذا نجد؟!	٩٤
سادساً: حال الجاهلية المعاصرة	٩٦
الفصل الثالث: الحرية وحفظ النفس بين الشرع الإلهي والتشريع البشري	١١٥
أولاً: قيمة النفس وحفظها في الشرع الإسلامي	١١٧
ثانياً: قيمة حفظ النفس في التشريع البشري	١٥٢
أولاً: اليهود تشريعهم وواقعهم	١٥٢
جرائم يهود في فلسطين	١٨٩



الموضوع	صفحة
الخاتمة	٤٠٩
فهرس المصادر والمراجع	٤٢١
فهرس المراجع الحديثة	٤٣١
فهرس المراجع الأجنبية	٤٣٥
فهرس الموضوعات	٤٤٣

